تُراث

@turath_cmc turath_cmc

تراثية ثقافية منوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات العدد 200 يونيو 2016

في ذكراه الـ 12

زايد

صنو العطاء

تاترا الانسجام مع العالم بلا تعقيد

«إمارات الرؤى»

يجدد تراث التشكيل

الرطب

هدية هجير الصيف

شعراء القبائل

الشاعر منصور أبو زاهرة

رمضان رائحة ومذاق

تُراث

مجلة شهرية تراثية ثقافية منوعة

تصدر عن: مركز زايد للدراسات والبحوث- نادي تراث الإمارات، أبوظبي

رمضان، رائحة ومذاق ملف 19 - 53

محتويات العدد

19 رمضان، رائحة ومذاق

تسبغ عليّنا الذاكرة حينا بنعماء استحضار وقت غضّ، عايشنا فيه تجلّي المحبة في مراتع الطفولة؛ وشهر رمضان الكريم مع ذلك الصفاء الكبير الذي يغمر الروح فيه، يفسح المجال للذكريات العذبة المتراكمة أن تتجلى، لتبرز أكثر التماعات الذاكرة تأثيرًا، تتراصف في مخيلتنا الأحداث -تلك التي كنا نراها عادية- وتتوهج كجزء من كينونتنا لتنقلنا للحظات روحانية نستعيد فيها نبض زمن كان. (مريم جمعة عبدالله)

18 شعر: يا هلا بالشهر

20 خواطر حول رمضان أول

24 رمضان وبشارة القيظ

26 الرطب، هدية هجير الصيف

30 أبغض عليّه موسم الصيف!

32 جولة افتراضية في «قرية زايد الرمضانية»

40 رمضان، رائحة ومذاق

42 ألعاب الأطفال الشعبية الرمضانية

46 ماذا يلعب أطفال فلسطين في رمضان؟

49 رمضان في كتابات الرحالة

50 الألعاب الشعبية الصحراوية في رمضان

94

زايد، حاضر لا يغيب

ودّعت الإنسانية في التاسع عشر من رمضان الموافق 2 نوفمبر 2004 الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، الوالد والقائد وصانع الإنجازات، مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة، الذي يعد أحد أكبر ناشري السعادة في أرجاء الأرض عبر نشر ثقافة التسامح والإخاء وإعلاء قيم المودة حتى حمل لقب «حكيم العرب» الذي لخّص منهجه وسلوكه في كل تفصيلة من تفاصيل حياته، رحمه الله.

تضيق الصفحات عن استحضار مآثر الراحل الكبير، ولكننا في هذا العدد الذي يواكب صدورُه شهرَ رمضان الكريم أردنا أن نستعيد درسًا من الدروس الكبرى التي خلّفها زايد على الدرب من خلال تسليط الضوء على قصة تسمية اليوم التاسع عشر من رمضان من كل عام بـ«يوم العمل الإنساني الإماراتي»؛ إحياءً لذكرى زايد الخير العطرة، عبر استعراض ملامح المشروع التوثيقي لتجربة العمل الإنساني في فكر الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان -رحمه الله- الذي يديره الأرشيف الوطني لدولة الإمارات العربية المتحدة. رحم الله زايد الخير.

يتزامن موسم القيظ هذه السنة مع قدوم شهر رمضان المبارك، لذلك فإننا نستقبلهما معًا هذا الشهر بملف يسلط الضوء عليهما، حين تصبح الرطب هدية هجير الصيف وهدية الصائمين، متتبعين ملامح الحياة الشعبية قديمًا في هذا الشهر الكريم واشكال التكاتف المجتمعي التي عرفها، وأهم أنواع الأطعمة المرتبطة برمضان وكيفية الاستعداد لوجبتي الإفطار والسحور، وما الذي بقي في الذاكرة من تلك الفترة من روائح وألوان ومذاقات، وكذلك أشكال الألعاب الشعبية التي مارسها الصغار والشباب والكبار في الماضي خلال هذا الشهر سواء في الخليج العربي أو عدد آخر من البلدان العربية، وهي منظومة شديدة الغنى والدلالة وفيها الكثير من الفكر والخيال والروح.

رمضان كريم، وعساكم من عواده.

67

ارتياد الآفاق

تاترا، الانسجام مع العالم بلا تعقيد

في مناخ متجمد، كنتُ مبهورًا بجمال المنتزه الوطني الذي اكتظ ببشر من كل الأعمار، كان بالقرب منا تلاميذ من المرحلة الإبتدائية، وقفت معلمتهم تشرح لهم عن تاريخ المقاومة البولندية في تلك الجبال، عرفتُ كيف يمكن ترسيخ قيمة الانتماء بطرق أخرى غير ترديد النشيد الوطني في طوابير المدارس فلا تتخطى كلماتُه جباهَنا!

56

شعراء القبائل

كاد لا يتكلم إلا بالشعر!

الشاعر منصور بن غانم «بو زاهرة»

يقول الشاعر حمد بن سوقات: «إن الشاعر منصور بن غانم يكاد لا يتكلم إلا بالشعر؛ فكل حديثه بالشعر، وكل ردوده بالشعر ويكاد يخلط بين الشعر وبين الحديث العادي». ويقول عنه حفيده راشد بن خميس بن عابر: «كان جدي يقول الشعر جالسًا وماشيًا، وله شعر في كل موقف ولم يواجه موقفًا أو غيره في الحياة اليومية، إلا وقال فيه بعض الأبيات».

محتويات العدد

8 زايد . . . صنو العطاء

54 أن تكون محبوبًا في الشرق الأوسط

64 صيانة ذاكرة المقاومة

66 عالم «كازا» السرّي

74 عايشة" مرسال الحياة والموت!

76 إشكالية العقل والنقل في فكر ابن رشد

81 المقص، القعدة، النواقس

82 لماذا يجب قراءة التراث الفلسفي العربي؟

86 ثقافة مجتمعية أم ثقافات؟

88 مصر في الأساطير العربية

91 عامية لويس عوض

92 أليسار . . . بانية قرطاج

94 الأمريكاني، ماضي الطب مستقبل الثقافة

99 نحن والموسيقى

100 النسر يطارد العصفورة

103 ملاحظات في الرواية العراقية

104 الاثنين أم الثلاثاء!

106 البُطان.. تراث سوداني لا يموت

109 الشعر العربي يتألق بحنجرة عبد الوهاب

110 الخنساء، ملحمة شعر الوفاء العظيم

112 عبد الله زهدي، كاتب الحرمين الشريفين

117 شوتا روستافيلي، شاعر جورجيا العظيم

118 مِسْبَحَةُ يُسْر

120 آثار درب اللبانة تتحدى الزمن

122 «إمارات الرؤى» يجدد تراث التشكيل

125 الشفاهة أصل التاريخ

126 جائزة العويس الثقافية لراشد المزروعي

128 20 لهجة محلية في الإمارات

130 خلف من يركض الحظ؟

أسعار البيع

الإمارات العربية المتحدة: 10 دراهم - المملكة العربية السعودية 10 ريالات - الكويت دينار واحد - سلطنة عمان 800 بيسة - قطر 10 ريالات - مملكة البحرين دينار واحد - اليمن 200 ريال - مصر 5 جنيهات - السودان 250 جنيهاً - لبنان 5000 ليرة - سورية 100 ليرة - المملكة الأردنية الهاشمية ديناران - العراق 2500 دينار - فلسطين ديناران - المملكة المغربية 20 درهماً - الجماهيرية الليبية 4 دنانير - الجمهورية التونسية ديناران - بريطانيا 3 جنيهات - سويسرا 7 فرنكات - دول الاتحاد الأوروبي 4 يورو - الولايات المتحدة الأميركية وكندا 5 دولارات.

إشكالية العقل والنقل في فكر ابن رشد

لا بد لنا أولاً من فحص العلاقة بين طرفي الموضوع خاصة قضية العقل ونموذج ابن رشد الفكري وهو فحص يستند تاريخياً إلى معركة وسجال فلسفيين وفكريين ما زالت رحاهما دائرة حتى اليوم.

كتّاب وشعراء ومحررو العدد:

جمال مشاعل، سرور خليفة الكعبي، د. عبد الله جمعة المغني، محمد شحاته علي، مريم جمعة عبد الله، د. علي عفيفي، سما حسن، أيمن عبد السميع، د. بوزيد الغلى، د. وائل إبراهيم الدسوقي، أنس الغيلاني، محمود شرف، مختار سعد شحاته، أحمد محجوب، صديق محمد جوهر، د. سعيد يقطين، سعيد بوكرامي، عائشة الدرمكي، د. هويدا صالح، محمد عيد إبراهيم، الياس عازر، أشرف أبو اليزيد، عبد الهادي روضي، محمد بركة، سمير قسيمي، محفوظ بشرى، ناصر عراق، أحمد فرحات، د. محمد حسن، فيصل رشدي، د. تامر فايز، رانيا هلال، فاطمة عطفة، فاطمة المزروعي، د. فاطمة حمد المزروعي.

الاشتراكات

للأفراد داخل دولة الإمارات: 100 درهم/ للأفراد من خارج الدولة: 150 درهماً - للمؤسسات داخل الدولة: 150 درهماً / للمؤسسات خارج الدولة 200درهم.

تراثية ثقافية منوعة

تصدر عن:
مركز زايد للدراسات والبحوث- نادي تراث الإمارات، أبوظبي

المشرف العام
د. راشد أحمد المزروعي

مدير التحرير
وليد علاء الدين

الاخراج والتنفيذ
غادة حجاج

الموقع على الإنترنت:
www.mags.ae

عناوين المجلة

الادارة والتحرير:
الامارات العربية المتحدة-ابوظبي
مدير التحرير: waleedalaa@hotmail.com
موبايل: 00971556929190
هاتف: 026666130
مسؤول التوزيع: أحمد عباس
marketing@cmc.ae
+971 56 3150303

أبوظبي للإعلام-توزيع
الرقم المجاني : 8002220 فاكس : 02 4145050
للاتصال من الخارج: 00971 02 4145000+
distribution@admedia.ae

سميّ يوم رحيله بـ«يوم العمل الإنساني الإماراتي»

زايد... صنو العطاء

جمال مشاعل

حظيت القضايا الإنسانية والخيرية بمكانة متقدمة في فكر الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان- رحمه الله- فامتد عطاؤه داخل الحدود وخارجها إيمانًا منه بوحدة المصير الإنساني في كل مكان، وإحساسًا بـدوره في تأسيس مسيرة العطاء الإنساني في الدولة؛ فقد سميّ يوم رحيله بـ«يوم العمل الإنساني الإماراتي»؛ إحياءً لذكراه العطرة، وقد بدأ ذلك عام 2012؛ إذ تحول يوم التاسع عشر من رمضان من كل عام إلى «يوم العمل الإنساني الإماراتي». وعن هذه المبادرة قال صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي رعاه الله: «إن زايد هو منبع الجود وأصله، وإنه من غرس في شعبه حب العطاء والبذل من دون مقابل، ولا بد لصاحب هذا الفضل أن يُذكر في هذا اليوم، وخير ما نذكره به -رحمه الله - إنسانيته وعطاؤه وكرمه، الذي لم يميز به بين قريب وبعيد، والذي جعل الإمارات محطة إنسانية عالمية للعطاء».

الإمارات مظلة المحتاجين

في عهد الشيخ زايـد أصبحت دولـة الإمـارات العربية المتحدة مظلة للمحتاجين ولمن حلت بهم الأزمـات، فقد حباه الله بقلب عامر بحبّ الإنسانية فبلغ جوده كافة بقاع الأرض لتواسي المنكوبين والمحتاجين، وأصرّ -رحمه الله-على أن يكون النهج الخيري والإنساني نهجًا لدولة الإمارات لكي تكون السباقة إلى المكارم على طريق الخير والإنسانية، ولا تزال «مؤسسة زايد بن سلطان للأعمال الخيرية والإنسانية» في مقدمة مؤسسات الدولة تحتفي بشهر رمضان المبارك بالأعمال الخيرية والإنسانية التي تنسق مع سفارات الدولة لتنفيذ الموائد الرمضانية.

أولى الشيخ زايد العمل الإنساني والخيري -أينما كان-اهتمامه، فأسهم في إنشاء المشروعات الخاصة، وقدم المساعدات لمتضرري الكوارث الطبيعية، ووجّه المساعدات إلى كل محتاج وفقير في العالم، ليرفع المعاناة والشقاء عن ملايين البشر. ولا يمكن الإحاطة بالمشاريع الإنسانية والخيرية الرائدة التي دعمها في مجالات الأمومة والطفولة، ورعاية الأيتام وتوفير ماء الشرب، والمكتبات التثقيفية، والمعاهد العلمية والجامعات، والخدمات الصحية والعلاجية، وغيرها من المشاريع الإنسانية.

وفي هذا الإطار تعمل مؤسسات الدولة على إبراز الدور الرائد للمغفور

له -بإذن الله- الشيخ زايد في المجال الإنساني لترسخ ثقافة العمل التطوعي؛ إذ لا تفرق الإمارات بين الشعوب على أسس الانتماء الديني أو العرقي، ومناقب الشيخ زايد في هذا المجال لا تعد ولا تحصى، وهو ما جعل الإمارات تتربع على عرش قلوب الملايين الذين وصلت إليهم المساعدات لتخفف عنهم آثار الأزمات والكوارث.

إن ما قدمه الشيخ زايد على صعيد العمل الإنساني والخيري جعله قدوة للإنسانية، وهذا ما أكده في حفل إطلاق التقرير الأول لمساعدات الإمارات الخارجية صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي -رعاه الله- حين قال: البداية كانت من زايد، والجود أصله وبدايته من زايد، والعطاء الحقيقي له اسم آخر يسمونه زايد ... ولا يحتاج زايد لشهادة منا؛ فشهوده كثيرون غيرنا، تشهد لزايد مدن فلسطين، وهضاب باكستان، وسهول المغرب، وسدود اليمن، وقرى بنجلاديش ... يشهد لزايد آلاف الأيتام، ويدعو له آلاف المرضى، ويدرس في مدارسه الخيرية آلاف الأطفال.

زايد رجل بنى أمة

ورد في كتاب (زايد رجل بنى أمة) الذي أصدره الأرشيف الوطني لدولة الإمارات العربية المتحدة أن النظرة الأولى للقائد المؤسس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان بعد تسلّمه مقاليد الحكم في أبوظبي اتسمت بالطابع الإنساني؛ فكانت موجهة إلى معاناة

البشر، إذ أرسل بعد تسلمه أول تقرير شامل عن الأوضاع المالية لأبوظبي، وكان التقرير مبشرًا- موظفي القصر إلى المناطق الفقيرة من المدينة لدعوة فقرائها من المواطنين إلى مجلس الحاكم، وهي دعوة لم يسبق أن وجهت إلى هذه الفئة من المجتمع التي كانت منقطعة تمامًا عن النخبة الحاكمة، واستقبلهم ورحّب بهم، وقدم مبلغًا من المال لكل واحد منهم، وكان المبلغ يوازي ما يحصله الواحد منهم في سنة كاملة، وقد أوصى كلًا منهم بأن ينفق ما أُعطي بحكمة وحرص على عائلته، وتقاطر الناس إلى المجلس، وكان موظفو القصر منتشرين في أرجاء المدينة بحثًا عن المزيد من ذوي الحاجة، ثم امتدت يده الحانية إلى مناطق البدو، وزحف آلاف الناس إلى القصر، وكان كل واحد منهم يمر بالشيخ زايد ليتسلم هديته المالية، وتواصلت هذه العملية أسبوعًا كاملًا، وما من شخص وصل إلى القصر وعاد خائبًا، وبلغ ما وزعه الشيخ زايد ما يقارب عشرين مليون دولار تقريبًا.

لقد أولى الأرشيف الوطني لدولة الإمارات العربية المتحدة العمل الإنساني في فكر الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان اهتمامًا كبيرًا، فعمل لتوثيق جوانب كثيرة منه في إصداراته ولا سيما في كتاب (زايد رجل بنى أمة) الذي يستعرض العديد من مواقف القائد الخالد

ذات الطابع الإنساني، وفي هذا الإطار جاء إنشاء (صندوق أبوظبي للتنمية الاقتصادية العربية) الذي أنشئ لتمويل مشاريع التنمية في البلدان العربية المحتاجة، وكان المؤسسة الإماراتية الرئيسية المعلنة لتقديم المساعدات. وتوسع عمل الصندوق بعد تأسيسه؛ فتبنى مشاريع في إفريقية، وآسيا، ورفع الشيخ زايد رأس ماله إلى 4,4 مليار دولار، وبذلك تمكن الصندوق من رفع وتيرة نشاطه، فقدم الهبات والقروض الميسرة التي توزعت على أكثر من خمسين مشروعًا بين عامي 1974و1975، منها واحد وثلاثون مشروعًا في العالم العربي، وعشرة مشاريع في إفريقية، وتسعة في آسيا. وكان الشيخ زايد حريصًا على حسن إدارة الصندوق، وكثيرًا ما كان يلغي بعض الديون المترتبة شريطة عدم إعلان ذلك، وكان الاهتمام يتركز في مشاريع البنى التحتية التي ترتقي بحياة الإنسان.

بعد عودة الشيخ زايد من زيارته للسودان عام 1972 عبّر عن تعاطفه مع ذلك البلد وأهله، وقدم صندوق أبوظبي الدعم والعون لتخفيف معاناة أبنائه من الحرب والجفاف، فدعم مشاريعهم الزراعية، ومشاريع البنى التحتية، وأدى دعم أبوظبي للسودان الإنعاش إلى اقتصادها.

لم يأبه الشيخ زايد باسم الدولة أو نوع الناس عند تقديم المساعدة، وكان ذلك ببساطة التزامًا منه بتقديم العون بدلالة الدعم الذي قدمه لسري لانكا حين طلبت حكومتها من الصندوق مساعدة مالية لتحديث عمليات صيد السمك التي يعتمد عليها قرابة 72000 نسمة

من السكان.

كان الشيخ زايد يعتقد أن الثروة التي تتمتع بها أبوظبي جعلت من واجبه تقديم المساعدة حيثما استطاع: في الداخل، أو في الخارج؛ لأن الثروة سمت بسمعة الإمارات العربية المتحدة في المجتمع الدولي. وكان – رحمه الله – يتعاطف كثيرًا مع الناس العاديين في أوقات المحنة والمعاناة؛ لذا أدرك المعاناة التي كابدها الفلسطينيون فصار نصيرًا لقضيتهم وقـدم الكثير من المعونات لتمويل الإغاثة والإسعافات الطبية في المخيمات، وحيثما ذهبت في الأراضي الفلسطينية وجدت المدارس والمستشفيات التي تحمل اسمه، والكثير سواها مما لا يحمل اسمه، وإنما يعود الفضل في إنشائها إلى أياديه البيضاء.

لقد كان الشيخ زايد شديد التعاطف مع الناس العاديين الذين عانوا ويلات الحروب، لكن حسّه الإنساني المرهف كان يتجلى عندما يعبر عن ألمه حيال معاناة الأطفال؛ لذلك سارع إلى مداواة جراحهم وتخفيف آلامهم؛ ففي عام 1973 أمر المسؤولين في حكومته بأن يبدؤوا نقل المساعدات إلى سوريا ومصر دون إعلانها في وسائل الإعلام، وتم نقل مئات الجرحى بالطائرات من سورية ولا سيما الأطفال إلى مستشفيات أبوظبي، وإلى مستشفيات أوروبية ليحصلوا على العناية الطبية اللازمة.

وفي أواسط تسعينيات القرن الماضي انتشر مرض (الدودة الغينية) على مستوى الوباء في بلدان كباكستان والهند واليمن، ومناطق واسعة جدًا من إفريقية، لا سيما المناطق الصحراوية، وهنا انبرى الشيخ زايد ليتبرع بالمال دعمًا للجهود التي تكافح هذا الوباء أو ما عرف بالأفعى النارية، فبدأت مصادر الماء العذب بالانتشار، وهو ما أبعد الناس عن المياه الموبوءة التي كانت سببًا في انتشارها.

ووقفت دولة الإمارات العربية المتحدة بقيادة الشيخ زايد إلى جانب دولة الكويت الشقيقة حين تعرضت للغزو، فساندتها بأشكال الدعم كافة، ولا سيما الدعم الإنساني؛ إذ أمر الشيخ زايد - بعد تحريرها- بإرسال الفرق الطبية إليها، ووجّه بشحن ما أمكن من مياه الشرب - على وجه السرعة- وبتحميل الشاحنات بالمولدات الكهربائية وتوزيعها على السكان والمقيمين في الكويت، هذا فضلًا عما قدمته الإمارات لضيوفها الكويتيين على أرضها.

وتلقت الصومال في بدايات تسعينيات القرن الماضي المساعدات ومواد الإغاثة من الإمارات لتوزعها على ذوي الحاجة، وفي اليمن كان الشيخ زايد أشبه بالأب الروحي، وكانت يده البيضاء في هذا البلد حاضرة دومًا. وبعد توجيه الشيخ زايد بضرورة تقديم المساعدات والإغاثة إلى البلدان التي تتعرض للكوارث الطبيعية دون اعتبار

للدين أو العرق، هبت دولة الإمارات لتقديم المساعدات إلى إيران إثر الزلزال العنيف الذي ضرب إقليم أردبيل الإيراني عام 2003، وأدى إلى تشريد أربعين ألف نسمة، فأرسلت الإمارات آلاف الخيم وعشرات آلاف البطانيات والمدافئ والمصابيح، وأطنان من حاجات الأطفال: غذاء وملابس، وأدوية.

زايد قدوة للإنسانية

لقد كان الشيخ زايد - رحمه الله – لا يطيق أن يرى إنسانًا معوقًا –جسديًا أو عقليًا- مقيدًا بالعوائق الاجتماعية والتقليدية. وفي أحد الأيام كان يقود سيارته على طريق المطار في أبوظبي، وإذا به وسط زحمة مرور خانقة، وكان الزحام مركزًا حول أحد المباني، فخرج من سيارته ليستكشف السبب فقيل له: إن السيارات التي تعرقل الطريق هي لأهالي الأطفال المعوقين الذين يصطحبون أطفالهم من المركز الخاص بهم، والمركز في الدور العاشر من البناء، والمصعد كان معطلًا، فأمر على الفور بتخصيص مبنى مناسب لأولئك الأطفال، وقام – طيب الله ثراه- بزيارة مركزهم الجديد، وأحاطهم بالعناية والاهتمام.

وفي تسعينيات القرن الماضي وضع الشيخ زايد –طيب الله ثراه- وحكومته ملايين الدولارات في تصرف الحكومة البوسنية، وضخّت الحكومة الإماراتية المساعدات المالية لإنعاش مشاريع الطوارئ الاجتماعية والمستشفيات في العاصمة سراييفو المحاصرة.

وبحسب التقديرات فقد أنفقت الإمارات العربية المتحدة على المساعدات الخارجية بين عامي 1971 و1996م ما يزيد على 17,4 مليار دولار، واستفاد منها أكثر من أربعين بلدًا في ثلاث قارات. وما ذلك إلا غيض من فيض، وقليل من كثير مما قدمه الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان – رحمه الله - من عطاءٍ خيري وإنساني عمّ العالم ما جعل إحصاء أعماله الخيرية والإنسانية مستحيلًا، ولا سيما أن كان يميل إلى عدم الإعلان عما تجود به أياديه للضعفاء والمحتاجين مراعاة لمشاعرهم، وإيمانًا منه بأن ما يقدمه واجب يمليه عليه الدين الإسلامي.

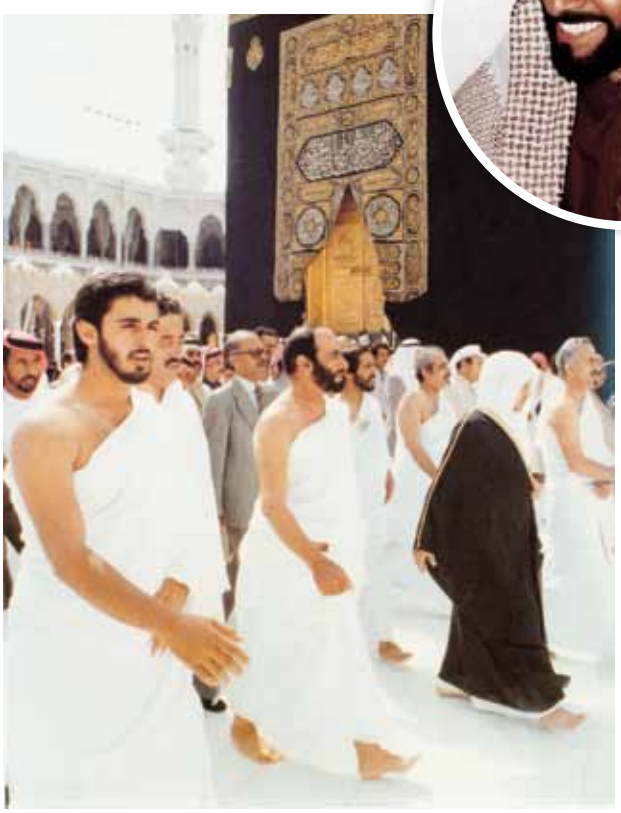

زايد.. صنو العطاء

إن جلائل أعمال الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان على صعيد العمل الخيري والإنساني جعلت الأوسمة والجوائز التكريمية والتقديرية تسعى إلى مقامه لتشهد أمام العالم أجمع بعطائه الإنساني والخيري الذي خفف آلام الإنسانية أينما كانت، ومن هذه الجوائز

والأوسمة: الوثيقة الذهبية من المنظمة الدولية للأجانب في جنيف عام 1985 باعتباره أهم شخصيه لذلك العام، ولدوره البارز في المجالات الإنسانية والحضارية، واختياره – طيب الله ثراه- شخصية عام 1999م الإسلامية، لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم؛ لما يوليه من رعاية كبيرة لبرنامج الرعاية الاجتماعية والإنسانية، ولما يقدمه من دعم للتعاون الإسلامي في كافه الميادين، ولإنشائه برامج المشروعات الخاصة، وبرامج الأنشطة الإسلامية الخيرية والثقافية والتعليمية، وتقديم المساعدات لمتضرري الكوارث.

ومعظم الجوائز والأوسمة التي سعت إلى مقامه– رحمه الله- كانت تشهد بجلائل أعماله الخيرية والإنسانية والإنمائية. وعلى نهج الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان – طيب الله ثراه- سارت دولة الإمارات قيادة وشعبًا؛ إذ استطاعت أن تكون من أكثر دول العالم عطاءً، وهذا دليل أكيد على أن نهج دولة الدولة الإنساني الذي أرسى دعائمه الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، يتعزز ويتواصل في ظل القيادة الرشيدة.

لقد حرص القائد المؤسس طوال حياته على دعم قضايا الشعوب في مختلف بقاع العالم بغض النظر عن انتماءاتهم، وبذلك جعل من دولة الإمارات رائدة العمل الخيري في مختلف الميادين، فوجه طاقات الشعب إلى مناصرة الضعفاء والمحتاجين وحمايتهم من مخاطر الفقر والمرض والجهل، وأسفر هذا التوجه الإنساني عن بلوغ دولة الإمارات مكانه متميزة في ميادين العمل الخيري إقليميًا وعربيًا وعالميًا، وحظيت بمساحة كبيرة في فضاء العطاء الإنساني، وقدمت للعالم أنموذجًا فريدًا في تجسيد قيم البذل والعطاء لتخفيف معاناة البشر.

لقد سارت عطايا القائد المؤسس –رحمه الله- وأعماله الخيرية في جميع الجهات لتصل إلى جامعة أريزونا الأمريكية، ولتدعم أنشطة منظمة اليونيسيف التابعة لهيئة الأمم المتحدة والهادفة في برامجها لمساعدة الطفولة، كما وصلت مساعداته مرارًا وتكرارًا إلى الشعب الفلسطيني، وإلى كل من اليمن والسودان، ومصر والبحرين، والمغرب والسنغال، والصين وأمريكا، والبوسنة والهرسك والشيشان، واليونان، ولم يكن هذا التوجه إلا جزءًا من شمائل الشيخ زايد ومثله العليا، وهو الذي كان يكرر دائمًا أن هذا الخير والرزق من عند لله سبحانه وتعالى، فكان دائمًا مشغولًا بكيفية مساعدة الدول الشقيقة ويسعى باحثًا عن المشاريع التي تحتاج إليها، ويأمر بتنفيذها على وجه السرعة، وهذا ما جعله يحظى باحترام متزايد على مستوى العالم ■

زايد

الشاعر حسن إسماعيل:

ـ رحمه الله ـ استطاع بحكمته وإصراره أن يوحد بين القلوب على أساس من الشورى والعدل

أبوظبي – وليد علاء الدين

الشاعر الدكتور حسن إسماعيل أحد الشعراء العرب الذين أتيحت لهم فرصة اللقاء والتحدث مع فقيد الأمة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان -رحمه الله- وهو من الشعراء الذين عاصروا وعايشوا تجربة إقامة الإتحاد وتأسيس دولة الإمارات منذ مراحلها الأولى في عام 1971م.

في عام 1992م نشر ديوانه المعنون (واعتصموا) الذي قدّم له معالي أحمد خليفة السويدي بكلمة أشار فيها إلى أن الشاعر تابع بصدق وإخلاص مراحل نمو وتطور دولة الإمارات، ولمس عن قرب حجم الجهد والعطاء والإنجاز والتطور الذي تحقق بفضل القيادة الرشيدة.

والشاعر حسن إسماعيل حاصل على درجة الدكتوراه في الأدب العربي من بريطانيا حيث أقام وعمل أستاذاً لمادة الأدب العربي في جامعاتها، وفي زيارة له لدولة الإمارات، التقته «تراث» وكان لنا معه هذا الحوار:

(واعتصموا) هو اسم الديوان الشعري الذي سطرته في فقيد الأمة الشيخ زايد رحمه الله، وقدمه لك في عام 1992 م معالي أحمد خليفة السويدي بمقدمة أشار فيها إلى أنك لمست عن قرب حجم الجهد والعطاء والإنجاز والتطور الذي تحقق بفضل قيادة زايد الرشيدة، وأنك أجدت التعبير عن المعاني الوطنية السامية، ماذا عن تجربة ذلك الديوان؟

إنني كشاعر أجد أن الشخصيات العامة التي تحتل مكانة سامية في بلدها أو في بلاد العالم لابد وأن تحظى باهتمام الشعراء سيما وإن كان لها من المآثر والمناقب والأعمال الجليلة ما يرفعها لتكون جديرة بالذكر والتكريم، وبأن تكون المثل الأعلى الذي يحتذى، والأسوة الحسنة التي تتبع، لذلك فإن ذكر هؤلاء العظام وتدوين أعمالهم إنما يجيء عبرة طيبة تذكر على مر العصور، فُيسار على نهجها، ويُنسج على منوالها، وكم تناول الشعر العربي في مسيرته التاريخية الخالدة تخليد الفتوحات والمعارك والانتصارات وتكريم قادتنا لذين كانوا على رأس الفاتحين.

أعجبت أيما إعجاب بالشيخ زايد، رحمه الله، سيما وأنني كنت من الجيل الذي عاصر في صباه الوحدة بين مصر وسوريا، ثم أصيب بالخيبة عندما وئدت، وقد أنعش زايد الأماني الوطنية المكظومة في ضمائرنا، وعمل على إحيائها واستمرارها فتمثل أمامي بالفارس القديم، والقائد الحديث في توحد متآلف متزن، فهو مع القديم في تحليه بالشمائل العربية الأصيلة، من إيثار وحلم ومروءة، بل بصفات الفتوة التي عرفناها من أجدادنا الأولين فيما وصل إلينا من تراثهم المكين، وهو الذي اهتم زايد بإحيائه من جديد، وهو مع الحديث في حبه للتطور ونبذه للتخلف والجمود والتعصب، والعمل على التنوير والترقي، فقد استطاع زايد – رحمه الله- بحكمته وإصراره أن يوحد بين القلوب على أساس متين من الشورى والعدل والتعاون والبناء وهو كذلك لم يبخل بعمل مفيد أو برأي سديد يسديه لإخوانه المسلمين والعرب في شتى أقطارهم على امتداد المعمورة.

كان لاختيارك عنوان الديوان دلالة عميقة على ما تضمنه من قصائد، ما الفكرة وراء هذا الاختيار؟

التمست العنوان من المعنى الشريف الطاهر في الآية الكريمة (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً)، فزايد الزعيم قائد لا ينسى له مآثره وبطولته في حرب رمضان المجيدة، وحسبه أنه أوقف تصدير النفط كله إلى الدول التي تساند العدو، بل وأعلنها مدوية على الملأ جميعاً بأن البترول العربي ليس أغلى من الدم العربي الذي يجاهد من أجل تحرير الأرض العربية السليبة، معلناً بأنه لا يخاف من أحد ولا يخشى إلا الله وحده، وحسبه أيضاً أنه اقترض مبلغاً ضخماً من المال من المصارف الأجنبية لدعم معركة العبور حينما لم يكن لديه من السيولة النقدية الكافية نتيجة توجيه كل المال إلى تنفيذ الخطط التنموية الطموحة في بلاده، وكم كذلك لزايد – رحمه الله- من مواقف وطنية وضاءة ورائعة أثبت فيها حبه لدينه وبني قومه بعطاء وإيثار وشهامة وآية ذلك (مدينة زايد) في مصر، و(سد مأرب) في اليمن، كما كان أول زعيم عربي يعيد العلاقات مع مصر بعد مؤتمر القمة العربي الذي عقد في عمّان عام 1988م، وغير ذلك الكثير والكثير.

لك مساهمات شعرية أخرى في مناسبات عديدة في دولة الإمارات، ماذا تذكر منها؟

في العام 1974 كانت أول زيارة لي إلى دولة الإمارات العربية المتحدة، وتحديداً في الثاني من ديسمبر من ذاك العام، حيث كانت الدولة تحتفل بعيد اتحادها، حيث ساهمت فنياً في هذا الحدث بكتابة نشيد الاتحاد الذي يُبرز اسم الدولة وفكرة الاتحاد، وهو النشيد الذي يُعزف حتى الآن في كل الأعياد الوطنية، بعدها قدمت موشحاً على المقام الثقيل بعنوان (يا زايد الأمجاد) وهو ملحن ويؤدى بصوت المجموعة، كما قدمت أوبريت (عيد الإمارات) الذي غناه أكثر من ستة مطربين.

كما كان لي شرف الالتقاء بفقيد الأمة -رحمه الله- في مناسبات ومواقف عديدة في جنيف والمغرب وفي مصر، وكان لي الحظ أن أكون عضو شرف في زيارة سموه عام 1988 بعد مؤتمر عمان ليكون أول من أعاد العلاقات السياسية والدبلوماسية مع مصر، ويومها ألقيت قصيدة في سفارة الإمارات في القاهرة في حضرته الكريمة.

ما الذي يمكن أن تصف به تجربة دولة الإمارات كما عايشتها؟

المهم في هذا الصدد أن تركيبة هذه الدولة تُعنى بالأخلاق، وهو أمر متغلغل في نفوس أبناء هذه الأرض أفراداً وأسراً وعائلات، كيان الأسرة محفوظ وله احترامه وتقديره، وذلك لوجود التقاليد والشمائل العربية الأصيلة.

الشيخ زايد رحمه الله، كان على دراية بهذه التركيبة الأصيلة، فسعى إلى توفير شروط الاستقرار، لأنه لا حضارة من دون استقرار، وفر شروط الزراعة والرعاية الصحية، وفر مصادر الرزق، استقدم المعلمين والمدرسين الأكفاء من أنحاء العالم العربي، انتقاهم بمهارة ودقة ووفر لهم البنية الأساسية الصالحة، والمناهج الدراسية المنتقاة، أخذ الثمين من كل شيء وترك الغث، اهتم بثقافة القرآن الكريم، واللغة العربية، هذه الملامح هي ما جعلت من أنموذج الإمارات النهضوي ما عليه الآن ■

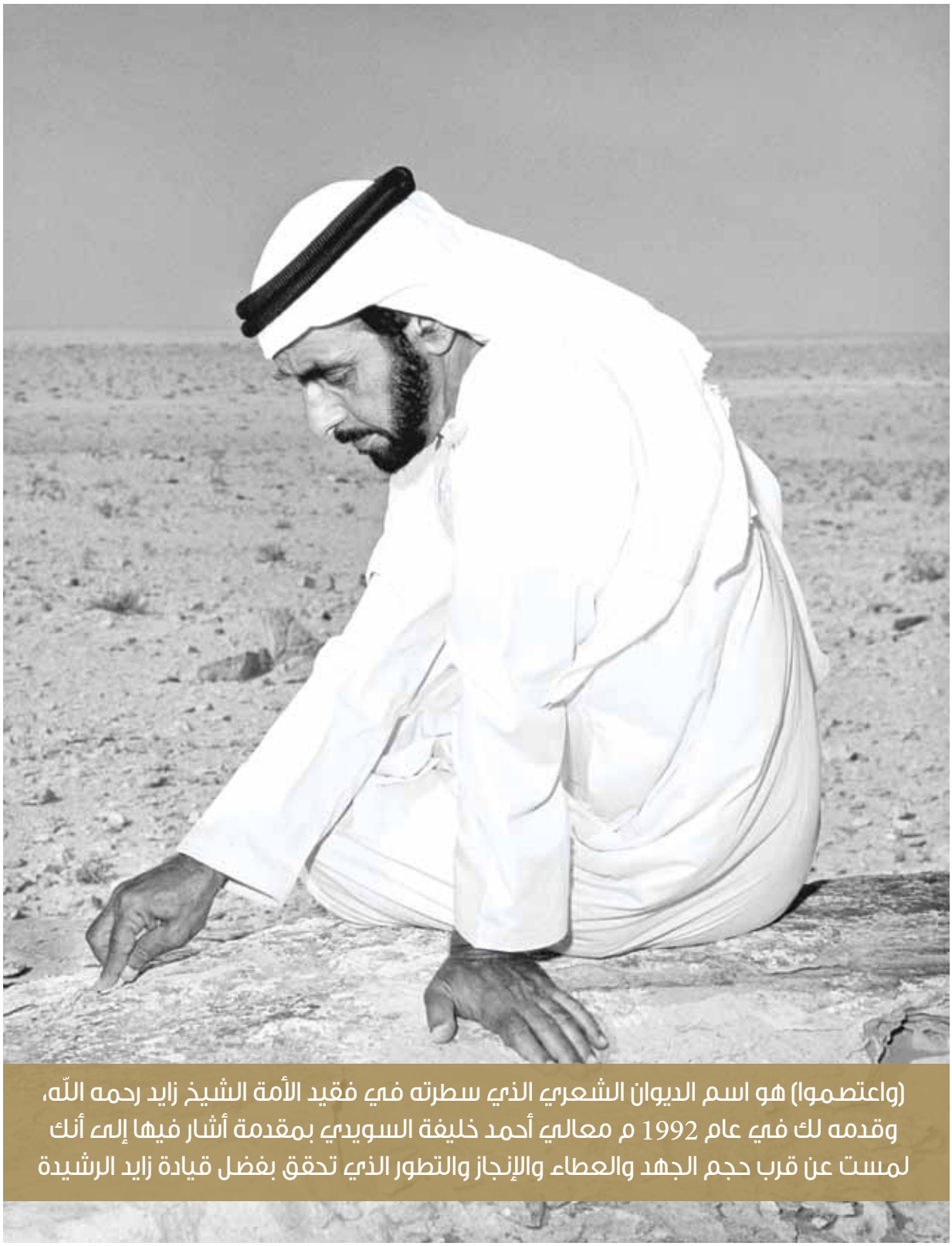

(واعتصموا) هو اسم الديوان الشعري الذي سطرته في فقيد الأمة الشيخ زايد رحمه اللّه، وقدمه لك في عام 1992 م معالي أحمد خليفة السويدي بمقدمة أشار فيها إلى أنك لمست عن قرب حجم الجهد والعطاء والإنجاز والتطور الذي تحقق بفضل قيادة زايد الرشيدة

يا هَلا بالشهرْ

الشاعر محمد الكوس

يـا هَــلا بـالـشـهـرْ لـي تَـــوَّهْ قِـبَـلْ

مـرحـبـا ابـشـهـر الـتـعـاطـفْ والـوقـارْ

مـرحـبـا بـه عَــدِّ مـا حــلْ أو رَحــلْ

وانـقـضـى ثـم عــاد والـنُّــور استـنـار

مـرحـبـا ابـشـهـر الـفـرايـض والـنِّـفِـلْ

والـتـقـى والـصـوم فـي طـول الـنـهـارْ

والــتــآخــي والــتــراحــم والـعـمـلْ

فـي سبيل الـخـيـر فـي دنـيـا الـدمـارْ

رمضان، رائحة ومذاق

خواطر حول رمضان أول

رمضان وبشارة القيظ

الرطب، هدية هجير الصيف

أبغض عليّه موسم الصيف!

جولة افتراضية في «قرية زايد الرمضانية»

رمضان، رائحة ومذاق

ألعاب الأطفال الشعبية الرمضانية

ماذا يلعب أطفال فلسطين في رمضان؟

رمضان في كتابات الرحالة

الألعاب الشعبية الصحراوية في رمضان

خواطر حول رمضان أول

سرور خليفة الكعبي

زمان أول، كانت الاستعدادات لاستقبال الشهر الفضيل تبدأ قبل دخول شهر شعبان، وذلك «للتمبير» أي الحصول على «الميرة» -وهي المواد التموينية اللازمة لوجبات الإفطار والسحور- والتي كانت متوفرة في الأسواق المعروفة كسوق دبي والبريمي وصحار والباطنة.

وبالنسبة لسكان منطقة مثل «الساد» في «العين» مثلًا؛ فإن الوصول إلى سوق البريمي والعودة منه (على بعد حوالي أربعين كليو مترًا) قد يستغرق يومين، فيما تستغرق الرحلة إلى سوق صحار أو دبي أسبوعًا أو أكثر.

في هذه الرحلات يتم شراء الملابس والأطعمة الجافة كالطحين والأرز والعوال والمالح والقهوة، وبيع التمور والجلود المدبوغة والسعون (جمع سعن؛ وهو جلد الماعز المدبوغ والمخيط بعناية للاحتفاظ بالماء في السفر) و«البثيث» (وهو الروب المجفف سواء من لبن الأبقار أو الماعز)، ومصنوعات سعف النخيل كالقفف (المخاريف - جمع مخرافة، والجفران -جمع جفير، وغيرها) بالإضافة إلى المهاف (جمع مهفة)، والمشاب (جمع مشب وهو صحن صغير من الخوص يستخدم للعف على النار لتشب)، والحابول وجمعها حوابيل، وحبال الكمبار التي تصنع من الليف، وجميعها صناعات أهل الواحات والجبال.

أما البدو فيأخذون معهم السدو والجلود المدبوغه والمعدات الخاصة بالعناية بالجمال والحيوانات كالخطم (جمع خطام، وهو الحبل الذي تقاد به الدابة)، وأنواع السروج والشداد والمشامل (جمع المشمل الذي يغطي ضرع الناقة لمنع صغيرها من رضاعتها متى شاء)، واللثامة التي توضع على أنف وفم الجمال لمنعها من أكل القمامة أو أحيانًا مخلفاتها، وكذا السمن، فيما يتم أخذ بعض النوق المدرة للحليب لبيعه طازجًا في الأسواق.

كان الارتحال إلى هذه الأسواق من الممارسات السنوية التي يقوم بها الرجال من دون النساء، وكان من لا يرغب أو لا يستطيع السفر -لكبر سن أو عدم توفر وسيلة انتقال أو لأي أسباب أخرى- يعهد إلى أي من الرجال المسافرين بشراء مستلزماته، ولا يحتاج ذلك إلى شهود أو عقد، كما أن المكلف بالشراء لا يتقاضى أتعابًا لذلك.

صور التكاتف المشرفة

وكأي مجتمع؛ فإن من بين أفراده من يكون في فاقة لا يتمكن معها من توفير مستلزمات أسرته، ويعيش حياته معتمدًا على ما يخزنه من تمور أو ما تدره بقرة أو عدة شياه إن كان يملكها، فإن لم يكن يملك ذلك فيكون الماء هو «الإيدام» في أغلب الأحيان.

لم يكن المجتمع يغفل عن هؤلاء، بل يتعهد بتوفير احتياجاتهم من خلال تبرعات الجميع حسب استطاعتهم لكفهم ذل السؤال. وأحيانًا يتم مساعدة هذه الأسر عبر تكليف أربابها بالسفر نيابة عن شخص أو عدة أشخاص إلى الأسواق لجلب الاحتياجات نظير (كروة/ أجر) يستطيع به توفير متطلبات اسرته في الشهر الكريم.

أما الأسر التي لا عائل لها فيتكفل المجتمع بتوفير احتياجاتهم مباشرة أو عبر إدماج النساء في أعمال المساعدة (منها تمشيط الفتيات والنساء، وإعداد الولائم للضيوف، أو الحياكة والدباغة وخياطة الملابس وإعداد السعون)، فيما يتولى الرجال اصطحاب أبناء هذه الأسر في رحلاتهم ليتعلموا وتشتد أعوادهم بما يعود عليهم بالنفع والفائدة.

شعبان وليلة النصف

تعظيمًا لشهر شعبان واقتداء بهدي الرسول الكريم، يبدأ الناس بالصوم تأهبًا لاستقبال شهر رمضان، ويجدونها فرصة لتعويد أبنائهم على تحمل صيام شهر رمضان، فيصومونهم الأيام البيض وكذلك النصف من شعبان.

ويحترم الناس في الصحراء حرمة شهر شعبان فتُوقف المشاحنات والغزوات والحروبات، ويتجنبون الاقتتال وأعمال النهب التي كانت تعرفها الصحراء.

لم تعرف قبائل الداخل والصحراء الممارسات التي تتم في ليلة النصف من شعبان، وكانت مقتصرة على مدن الساحل التي كانت تقطنها قبائل وعوائل جلبت هذه العادة من خارج البلاد حيث كانت مزدهرة في بلدان أخرى كالعراق وإيران والشام، ولأنها عادة ذات مردود نفسي طيب على الأطفال الذين يتنقلون بين المنازل لطلب الحلوى فقد شاعت وأصبحت ممارسة عامة.

الرجال في رمضان

اعتاد رجال القبيلة أو القرية الاجتماع معًا لتناول وجبات الإفطار وأحيانا السحور، يجتمعون عند مسجد القرية يتوسطهم شيخهم أو كبيرهم، وتجلب كل أسرة مساهمتها في هذه المائدة العامة، فتتنوع الأطعمة كالهريس، والأرز مع اللحم، أو الدجاج والثريد، والخبز البلدي المسمى (الرقاق) والبلاليط واللقيمات، والقهوة بالطبع، ويقدم أصحاب الأبل والأبقار الحليب واللبن الطازج.

يبدأ الإفطار بعد رفع الأذان بتناول بعض التمرات واللبن أو القهوة، ثم يؤدي الجميع الصلاة بإمامة (المطوع) أو الشيخ، ثم يعودون لاستكمال إفطارهم على المائدة التي يترأسها الشيخ وإلى يمينه المطوع وكبار القوم، بينما يجلس الصغار في طرف المجلس ويتم تكليف من هم فوق العاشرة بصب القهوة على الجميع.

في السابق، لم يكن الرجال يفارقون مجلس الإفطار طوال الليل إلى وقت السحور، وتتنوع العديد الأنشطة المجتمعية وتمتد أحاديث الشأن العام ومناقشة الخلافات والمشاكل العالقة، كمشاكل الري والزراعة أو التجهيز لموسم القيظ أو الرطب، كما يشهد المجلس إنشادًا وشعرًا وروايات خصوصا تلك المتعلقة بالدول المجاورة والحج والسفر إلى الغوص والهند وغيرها، حيث تعتبر من القصص المشوقة التي يرويها من عمل في البحر خلال السنة وكل القصص التي سمعها خلال سفراته.

النساء في رمضان

تنطوي حياة النساء في رمضان على الكثير من المشقة والتعب والمسؤوليات، سواء في البادية أو الحضر، تتنوع بين الواجب الديني، وواجبات الحياة اليومية في المنزل ورعاية الأطفال، والواجبات الإجتماعية كالزيارات وتفقد العائلة، وواجبات المساعدة في العمل كرعاية الحيوانات وعلفها وحلبها أو أعمال السدو والحياكة، أضف إلى ذلك مهام إعداد الطعام والتجهيزات المتعلقة بالإفطار والسحور وغيرها. وهناك من النساء من يتناولن طعام الإفطار –مثل الرجال- في مجمع للنساء، إلا أن النسبة الأغلب تتناول الإفطار في المنازل مع أبنائهن الصغار وبناتهن، ويقمن بعده بالإعداد لوجبة السحور.

وتتفن النساء في إعداد أنواع الأطعمة الشعبية -التي لا تكون عادة إلا في شهر رمضان- كالهريس وحلاوة (الدخن) التي أصبحت نادرة هذه الأيام، بينما تقتصر الوجبات على الأنواع المعروفة للأكل وما تيسر لديهم، كالثريد والرز والبلاليط واللقيمات والخبيص والقرص المدقوق والبثيثة وغيرها من الأطعمة الشعبية التي كانت تسد رمقهم وتقوي أعوادهم للقيام بأعمالهم اليومية.

الأطفال في رمضان

يحظى الطفل الذي يتمكن من الصوم لأول مرة بالتشجيع في مجلس الرجال، فيحضرونه لتناول الإفطار معهم، والإشادة بإنجازه وإعلان أنه قد أصبح واحدًا منهم، ويقوم أحد الرجال -عادة ما يكون الشيخ - بالتحدث إلى الطفل والفخر به أمام الجميع وحثه على واجباته الدينية، ويمنحه حبة رطب وكوب لبن لكي يكون أول من يُفطر من الرجال عند الأذان إكرامًا له، وهو ما يترك الأثر الجميل على النفس طوال الحياة على الرغم من أن هذه الحادثة تكون في سن السابعة أو أقل، وهي عادة تجعل الفتيان يتسابقون في الصبر على الجوع والعطش والحرارة الشديدة في رمضان ليتمكنوا من صوم الأيام ليحصلوا على مثل هذا التكريم المشرف.

ويحرص الرجال على اصطحاب أبنائهم إلى المجلس لتناول الإفطار معهم، وتدريبهم عمليًا على الأسناع والعادات العربية الأصيلة في الضيافة والأخلاق وطرق التعامل مع الرجال والضيوف، وطرق صب القهوة والترحيب والاستعلام عن العلوم (الأخبار)، ويشمل الدرس الأهم للطفل في المجلس خصلتين مهمتين هما الإنصات باهتمام، والمسارعة لتنفيذ ما يُطلب منه كصب القهوة أو جلب شيء.

في المجالس يتعرض الأطفال والشباب إلى اختبارات مستمرة بهدف التعليم والتدريب، خاصة من قبل المسنين الذين يتعمدون طرح الأسئلة عليهم ومطالبتهم بإلقاء القصائد أو قص القصص تشجيعًا لهم وودعمًا لشخصياتهم وتعويدهم على الجرأة، ويحرصون على تقويم ما يبدر عنهم من أخطاء.

وتحظى اختبارات الجلد والتحمل بأهمية خاصة، ومنها أن يُطلب من الشاب المثول أمام الشيخ لأمر ما، فيجلس الشاب بطريقة (جب الركبة) وهي أن يثني إحدى قدميه تحته وينصب الثانية بزاوية 90 درجة، والصحيح أن يظل هكذا من دون حراك وأن لا يسأل الشيخ أو المسن عما يريد، وهنا يتعمد الشيخ أو المسن ترك الشاب في تلك الوضعية لفترة طويلة - اختبارًا له- منشغلًا بالحديث مع الآخرين.

ومن اختبارات الجَلَد وقوة الشكيمة لدى الشباب أن يُطلب من أحدهم صب القهوة

من دلة (الرسلان) وهي الدلة النحاسية، وقد رُفعت عن الجمر منذ فترة بسيطة ولا تزال تحتفظ بحرارتها، ويتعمدون إزالة قطعة القماش التي تلف عادة على مقبضها. وهذا اختبار قاس، صحيح أن الدلة لا تكون حارة لدرجة تتسبب في الأذى، ولكنها تكون ساخنة إلى درجة مزعجة لا يتمكن معها العديد من الشباب من اجتياز الاختبار. ويُروى أن أحد الشيوخ منح شابًا اجتاز هذا الاختبار أمامه بندقية جديدة مع (محزم) مليء بالرصاص وناقة، وهو ما يعادل اليوم بناية تجارية.

إن تمتع النشء سابقًا بمربين يعلمونه كل ما يحتاجه في مستقبل حياته هو الميزة الأكثر تأثيرًا في تركيبة المجتمع وترابطه، فلا يوجد في المجلس عنصرية أو تعالٍ أو إضاعة للوقت في الأحاديث التي لا تفيد المستمع، فالكل سواسية والكل يحترم ويقدر مكانة المجتمعين فيه، وكان شهر رمضان الفضيل خير فرصة لممارسة هذه العادات والتقاليد العظيمة ■

مسجد الشيخ زايد

تصوير مرشد المهيري

رمضان وبشارة القيظ
في ذاكرة المجتمع وتقاليده

د. عبد الله جمعة المغني

«**القيظ**» يُطلق على فصل الصيف في الإمـارات، ويقترن بـ«بشارة القيظ»؛ فيقولون «قاظت نخلكم؟» بمعنى هل بانت تباشير نضوجها. في هذا الفصل كان السكان ينقسمون قسمين، قسم يتوجه إلى البحر في رحلة الغوص والبحث عن اللؤلؤ ويضم الشباب والعارفين بعوالم البحر وعلومه، والقسم الآخر يشمل النساء والأطفال وكبار السن من الرجال والشباب يتوجهون في رحلاتهم إلى مناطق مثل مسافي وكلبا ودبا، وفي الشمال شعم والرمس ونواحي من ساحل الباطنة في عمان، وهذه تسمى رحلات المقيظ.

ومما قيل في القيظ وموسمه ورحلاته وخيراته:

بالرّوف سيّر يا بن اشـــحام — لا تغث مـن حلوه معـانيه
امقيظٍ فـي ظل وانـــعام — شـــرتا الصّبا قيّل يزاغيـه
محروز عن علاّت واسـقام — مـا ضاف باله يـــوم تلفيه
حافظ على مـن لف لجدام — واوما بقيـــلانٍ مـــعاليه

وقيل في رحلتي المقيظ:

هـــلّ الشّهر وأوفن تـمامي — هـذا الشّهر لي فـيه لفراق
حـــدٍّ نهي بحـــر الظلامي — وحّدٍّ نهى ع ظْـــهور خِفّاق

ارتبطت رحلة القيظ بذكريات وحكايات وقصص جميلة لم يعد لها ذكر في عصرنا نتيجة العولمة والتقنيات الحديثة وإن جلها ما يزال محفوظًا في ذاكرة الآباء والأجداد يروونه للأبناء والأحفاد من أجل زرع روح الهوية والانتماء في نفوسهم .

يقترن موسم القيظ في الإمارات بموسم الرطب الذي يحييه الإماراتيون من كل الفئات العمرية من خلال جمع التمور بأنواعها، وتجفيفها على أسطح خاصة مصنوعة من سعف النخيل وتخزينها بأفضل الطرق للحفاظ عليها لأطول مدة ممكنة، خاصة الطرق القديمة المعروفة لدى الأجداد والآباء، لبيعها، لذلك كانت النخلة شجرة مباركة ذات خير وفير وعميم بطلعها وسعفها، وثمارها وعطائها وزينتها.

يمتاز النخيل في الإمارات بالإنتاج المبكر، إضافة إلى ثماره الجيدة، حيث تبدأ الشجرة بالإثمار ابتداء من السنة الرابعة لمعظم الأصناف، وأحياناً في السنة الثالثة، وهذا يدل على مدى الرعاية التي تحظى بها مزارع النخيل في كل مناطق الدولة.

وينتهي موسم الجني مع انتهاء موسم القيظ ودخول موسم «الخريف» أي مع نضوج التمر، وبعد تخزين جزء من التمور في أوعية مصنوعة من سعف النخيل أو القش تسمى «اليراب» أو تخزينه في أوان فخارية مجهزة له.

وتجمع ثمار النخيل في أربع مراحل وهي البسر وذلك في الأصناف التي يمكن أكل ثمارها بسراً مثل البارحي واللولو والخنيزي والخصاب والهلالي، وهناك مرحلة ثانية تجمع فيها الثمار عند بداية الترطيب ويكون ذلك بصفة أساسية في الأصناف المبكرة مثل النغال والمناز للحصول على أسعار عالية في أول الموسم، أما المرحلة الثالثة فتجمع فيها الثمار بعد اكتمال ترطيبها وتحول معظم المواد النشوية إلى مواد سكرية ويكون ذلك في الأغلبية العظمى من أصناف النخيل، والمرحلة الأخيرة جمع الثمار بعد جفافها على الأشجار وتتم في بعض

الأصناف التي لا تتلف كثيراً نتيجة ترك ثمارها على الأشجار تجف جفافاً طبيعياً، وبعد جني التمور يقوم الأهالي بتوزع جزء منها ويخزنون الآخر، ويبيعون الفائض منه، ويعتبر ذلك الموسم رمزاً للعمل والعطاء للجميع حتى بالنسبة إلى الأطفال الذين كانوا يشغلون أوقاتهم بلمّ الرطب والتمور المتساقطة على الأرض.

ويأتي شهر رمضان الفضيل هذا العام في موسم القيظ، وهو شهر رمضان له روحانيات وتمثلات وصور متعددة نسجت خيوط الماضي والحاضر في الأذهان والوجدان بما فيها من أجواء وكيفية احتفاء الأهل به، وما كان يصاحب تلك الأجواء من أفراح واحتفالات شعبية وأهازيج وألعاب يتلهى بها الأطفال في ليالي الشهر الكريم. وإذا قارنا بين صورة رمضان الآن وصورة رمضان في الذاكرة الشعبية الإماراتية، من خلال الحديث عن الكثير من الأنماط المختلفة والممارسات الاجتماعية والتقاليد الشعبية التي كانت تعكس ابتهاج الأهلين بحلول الشهر ابتداءً من مراقبة الهلال وانتهاءً بإعلان رؤية الشهر، ثم ما يرافق ذلك من استعداد وتأهّب للشهر الكريم بشراء لوازم الإفطار والسحور.

الصورة الشعبية القديمة التي كانت تعبّر عن احتفاء الأهل برمضان لا تفارق ناظري إلى الآن، بكل ما تتضمنه انطلاقًا من الاستعداد النفسي والروحي لمقدم رمضان منذ النصف من شعبان، حيث تعلو الابتسامة والفرحة وجوه الكبار والصغار، ويحصل الأطفال فيها على ما يعرف شعبياً بـ «حق الليله». ويعتبر «المسحراتي» الذي كان يصدح عند كل سحور بقوله «يا نايمين الليل تسحروا» وغيرها من العبارات، وصوت مدفع الإفطار، في اعتقادي، من أهم عناصر ثقافة رمضان في الذاكرة الشعبية الإماراتية، وإن لم يبق للأول وجود بفعل التحوّل الذي شهدته الحياة الإماراتية بشكل عام. وثمة العديد من الممارسات الاجتماعية والعادات الشعبية الرمضانية كذلك غابت عن الوجود بفعل تطور العصر وما أفرزه من تقنيات ألهت الناس وشغلتهم عن التواصل والتزاور وصلة الرحم والقرابة كما كان الآباء والأجداد يفعلون في الشهر الكريم، وكنا حينها ما نزال صغارًا لا نكاد نعي رمزية ما نشاهد وإن كان يشعرنا بحالة من الرضا والراحة النفسية. رمضان بالنسبة لي حالة إيمانية متجددة تحدوني إلى الانغماس في الروحانيات والارتقاء بالنفس والحس في مدارج الصفاء والنقاء، متأملًا في الكون وعوالمه وأجرامه ونواميسه، سابحًا بخيالي في الخلق والصنع، هائمًا في ملكوت السماء والأرض ■

الرطب هدية هجير الصيف

سلال من الخوص - تصوير أمل الحمادي

سرور خليفة الكعبي *

ستبقى الرطب -فاكهة أهل الخليج الوحيدة في الزمن القديم- أقرب الفواكه للنفس في الخليج قاطبة، وسيبقى تمايز طعم كل نوع منها ولذة تناوله ترنيمة التاريخ الضارب في القدم، الذي لم يكن الخليجي يجد فيه ما يسد به رمقه أكثر قيمة من الرطب، الذي يعتبر في الوقت نفسه أثمن ما تجود به الأرض في موسم (القيض) وهجيره المتقد، فأصبح عصبًا للحياة في تلك الأوقات الصعبة التي واجهها إنسان هذه الأرض بكل ما تعني الكلمة.

لذا فقد وجدت النخلة من أهل الخليج العناية الكاملة لما جادت به عليهم من خير، فكان إنسان هذه الأرض يستغل كل شيء فيها من الجذور وحتى السعف، إلا أن هديته الكبرى تمثلت في فاكهتها السنوية اللذيذة التي ينتظرونها في الموسم الحار.

يبدأ النخيل بالإثمار الجيد بعد السنة الرابعة من فسله بالأرض، أو حتى عند بقائه ملتصقًا بالشجرة الأم، وأحيانًا يكون أبكر، ولكن الثمار لا تكون بالجودة نفسها، قديمًا لم تكن البلاد تتمتع بالوفرة النوعية التي نشهدها اليوم، والتي جاءت نتيجة استيراد الكثير من الأنواع من شتى البلدان العربية -خصوصًا السعودية والعراق- وهو الأمر الذي أثر على توقيتات الترطيب التي كانت معروفه سابقًا، فقديمًا كان موسم الحصاد يبدأ بمطلع الشهر السادس ويبلغ أوجه في الشهر السابع والثامن.

ويبدأ الترطيب جغرافيًا من الشرق إلى الغرب، ويكون (النغال) أول (التبشورة) أو بشارة الصيف ويُسمى محليًا بـ«الناسم» وقد كان الناس يتسابقون إلى الإعلان عنه، وكان يُقدم أولًا للشيخ احترامًا لمكانته

الإجتماعية وتعبيرًا عن الفرحة الشعبية، ويكون من الأصناف المبكرة ومنها أشجار الخنيزي والبرحي والخلاص، كما توجد أنواع من النخيل يمكن أكل ثمارها وهي في مرحلة (البسر) قبل الترطيب كالبرحي والخصاب والهلالي، وذلك لسكريتها الزائدة وحلاوة طعمها.

وللناسم في أيامنا هذه مكانة خاصة، لذا يعمد المزارعون إلى بيع أول حبات الرطب للراغبين سواء الساعين للشهرة أو هواة اقتناء أول حبات المحصول، وتفوق سعر الرطبات الأولى أسعار الذهب في السوق العالمية؛ فقد تم تسجيل بيع حبة رطب واحدة لا يتعدى وزنها الجرامين بأكثر من عشرة آلاف درهم إماراتي، فيما يصبح سعر الكيلو بعد أسبوع واحد من بداية الموسم حوالي مئتي درهم، ليصل مع نهاية الشهر الأول إلى خمسين درهمًا للكيلو أو أقل نظرا لكثرة المعروض.

حظيت النخلة باهتمام المواطن الخليجي على مر الزمان، وقد توج الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان –طيب الله ثراه – ذلك الاهتمام بأن جعلها ركيزة من ركائز بناء الدولة والاتحاد، ورافدًا أساسًا في عملية البناء والتطوير، فكانت النخلة أهم أنواع الزراعة التي قال عنها «أعطوني زراعة أضمن لكم حضارة»، فأصبحت دولة الإمارات العربية المتحدة في مقدمة الدول العربية من حيث عدد أشجار النخيل، وستبقى النخلة عمة الإنسان التي رعته في وقت الحاجة فصار يقدر لها ذلك المعروف ويقدم لها كل الرعاية الممكنة لتستمر في العطاء على مر الزمان.

لقد وهبت النخلة كل مكوناتها لخدمة الإنسان، فبالإضافة إلى الرطب والتمر، كانت كل مكونات منزل الخليجي القديم -في الواحات والقرى- تقريبًا من هذه الشجرة المباركة، من أعمدة البيت وجداره الخارجي إلى الأسقف والجدران وحتى الفرش، والحبال المستخدمة في كل أنشطة الحياة اليومية، وحاويات الطعام، ووقود إعداده؛ بإستخدام (الكرب) وهي قاعدة الغصن العريضه الملتصقة بجذع النخلة أو (الزور) وهي الأغصان أو (الخوص) وهي الأوراق أو حتى الجذور وتسمى أحيانا الجذوة.

وقد اعتمد الأقدمون -خصوصًا أهالي الواحات والجبال- على النخلة بشكل أساسي في جميع الصناعات الخاصة به، بداية من (الحابول) الذي يركب به المزارع النخيل، مرورًا بـ(المخرافة) وهي كيس يُنسج من خوص النخيل يحمله المزارع ويعلقه في أعلى النخلة لجمع ما يجنيه من الثمار يتم تفريغها في حاوية أكبر تسمى (جفير) وهو عادة بلا غطاء وله أذنان لكي يتعاون أكثر من شخص على حمله، وكذلك (المهفة) وهي المروحة التي تستخدم لترطيب الجو وتمسك باليد، و(المشب) وهو صحن دائري صغير من الخوص يتم الهف به على النار لكي تشب وتتأجج، و(الصرود أو السرود) وهو السفرة الدائرية التي يوضع عليها الطعام، وهناك (المجبة/ المكبة) وهي الغطاء الذي يغطى به الطعام، وأيضا حصر الخوص والعديد غيرها.

وقد دخل النخيل في صناعة أمهدة الأطفال وألعابهم، فلا يوجد إماراتي عاصر ذلك الوقت الجميل وهو طفل ولم يلعب (الفرارة) وهي خشبة بها ثقبان من الوسط يمرر بهما خيط يعقد في طرف، ويتم إمساك طرفي الخيط بإصبعين من كل يد وتدوير الخشبة حتى يلتف الخيط على بعضه، وعند شد الطرفين إلى الخارج تدور الخشبة مصدرة صوتًا وعندما تقرب اليدين من بعضهما يلتف الحبل مرة أخرى ويتم شده إلى الخارج لتستمر اللعبة في الدوران دون توقف عند الشد من جديد. وكذلك لعبة المروحة وذلك بنسج قطعة صغيرة من أوراق النخيل على شكل دائرة أو مربع صغير مع ترك أطراف (الخوص) بارزة وكأنها أسواط صغيرة، ويتم استخدام عصا صغيرة من أحد أغصان النخلة (الزور ومفردها زورة) يتم شق أعلاها بشكل طفيف لكي يتم وضع شوكه (سمر) طويلة وربطها في ذلك الشق قبل (شك) الشوكة في وسط تلك المنسوجة الصغيرة، ويقوم الطفل بالركض المستمر لتوليد الهواء الذي يحركها على شكل مروحة. ولعبة الحصان أو الخيل كما كنا نسميها، وهي بسيطة جدًا إذ يقوم الطفل باستخدام (زورة) من مخلفات (الزفان) وهي عملية ربط أغصان النخيل (الزور) إلى بعضها بحبل (الكمبار) المصنوع من لحائها، وبعد إزالة الخوص الجاف منها يقوم بوضعها بين رجليه وامتطائها كأنها حصان والركض بها في كل أرجاء المكان، ولا يمنع أن يستخدم عصا صغيرة في يديه لضرب تلك العصا من خلف ظهره لحث الحصان على سرعة الجري ■

*شاعر وباحث من الإمارات

تصوير أمل الحمادي

أبغض عليّه موسم الصيف!

يحكيها أبو خالد

رحلة المقيظ في الزمن الماضي، لها ذكريات جميلة لدى آبائنا وأجدادنا ولها حكايات وقصائد قيلت في وقتها، والتي بدورها مثّلت أحد أهم مصادر معرفة تاريخ وذكريات تلك الأيام الخوالي، وتلك الرحلات الصيفية الممتعة التي كانت بالنسبة لهم تقوم مقام رحلات السفر الصيفية الحالية مع اختلاف أزمانها. لقد مثّل الشعراء أهم أدوار هذه الحكايات الصيفية المليئة بالفرح والسعادة والحزن في بعض الأحيان وخاصةً عند مفارقة الأحباب من الأهل والخلّان والأصحاب والأصدقاء، إلى واحات المقيظ المنتشرة في الإمارات أو ربما سلطنة عمان. كانت هذه الرحلات تخرج في بداية فصل الصيف، بدءاً من منتصف شهر مايو من كل عام، إلى تلك الواحات الخضراء المليئة بأشجار النخيل التي تزخر بالرطب الشهي، بشتى أصنافه وأنواعه، والمياه العذبة التي تنساب في أفلاجها بغزارة. ولا ننسى الهواء البارد العليل في هذه الواحات، والذي يخفّف شدة لهيب حر القيظ، الذي يهرب منه الأهالي في رحلة المقيظ هذه.

وتختلف وسائل النقل إلى هذه الواحات، فمنهم من يذهب إلى الواحات البرية وتكون وسيلتهم الجمال، التي يطلقون على قافلتها «الجريّات»، أو «الكريّات» وهم الذين يكرون الإبل لتنقلهم لقضاء المقيظ هناك في واحة العين مثلاً. أما إذا كانوا يرغبون في قضاء المقيظ في «خصب» أو في رؤوس الجبال، فليس لديهم إلا البحر عن طريق السفن.

تعود بنا قصيدة الشاعر عبيد بن مبارك بن نبيلا وهو من أهالي أبوظبي، متوفى عام 1950م، إلى تلك الأيام، فنراه يتحسّف على فراق أحبابه في الصيف والذين حضروا أو سافروا عنه إلى رحلة مقيظهم في العين عن طريق الإبل، فيمدح تلك الإبل ويرفض سفر البحر، فيثني على تلك الإبل وعلى النسيم العليل الذي يهب عليهم وهم في الطريق إلى واحة العين وكذلك على هؤلاء الذين يقودونهم على الإبل ويسمونهم «المكريَة» وهم يخدمونهم في تلك الرحلة وينحرون لهم الذبائح وهكذا حتى يصلون إلى واحة العين، فيستقبلهم الأهالي هناك بالرزيف واطلاق الأعيرة النارية فرحين بقدومهم، يقول الشاعر بن نبيلا في قصيدته المشهورة تلك:

بستان قـــلبي صـــابه الهيف ... حت اوْرقه من روس الأغصـان
آون ودمـــوعي مـــذاريف ... لو تعـــلم بحالي يـــا سلطان
أبـغض عليّه مـــوسم الصيف ... يوم البـــحر ضايج بالأسـفان
يْحقّ بفـــراق المـــعاريف ... لْمن عليه القلب شـــفقان
ما حطّوا قشاره عـــلى السيف ... يبغي «خصب» عـــالي وسنّان
م الزاد تصـبح كبده معـــيف ... في مـطرحه لايث وهـــدمان
لـــه ريّعوا حـــول مكاليف ... نـــهار مـا نوّى يبا عـــمان
يوّد وثـــارن بـــه مـــواجيف ... دبّر وفارق شـــوف الأوطـــان
لـديار مـا تبغي مـــهافيف ... لـي طاح طلّ وبات عـــرقان
يحيي هـــواها جسمٍ ضْـــعيف ... ريحة ســمنّ وخلط ريحـــان
قـــطّع وخـــلاهن مـــزاليف ... ولكفاف ضوّاهـــن مـــسيّان
باتن سرى فـــي بارد الـــريف ... والصبح صبّح «بدع حـــمدان»
خلّا العـــچم قـــربه محاذيف ... والبيت لـــه تحضـــاه شبّان
مـا همّته دنـــيا المـــشافيف ... ايْحَمْس بنّ ويـــذبح سْمـــان
والمـكريَه كـــلها مـــساعيف ... حـق الحطب والمـــا ورفعـان
لـــو تنظر ضـــعونه زفازيـــف ... مسوّيَه فـــي السيح ريعـــان
روح عليهن شـــاربٍ كـــيف ... ومن الدجر تايـــه وســـكران
صبّـح وثاروا لـــه مـــواجيف ... رزفه وفيها ضـــرب تفـــجان

مبارك عليكم الشهر

جولة افتراضية في قرية زايد الرمضانية

محمد شحاته علي *

شهر رمضان هذا العام مختلف ومميز؛ لن تشعر فيه بالغربة أو البعد عن أجواء بلدك الأصلي، فما دمت في دولة الإمارات العربية المتحدة، لن تشعر أبدًا بأنك غريب. هكذا بناها القائد المؤسس زايد بن سلطان آل نهيان – طيب الله ثراه- وسار على نهجه أبناؤه.

هنا جولة افتراضية من قلب محب لقرية تحمل اسم هذا الزعيم الخالد في قلوب أبنائه ومحبيه على اتساع الأرض، إنها «قرية زايد الرمضانية» التي تفتح أبوابها قبيل بداية شهر رمضان من كل عام لتستقبل البشر من كل الجنسيات ليستمتعوا بمذاقات هذا الشهر الفضيل كما يحتفي ويحتفل به المسلمون من شعوب الأرض على اختلاف ثقافاتهم وانتماءاتهم، سوف أصحبكم في جولة افتراضية واصفًا لكم كل ما تضمه هذه القرية بين أرجائها، فأهلًا بكم وسهلًا في أرض زايد الخير.

القرية مساحتها كبيرة جداً، على مدخلها يوجد تصميم تفصيلي لمحتوياتها، وفي الداخل يوجد جناح كبير باسم كل دولة عربية وإسلامية، كل جناح توجد به أهم المعالم التي تشتهر بها تلك الدولة على هيئة مجسمات كبيرة لا تختلف عن الحقيقية في شيء؛ فيشعر معها كل إنسان بأنه في بلده بثقافتها، وملحق بكل جناح مبنى إداري به شاشات عرض توثق وتستعرض جميع عناصر التراث الشعبي الخاصة بشهر رمضان في كل دولة، وعدد من الباحثين المختصين في التراث الشعبي يشرحون للزائر ما يريد. وملحق بكل جناح كذلك متحف به جميع الأدوات والملابس الشعبية التقليدية الخاصة بشهر رمضان وعرض للمهن والحرف والأنشطة التي ترتبط بهذا الشهر الفضيل، ومجسمات للمواقد الشعبية والأواني الخاصة بكل دولة وأشكال الأطعمة المختلفة، وطريقة صناعتها، مع لوحات تعريفية تشرح تاريخ كل عنصر ومعاني المصطلحات الواردة به، أجنحة الدول مقسمة من الداخل حسب عناصر التراث الشعبي مثل العادات والتقاليد والمعتقدات والمعارف الشعبية والأدب الشعبي والثقافة المادية والفنون الشعبية وكلها خاصة بشهر رمضان في كل دولة.

الركن الإماراتي

في يوم من أيام شهر رمضان الكريم ذهبت بناء على دعوة من صديق من أهل الإمارات الكرام لتناول الإفطار بصحبته، وكان قد طلب مني أن نلتقي مبكرًا بعد صلاة العصر، فذهبت إليه في الموعد المحدد.

كان الصديق ينتظرني خارج منزله وسرعان ما تحركنا بسيارته، كان سعيدًا وهو يخبرني بأننا سوف نتناول الإفطار اليوم في أجواء تشبه الأجواء التي كان أجدادنا وآباؤنا من أهل الإمارات يعيشون فيها في الزمن الماضي، فابتسمت وتحضرت للمفاجأة الجميلة.

سرعان ما توقفت السيارة أمام «قرية زايد الرمضانية» التي تبدو للزائر من بعيد عالمًا من الألق، نزلنا من من السيارات وتوجهنا إلى مدخل القرية، أخبرنا المرشد برغبتنا في تناول الإفطار في جناح الإمارات، فأجرى اللازم وطلب منا أن نتوجه إلى «الباص» الذي وصل بنا بعد جولة قصيرة إلى جناح دولة الإمارات.

يضم الجناح مجموعة من الخيام وبيوت العريش ومنازل وشوارع تحاكي ما عاشه الأجداد في البيئات الإمارتية المختلفة، وتنتشر في الجناح أشجار النخيل، وثمة نموذج مجسم لفلج الصاروج، ومجسمات لمختارات من البيئات المختلفة، لم يغفل الجناح شيئًا.

نزلنا من الباص، كان المكان مزدحمًا بأسر وعائلات كثيرة تتجول داخل الجناح لتحديد المكان الذي سوف تتناول إفطارها فيها اليوم بمساعدة مجموعات من المرشدين والمرشدات. قبل الإفطار بقليل -وخلال جولتنا- طلب منا المرشد أن نصحبه إلى منطقة «الفريج» لمشاهدة احتفال «حق الليلة»، وأخبرنا أنه احتفال شعبي مرتبط برمضان، يقام في الإمارات في ليلة النصف من شعبان، ويقام في بعض دول الخليج الأخرى في النصف من رمضان.

خرجنا معه لنرى مجموعة من الأطفال يمرون بملابسهم التقليدية؛ البنات بالملابس المطرّزة الزاهية، والصبيان بالكندورة والطاقية المطرّزة بخيوط الذهب، يحملون حول رقابهم أكياساً من القماش يسمّى الواحد منها بـ«الخريطة»، ويمشون في جماعات تتوقف لتبدأ بترديد الأهازيج لحث الجيران على منحهم المكسّرات والحلويات وبعض النقود المعدنية وهم ينشدون:

«عطونا الله يعطيكم.. بيت مكة يوديكم.. عطونا مال الله (من حق الله) يرضى عليكم الله .. سلم لكم عبد الله»

كان علينا أن نختار مكانًا لتناول وجبة الإفطار، في أي بيئة نريد: صحراوية أم جبلية أم بحرية أم زراعية، ولكن كانت رغبتنا في التجول والملاحظة أكبر.

وصلنا عند أحد الأماكن التي ينطلق منها الدخان وروائح الطعام، رأينا عمليات إعداد الطعام على المواقد التقليدية فى الهواء الطلق، وكيف يشعلونها بالحطب، ذكروا لنا مكونات الطعام الذي يقومون بإعداده ومراحل تحضيره.

اقترب وقت أذان المغرب، طلب الدليل من أطفالنا السير معه وأخذهم لموقع تبة صغيرة مثبت أعلاها مدفع يقف إلى جانبه رجل يدعى «حسين» قال لهم إنه يعمل منذ أكثر من عشرين عاماً في هذا العمل في شهر رمضان، وشرح للأطفال كيف يحشو المدفع ويطلقه، وبعد أن قام بإطلاق قذيفة المدفع عاد الأطفال لتناول طعام الإفطار معنا.

أفطرنا على تمرات وبعض الحليب والماء، وأدينا صلاة المغرب.

تعددت أصناف الطعام والحلوى، كلها محلية المكونات والصنع كما كان يصنعها ويتناولها الأجداد: الهريس والفرني و(المحلى) والعصيدة و(المجبوس/المكبوس) واللقيمات، والخبيصة والبثيثة والخنفروش والبلاليط، والرقاق والساقو و(العرروت)، كان الرز (العيش) على اختلاف طرق طهيه هو الوجبة الرئيسة مع الفريد (الثريد)، وكان الهريس مصاحبًا دائمًا للوجبة.

وأثناء تناولنا الإفطار لاحظنا بعض الأطفال ينتقلون بين جماعات الصائمين حاملين الأطباق ينقلونها من جماعة إلى جماعة في طقس مشاركة احتفالي بهيج يستعيد عادات الأجداد وتفقاليدهم.

بعد صلاة العشاء عدنا إلى الخيام، وحضر بعض الشباب لدعوتنا إلى المجلس، توجهنا لتلبية الدعوة، وجدنا الكثير من العائلات هناك، أخبرنا المرشد أن المجالس ومفردها المجلس أو «الميلس» وتسمى كذلك «الديوانية» تنظم في رمضان على فرش توضع على الأرض كالسجاد يجلس صاحب المجلس في مقدمة مجلسه لاستقبال زائريه. ويتبادل الضيوف عبارات التهنئة بشهر رمضان ومنها:

مبارك عليكم الشهر
الله يعوده علينا وعليكم بالخير والعافية وطولة العمر
الله يعوده علينا وعليكم كل سنة وكل حول سالمين غانمين لا فاقدين ولا مفقودين

إلى جانب خيمة المجلس، كان أحد الرجال وأمامه على نار أشعلها في الحطب، يغلي البن في الدلة الكبيرة التي تظل دائما فوق النار وتسمى بـ«الصريدان» أو «الخمرة»، كان يصب القهوة من الخمرة في «دلة التلجيمه» الأصغر منها حجماً، ويضيف إليها «المسمار» وهو القرنفل، كما يضيف (الهال) كما يُعرف في اللهجة الإماراتية، وقال لنا المرشد إنهم يضيفون أحيانًا الزعفران أو ماء الورد. ثم ينقلها بعد تصفيتها إلى دلة التقديم التي تسمى «المزلة» ويقدمها مع «الفوالة» والتمر للضيوف.

في جلستنا استمعنا إلى بعض الأهازيج الإماراتية، ودارت أحاديث

السمر تخللتها قصائد من الشعر النبطي و(الفصيح)، وروى أحدهم حكاية «العقيلي واليازية» الشهيرة بدولة الإمارات.

ساحة الألعاب الشعبية

بعد ذلك بتوجيه من المرشد، إنتقلنا إلى ساحة لمشاهدة بعض الألعاب الشعبية مثل لعبة «الهول»، و«عظيم لوّاح» و«يوريد» و«الكوك» و«الليف» و«الترتور» وغيرها من الألعاب البيئية المختلفة التي لها نداءاتها وأغنيات ترافقها والتي يزداد حضورها في رمضان لتمضية الليل أو قضاء بعض أوقات النهار.

السحور وأبو طبيلة

أمضينا بعض الوقت في مشاهدة الصبيان والبنات وهم يلعبون، كان الوقت يمضي سريعًا، وقبل الفجر بحوالي الساعة انطلق صوت «أبو طبيلة» ثم شاهدناه بزيه المميز، يتجول في المكان راكباً حماره حاملًا طبلته التي تُعرف باسم «البازة» ينقر عليها بخشبة رفيعة، ليوقظ الناس من أجل تناول طعام السحور، بين كل خمس طرقات ومثلها يردد: يانايم الليل قم اتسحّر/ يانايم الليل قم اتسحّر، أو: قم يا نايم قم/ قومك أخير من نومك.

ترك الأطفال اللعب وراح بعضهم يتبعه في سيره، وعدنا إلى أماكننا لتناول طعام السحور الذي كان من التمر أو الرطب واللبن والكامي، وفضل البعض أكل العيش (الأرز).

بعد قليل أذن المؤذن لصلاة الفجر، فصليناه وعدنا إلى منازلنا مبتهلين إلى الله بالدعاء أن يحفظ الإمارات وأهلها.

رمضان المصري
فانوس الجمالية وأذان محمد رفعت

في اليوم التالي توجهت مع أسرتي إلى جناح مصر في قرية زايد الرمضانية، بصحبة صديقنا الإماراتي وأسرته، أعجبتنا النماذج المصغرة دقيقة الصنع للمعالم المميزة في مصر مثل برج القاهرة

مدفع رمضان

أحد شوارع خان الخليلي بالقاهرة

والأهرامات ومعبد الكرنك وفنار الاسكندرية وخيام واحة سيوة وغيرها من المعالم، تجولنا بصحبة المرشد الذي استقبل الأطفال بفوانيس رمضان الشهيرة التي تصنع بحي الجمالية بالقاهرة، وشاهدنا صانع الكنافة والقطايف اليدوية، وبائع العرقسوس والمشروبات الشعبية وقبل الإفطار اخترنا موقعنا في «الصعيد» من ضمن الأماكن المخصصة للإفطار حسب بيئات مصر المختلفة: من وجه قبلي وبحري واسكندرية وسيناء وغيرها، وسرعان ما انطلق مدفع الإفطار صاحبه الأذان بصوت الشيخ محمد رفعت، وارتفع تهليل الأطفال يتصايحون وهم يركضون بين المباني: أُفطُر يا صايم/ على الكِشك العايم.

بعد الأذان ارتفعت تواشيح للشيخ النقشبندي التي انتهت مع إقامة الصلاة، صلينا ثم توجهنا للإفطار، كنا اخترنا «طبلية» من الخشب تشبه تلك التي اعتدنا تناول الطعام عليها في قريتي بصعيد مصر، تقدم رجل وسيدة يرتديان الجلباب الصعيدي وقدما لنا وجبة الإفطار، إنه كِشك صعيدي وبلح مبلل في الماء ومشروب التمر الهندي والعرقسوس كالذي نأكله في قريتنا تماماً.

أثناء تناولنا الإفطار كنا ننصت إلى صوت الإذاعية «آمال فهمي» يتسلل إلينا عبر المذياع تروي فوازير رمضان بصوتها المميز، وبعد أن انتهينا من طعام الإفطار انطلقنا لصلاة العشاء والتراويح خلف أحد أئِمَّة الأزهر الذي صلى بنا إمامًا أيضًا في صلاة المغرب.

بعد الصلاة ذهبنا إلى سهرة في ساحة مسجد الحسين، جلسنا على كراسي خشب الأرابيسك المميزة، وقدم لنا الساقي برادًا من الشاى إلى جواره أكواب زجاج صغيرة الحجم من نوعية الـ«خمسينة» وبجوارها أعواد النعناع الأخضر، وكان الحضور يتبادلون التهاني بالشهر الفضيل ومنها:

رمضان كريم ... الله أكرم

وكانت أمامنا ساحة تتابع فيها فقرات فنية تراثية مصرية من الإنشاد الديني والحكي الشعبي على الربابة من أجواء السيرة

صانع أقراص الطعمية في مصر

الهلالية، وكان راقص التنورة يتجول بين المقاعد يسعد الحضور من الكبار والأطفال، وعلى جنبات المقهى توجد محلات لبيع الفوانيس ومحلات لحلويات رمضان المصرية والعطارة.

قبل الفجر بساعة سمعنا صوت رجل يغني على طبلة صغيرة ويقول:

أصـــــحى يا نـــايم

وحـــــــد الدايـــم

وقول نويت الشهر صايم

رمـــضان كـــــريم

انطلق أطفالنا يجرون ويرددون خلفه، وبعد صلاة الفجر عدت مع أسرتي إلى منزلنا بعد جولة في الجناح المصري أعادت إلينا ذكريات رمضان في الزمن المصري الجميل. وقد قررنا أن نستكمل جولاتنا في أجنحة العالم الإسلامي لنقضي ايامًا بين تراث شعوب العالم ونرى كيف يتلون الشهر الفضيل بألوان وأرواح شعوب الأرض المختلفة محققًا رسالة الإسلام الأولى: التواصل والتراحم وعمران الكون.

حول رسالة القرية وأهدافها

تعد قرية زايد الرمضانية «أطلس» مفتوحاً للفلكلور الخاص بكل دولة إسلامية فيما يخص شهر رمضان الكريم، يتم توثيق تلك العناصر به على هيئة مجسمات وصور وأفلام يتم تسجيلها لجلسات السمر والقصص الشعبي والألعاب الشعبية وغيرها لتكون مرجعًا حيًا للباحثين والطلاب المهتمين بهذا النوع من التراث. إضافة إلى ما تقدمه من ترفيه وتسلية راقية للزوار من جميع أنحاء العالم وخدمة تثقيفية يتعرفون خلالها على التاريخ الشعبي لكل دولة وعاداتهم في رمضان مع التمتع بتجربة تفاعلية فيه تربط الحاضر بالماضي وتعرف الأطفال والأجيال الجديدة على عادات بلدانهم قديماً. بما يعنيه ذلك من محافظة على تلك العادات وتنميتها. وكذلك تنمية الحرف والعادات القديمة المرتبطة بها وإعادة احيائها من جديد.

كما تحقق القرية مجموعة أهداف اجتماعية منها دعم أواصر المحبة والترابط بين وفود الدول العربية والإسلامية المختلفة المقيمة في دولة الإمارات، من خلال توفير فرص التزاور فيما بينهم أثناء تواجدهم طوال أيام الشهر في القرية.

إن قرية زايد الرمضانية تمثل زهرة من شجرة الوحدة والتماسك التي غرسها رائد الوحدة العربي المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رحمه الله.

وهي تجمع بين عدد من الأهداف التي تتضافر لتحقيق رسالة إحياء التراث التي تضطلع بها دولة الإمارت العربية المتحدة، فهذه القرية يمكنها تمويل نفسها من خلال إيرادات الأنشطة التي تدور بداخلها، وهي بذلك تتماشى مع معايير الأنشطة الثقافية والتراثية الحديثة التي يجب أن تستقل اقتصاديًا، وهي كذلك مصدر دخل للعمالة من الدول العربية المختلفة الذين يتم الاستعانة بهم طوال الشهر للعمل في أجنحة دولهم، من أصحاب الحرف المرتبطة بشهر رمضان والطباخين والفرق الشعبية التي تؤدي الإنشاد والقصص الشعبى والباحثين في التراث الشعبي.

«قرية زايد الرمضانية» حلم فمتى يصبح حقيقة؟ ■

باحث في والأنثروبولوجيا، مصر

المراجع:

- المسحراتي، كلمات وأشعار وذكريات لا تنسى، جريدة البيان، دبي، جميل محسن.23 أغسطس 2010.
- «أبو طبيلة» تقليد تراثي في ليالي رمضان الإماراتية، موقع مجلة سيدتي، مرفت عبدالحميد. 30-06-2014.
- رمضان في الإمارات: عادات تندثر وأخرى تنتشر، جريدة إيلاف الالكترونية، مروة كريدية. 31 أغسطس 2010.
- رمضان الإمـــارات، جريدة الخليج، د. عبدالعزيز المسلّم. 2013/07/10.
- الألعاب الشعبية في الإمـــارات، منتدى القلعة الأهلاوية. 2009/4/18.
- الألعاب الشعبية في الإمارات الحبيبة، منتدى حبيب. 2010/2/6.

رمضان، رائحة ومذاق

مريم جمعة عبدالله*

تسبغ عليّنا الذاكرة حينا بنعماء استحضار وقت غضّ، عايشنا فيه تجلّي المحبة في مراتع الطفولة. وشهر رمضان الكريم مع ذلك الصفاء الكبير الذي يغمر الروح فيه، يفسح المجال للذكريات العذبة المتراكمة أن تتجلى، لتبرز أكثر التماعات الذاكرة تأثيرًا، تتراصف في مخيلتنا الأحداث -تلك التي كن نراها عادية- وتتوهج كجزء من كينونتنا لتنقلنا للحظات روحانية نستعيد فيها نبض زمن كان.

وكان رمضان: في زمن جميل عشته، حيث لم تكن الحياة معقدة على الصعيد الإنساني رغم التعب والمعاناة في توفير متطلبات الحياة الأساسية، كانت الاستعدادات لشهر رمضان تبدأ باكرًا، استعدادات يقوم بها جميع أفراد المجتمع، ويبرز فيها دور الأمهات في الاعتناء بالتفاصيل الصغيرة التي تحوّل كل طعام إلى لقمة سائغة مغمورة بالحنان، وجهدهن المبارك المبدع في إعداد سفرة طعام عامرة متنوعة ومتميزة لعدد كبير في وقت قياسي، من مكونات بسيطة طيبة جادت بها البيئة.

كان تحفزي لاستقبال رمضان الكريم يبدأ بالسعادة الغامرة وأنا أتابع طقوس أمي الجميلة في الاستعداد لنمط الحياة المختلف في رمضان، وأكثر ما كان يفرحني ترتيبها للوعيان (الأواني) الخاصة بهذا الشهر الفضيل، والتي تتناسب مع رتم الأوقات الجميلة فيه، وأكثر ما كان يبهجني هو تأمل تلك التشكيلات الهندسية الجميلة على الصحون وخاصة الدوري(1) الكبير، والغُنَج(2) وملال الصين(3) والصحون.

يالها من صحون! كنت كلما نظرت إليها أتلقى وعدًا بفيض محبة عندما سأحملها منتشية لبيوت الجيران الطيبين، أما السرّود(4) بألوانه الجميلة المتداخلة فكان يؤملني بوجبات هنية باسمة تربت فيها الألفة على قلوبنا.

اليوم في استرسالي في التذكر الحميم لشهر رمضان في فريجنا (حيّنا) القديم تملأ جوانحي ذاكرة عذبة، ذاكرة رائحة ومذاق.

ذاكرة الرائحة

حوينا (فناء المنزل) كان يعبق بالروائح الزكية حين كانت أمي تعد البزار(5) (تابل إماراتي) الشهي الذي سيضفي على أطباقها الرمضانية نكهة لذيذة.

كم كنت أحب تلك الرائحة!!

رائحة الطبيعة العطرية الحرّة

رائحة الغموض الذي سكن المغامرات في عوالم أخرى

الرائحة الممزوجة بعناية أمي

رائحة حبوب السنّوت (الكمّون) والياليلان (الكزبرة الناشفة) والحلبة والمثيبة (الشمرة) التي وضعت في الشمس بعد تنقيتها من الشوائب وغسلها جيدا.

زيوتها العطرية المتطايرة جراء التحميص بدون زيت محفزة للبهجة، (وللعطاس أحيانا)!!

وإمعانا في المحبة كانت الغالية أمي تسفّ البهارات المحمصة للتخلص من الحبوب المحروقة أثناء التحميص، بعد ذلك تطحنها وتضيف للخليط بهارات أخرى ناعمة هي: الكركم والفلفل الأسود والقرفة، ثم تضعها في وعاء محكم الإغلاق، مع قطعة من ملح البحر لامتصاص الرطوبة ولمنع التسوس.

ذاكرة المذاق

كنت ما إن أرى صينيّة(6) العيش (الرز) المغسول وهو يجفف تحت الشمس، يشرب من ضوئها ليزداد بهاؤه، حتى يداعب خيالي ذلك البياض اللذيذ المستكين في المَلّة، هذا العيش الناشف ستطحنه أمي -بارك الله في حياتها- حتى يغدو دقيقا، وستنخله جيدا ليصبح ناعما جدا، وستحفظه لتعد منه حلوى رمضانية ولا ألذ!!

لم أكن أقاوم ذلك المذاق! مذاق الفرني(7) (حلوى إماراتية رمضانية) الذي كان يداعب طفولتي بامتزاج مكونات شهية رائعة. يا الله! يالنعماء الذاكرة! كنت أتقرفص أمامها وهي تعده بدلال، أراقب امتزاج دقيق الرز بالحليب والسكّر، أستمتع برنة حيولها (أساورها) وهي تحرك المزيج على النار بحركة دائرية، وبين حين وآخر كانت ترفع المزيج بالملعقة لتأكد من الكثافة المطلوبة، وحين يصبح المزيج لزجا تضيف ماء الورد والزعفران وحينا الهال (الهيل/الحبهان) ثم تصبه في ملال الصين، وتتركه لتبرد ويتماسك، لننعم به في الفوالة(8) بعد أداء صلاة التراويح.

جلوسي المستكين هذا كان لغرض ما!

من أجل أن أظفر في نهاية الطبخة بالغنيمة التي أحب، غنيمتي

كانت تلك الطبقة المتكرملة العالقة أسفل الجدر (القدر)، كنت آكلها بتأن مستلذة بطعم المسرات.

وكثيرا ما كنت أسأل أمي: أميه، شو يعني فرني؟ وتأتيني الإجابة ابتسامة، ليستقر السؤال في اللاوعي.

لم أكن أن أعلم أن إجابة هذا السؤال ستأتيني بعد عمر طويل، وبطريقة شاعرية جدا؛ أثناء استغراقي في قراءة الكتاب الملهم (تسلق أشجار المانغا)(9)، للكاتبة الرائعة مادور جافري(10)، تقول في كتابها الذي تسترجع فيه طفولتها السعيدة في الهند إبان الثلاثينيات: «اعتدت أن أعود من جولتي على الدراجة الهوائية، وقد شعرت بالحر وتصببت عرقا، ولذلك تنعشني والدتي بطبق من حلوى الفيرني (phirni) الباردة من الثلاجة، وهي نوع من البودنج الخفيف المطيّب بحب الهال، وقد أعدته والدتي من الأرز المطحون» إذًا (الفرني) كان هبة من هبات التواصل الحضاري الإنساني الثقافي لتلك الرحلات البحرية، رحلات أجدادنا الذين ألقوا على صدر البحر أحلامهم المسالمة النبيلة باكتشاف العالم الآخر، حاملين معهم إرثهم الثقافي، ليمتزج بكل جميل هناك، فسفننا التي مخرت عباب المحيط الهندي لم تأتِ بالتوابل والعطور والأقمشة فقط، بل أتت بثمرة جميلة لمثاقفة منفتحة تأخذ من الآخر وتعطيه، تعترف بمواطن الجمال فيه وتضيف لما اكتسبته منه لمساتها الخاصة ■

*باحثة وأديبة من الإمارات

الهوامش:

1. صحن الدوري: صحن متوسط العمق دائري الشكل مصنوع من الخزف.
2. الغنج: جمع مفردها غنجة، صحن بيضاوي الشكل مسطح، عادة ما يقدم فيه الهريس والعرسية والعصيدة.
3. ملال الصين: مفردها مَلّة: إناء زجاجي عميق تقدم فيه الشوربات وأصناف الحلو، تعرف في الوطن العربي باسم (الزبدية)،وأطلق عليها ملال الصين لأنها كانت تستورد من الصين.
4. السرّود: سفرة للطعام دائرية الشكل مصنوعة من خوص النخيل، وله أحجام مختلفة، يأتي أحيانا بلون الخوص الطبيعي، أو ملونا بعد صبغ الخوص بألوان معينة.
5. البزار كلمة إماراتية تطلق على مجموعة من البهارات التي تُطحن وتخلط مع بعضها بنسب متفاوتة وتضاف للطعام حسب الرغبة.
6. صينيّة: تجمع على (صواني) و(صياني) توضع عليها الأطعمة للتقديم.
7. الفرني: طبق حلو إماراتي يصنع من دقيق الرز وغالبا ما يقدّم في رمضان، شبيه بالمهلبية والرز باللبن.
8. الفوالة: الطعام المقدم للضيف في وقت ما بين العصر والمغرب، أو بعد صلاة التراويح في رمضان.
9. مادور جافري، تسلق أشجار المانغا/سيرة ذاتية، ترجمة د. سرى خريس، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث(كلمة)، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2011 ، ص 313
10. مادور جفري (1933)، ولدت في دلهي والتحقت بكلية ميراندا هاوس التابعة لجامعة دلهي، ثم عملت في إذاعة «كل الهند»، لتلتحق بعد ذلك بالأكاديمية الملكية للفنون المسرحية وتخرجت منها عام 1957، تزوجت من الممثل الهندي سعيد جافري (Saeed Jaffery) وانتقلت معه إلى مدينة نيويورك. ثم انفصلت عنه عام 195، وبعد ذلك تزوجت من عازف الكمان الأمريكي سانفورد ألين عام 1969، عملت في التمثيل وحازت على جوائز عدة منها جائزة سيلفربير (Silver Bear) في مهرجان برلين العالمي الخامس عشر للأفلام، ولها أفلام كثيرة منها: الغورو 1969 والجريمة الكاملة 1988.

ألعاب الأطفال الشعبية الرمضانية

د. علي عفيفي علي غازي *

الألعاب الشعبية، هي الألعاب الأولى التي عرفها الإنسان في كل الثقافات، منها نبتت معظم الرياضات الحديثة. وعرف العرب في جاهليتهم وإسلامهم الألعاب الشعبية، ذُكر بعضها في المعاجم والقواميس والموسوعات؛ وصنف أحمد تيمور باشا سبع ومائة لعبة في كتابه «لعب العرب»(1). وجمع أحمد عيسى 165 لعبة في كتابه «ألعاب الصبيان عند العرب»(2). من أهم خصائص ألعاب الأطفال الشعبية أنها غير مُعقدة، وهي ليست مجرد أشكال فنية إنما هي انعكاس لواقع الحياة الاجتماعية التي تمَارس فيها، وتمتاز تلك الألعاب بالتنافسية كما تتميز بأن الأطفال يشاركون فيها بمحض إرادتهم الذاتية، كما أنها لا تحقق دخلا ماديًا، ولا تدر ربحًا أو تتسبب في خسارة مادية ملحوظة(3).

تمتلئ شوارع مصر في ليالي رمضان بالأطفال يلعبون الألعاب الشعبية من «عسكر وحرامية» و«الاستغماية» و«عروستي»، وهي ألعاب تحمل في طياتها رسائل غير مباشرة للأطفال، تؤكد أهمية حماية الأرض والوطن، وترتكز على المشاركة الجماعية. وكان الأطفال يلفون على المنازل يطلبون الحلوى أو النقود، قائلين «أدونا (اعطونا) العادة...»(4).

أما في الأردن فيلعب الأطفال في رمضان لعبة «السيجة»، وهي لعبة اشتق اسمها من السياج؛ كونها تُسيج بأربعة خطوط داخلها حجرات يتوزعها فريقان، لكل فريق حجراته التي يضع فيها حجارته «جراوته»، والتي تختلف في لونها عن الفريق الآخر. وتلعب على مساطب أمام البيوت أو في شوارع القرى، وقبل ذلك كانت تلعب في بيوت الشعر، وارتبطت بسهرات شهر رمضان(5).

تعتبر الألعاب الشعبية جزءًا لا يتجزأ من الموروث الثقافي والشعبي في منطقة الخليج العربي؛ ويرتبط الكثير منها بشهر رمضان المبارك، وخاصة بعد الإفطار. وبعضها يرافقها غناء ورقص شعبي، وخاصة ألعاب البنات مثل لعبة «أحدية بدية»(6). ويلعب أطفال الكويت في ليالي رمضان «الخربقة»، وهي لعبة فكرية تُلعب في المجالس، ولا تـزال مفضلة لدى البعض حتى اليوم. وتلتقي الفتيات في حلقة للتباري بينهن صبيحة يوم الصوم أو في الظهيرة، وأحيانًا ليلًا لقضاء أوقات مرحة. كما تستهوي الأطفال لعبة «دق ولقط» أو «الشويكة»، وتتمثل في جمع كمية من بسر

التمر، وتطمر تحت التراب، ويتبارى اللاعبون على أخذ الكمية الأكبر عن طريق رمي شوكة النخلة. وفي السهرات يلعبون «الغميضة» أو «الحليلة» التي تستهوي الأطفال والشباب على حد السواء.

تحمل الليالي الرمضانية في الإمارات عبقًا خاصًا عند الأطفال، حيث يلعبون في الساحات والأحياء، ولا تزال الألعاب الشعبية حاضرة رغم الحداثة والألعاب الإلكترونية، وتعتبر جزءًا لا يتجزأ من التراث الشعبي، وتكثر الساحات وأماكن اللعب في رمضان ويُقبل الصغار والكبار على الألغاز والألعاب الحركية والذهنية ومجالس السمر بعد صلاة التراويح، وقد تباينت الألعاب ومسمياتها في الإمارات، نسبة إلى اختلاف البيئة والمناطق الجغرافية، إلى جانب اختلاف طريقة الأداء التي تعتمد في بعض الأحيان على اللعب الفردي، ولكنها في

الغالب تحث على المشاركة الجماعية، ومن أهمها «الهول» التي تحتاج إلى لياقة بدنية عالية، وينقسم فيها الأطفال إلى فريقين، ويقوم كل فريق بتثبيت راية وسط الملعب، ويحاول كل فريق حماية رايته، فإذا ما لمسها أحد أعضاء الفريق الآخر يتحقق الفوز المنشود. ويلعبون كذلك «عظيم لواح»، والتي تعتمد على ربط عظمة من وسطها بحبل طويل ويلوح بها اللاعب ويقذفها إلى أعلى، ويتراكض اللاعبون للإمساك بها مرددين «عظيم لواح»، وغيرها من الألعاب مثل «الصوير، التبة، هدوة المسلسل، سبعة شداد»(7).

يُحيي أطفال البحرين «القرقيعان» أو «الكرنكعوه»، في منتصف شهر رمضان. وبعد انقضاء وقت الفطور يترك الصبيان بيوتهم، حيث يرتدون الملابس التقليدية مثل الدرعة، ويذهبون إلى الأهل والأقارب والجيران، ويتجمعون في الفريج، يطوفون على منازل الحي حاملين الأكياس، ويدقون على الأبواب ليحصلوا من خلال تجوالهم على بعض الحلويات والمكسرات، ويغني الأطفال قبل الدخول إلى المنزل: عطونا الله يعطيك، بيت مكة يوديكم، يا مكة يا لمعمورة، يا أم السلاسل والذهب يا نورة، عطونا من قال، يسلم لك عبد الله، عطونا حبة وميزان، سلم لكم عزيزان». وبعد دخولهم إلى المنزل يغنون وهم يذكرون اسم أصحاب الدار قائلين: لولا فلان ما جينا، يفك الكيس ويعطينا، الله يخليه لأمه، ويلحفها بالساحة من المطر وسياحه»، ويستمرون في الأداء حتى يُقدّم لهم بعض المكسرات أو النقود، ويردون بالدعاء: «عساكم تعودونه» أو «من عطا عسى يعوده» وهكذا حتى ينتهي الطواف على جميع بيوت الفريج. والبنات كذلك يتجمعن في مجموعات كالصبيان، وتعلق كل منهن كيسها القماشي في رقبتها، ويتغنين بالأبيات: «كريكعان أو كركيعان، بين أكصير ورمضان، عادت عليكم صيام، كل سنة وكل عام، يا الله سلم (فلان)، يا الله خله لأمه، عسى البكعه ما تخمه، ولا توازيه على أمه»(8).

يعرف أطفال قطر عادة رمضانية تراثية أصيلة، يُشارك الكبار فيها الأطفال فرحتهم بليلة النصف من شهر رمضان المبارك، والتي يُطلق عليها اسم «القرنقعوه»، إذ يقصد الأطفال البيوت في الفترة المسائية بعد صلاة العصر وحتى صلاة العشاء والتراويح، حيث يجتمع أطفال الفريج الواحد من الجنسين حتى سن 12 سنة في جماعات ويترددون على كل بيت يقفون أمامه أو يدخلون إلى حوشه، أثناء ترديدهم أهزوجة بصوت جماعي عرفتها الذاكرة الشعبية باسم «القرنقعوه»، تلك الأهزوجة التي تنم عن قوة الترابط الاجتماعي وقيم الكرم والدعاء بزيارة الأماكن المقدسة، والدعاء بطول العمر، ويقول مطلعها: «قرنقعوه قرقاعوه، عطونا اللع يعطيكم، بيت مكة يوديكم، يا مكة يا المعمورة، يا أم السلاسل والذهب يا نورة، عطونا من مال الله، يسلم لكم عبد الله»(9) ■

*باحث في التاريخ، مصر

هوامش:

1 - أحمد تيمور باشا: لعب العرب، (القاهرة: مطبعة دار التأليف، 1948).

2 أحمد عيسى: ألعاب الصبيان عند العرب، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013).

3 عبد العزيز رفعت عبد العزيز: «خصائص ألعاب الأطفال الشعبية

القطرية»، مجلة المأثورات الشعبية، العدد 77 (يناير 2012)، ص 8-15.

4 حسن حافظ: «الألعاب الشعبية فرحة البسطاء وبهجة الأطفال.. تواجه الإندثار»، مجلة آخر ساعة، (6 سبتمبر 2011).

5 «ألعاب شعبية أردنية»، وكالة الأنباء الأردنية، (دون تاريخ).

6 ياسين السليمان: «الألعاب الشعبية في الخليج.. تراث وتاريخ تخطه ريشة الطفولة»، الخليج أونلاين، (23 أغسطس 2015).

7 أميرة عبد الحافظ: «رمضان الإمارات ذكر وتكافل منذ القدم»، صحيفة الخليج، ملحق تراث، (26 يونيو 2014)؛ علي الظاهري: «الألعاب الشعبية.. إبداع داخل البيئة»، صحيفة البيان، (21 يوليو 2013).

8 محمد رجب السامرائي: «رمضان والعيد في البحرين.. عادات وتقاليد متوارثه»، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 21، (ربيع 2013)، ص 98-100؛ «الآلعاب الشعبية.. عبق الماضي الجميل»، صيفة الراي، (5 يونيو 2014)؛ أحمد علي الحاج محمد: «أغاني الأطفال الشعبية ومضمونها التربوي في مملكة البحرين»، مجلة الثقافة الشعبية، العدد الخامس، (ربيع 2009)، ص 48، 49.

9 سلمى النعيمي (وآخرون): القرنقعوة، (الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث، 2014)؛ «سوق واقف يحتفل بليلة القرنقعوه»، مجلة الريان، العدد 90، (أغسطس 2015)، ص 8-10.

فتنة الشهر الفضيل

ماذا يلعب أطفال فلسطين في رمضان؟

سما حسن *

يشكل شهر رمضان بالنسبة للأطفال في فلسطين شهراً خاصاً مميزاً عن غيره من الأشهر، تختلف فيه حياتهم، وتختلف حتى الألعاب التي يمارسونها.

والألعاب الشعبية أحد أهم المظاهر الثقافية الفلسطينية التي اتسمت بحرية الممارسة، واحتكمت إلى قوانين وقواعد خاصة بها، وشكلت دليلًا على ديمومة الإبداع والابتكار الشعبي الفلسطيني في كافة مناطق فلسطين، باستخدام خامات البيئة المحلية، متخذة أبعادًا تربوية وتعليمية ونفسية، وأبعادًا سلوكيةً ومعرفيةً ووجدانيةً، متماشية مع قدرات الطفل وطموحاته؛ كما اتسمت بتخصصها؛ فهناك ألعاب للذكور، وأخرى للإناث؛ وألعاب للأطفال، وأخرى للكبار ولكنها في مجملها تأخذ طابع الطبيعة الفلسطينية وتطورت مع تطور الحياة فيها.

تبدأ أول ذكرى للأطفال مع رمضان بالاستعداد بمشاعر أول تجربة صيام، إذ يتدربون عليه ويتدرجون في تحمله، فأكثرهم يجوعون عند الظهر أو قبله، لا سيما في فصل الصيف، لذا فإن صيامهم يكون عن الأكل والشرب إلى أن يجوعوا فيذهبون إلى المنزل لتناول الطعام ويعتبرون أنفسهم قد أدوا واجبهم.

ويحرص الأهل على أن لا يصوم الطفل سوى نصف نهار، وعند العصر يرسلونهم لشراء قطع الحلوى مختلفة الأشكال، ويجلسون في ساحة القرية أو المدينة ينتظرون أذان المغرب، ويقوم بعضهم بالتجمع والغناء وإطلاق الهتافات الخاصة برمضان، وعادة يكون تجمعهم بالقرب من المساجد متظاهرين باللهفة لسماع صوت الآذان مثل الكبار رغم أنهم يلعبون وقد امتلأت بطونهم.

من الأغاني التي يغنونها وهم يتحلقون في حلقات «بنات وأولاد» ويتقافزون:

وذن وذن يـــا شـــوره تذبحـــلك جاجة عورة
توـــــكلها وتـــنام ع رف الـــــــحمام

وتمثل الألعاب فتنة الشهر الفضيل بالنسبة للأطفال في رمضان، ومن أبرز هذه الألعاب.

البنانير أو الجلول

البلي أو البنانير ومفردها بنورة، هي كرات زجاجية بحجم حبات الخرز الكبيرة، ومزخرفة بألوان متعددة تميزها عن بعضها البعض ويشتريها الأطفال من حوانيت الحي، ويمارسون بها ألعابًا عديدة.

على اللاعب في هذا النوع من الألعاب أن يصيب ببنورته بنورة منافسه، ويقذفها بطريقة فنية مستخدماً إصبعيه (الإبهام والسبابة) فقط، ويجتهد كل لاعب في هذه الألعاب للاستحواذ على أكبر عدد ممكن من البنانير التي يمتلكها منافسه، وقد يتجنب الأطفال قليلو الخبرة والمهارة اللعب مع الطفل المعروف بأنه لاعب ماهر ويحسن التصويب والإصابة ويربح كثيرًا في هذه الألعاب، وكانوا يترددون كثيراً قبل الإقدام على اللعب معه.

أما اللاعب الفائز فكان يتفاخر وهو يعرض ألوانا مختلفة من البنانير «البلي» التي كسبها من رفاقه، مزهوًا ببراعته في اللعب والكسب.

وتلعب هذه اللعبة في النهار بين الأزقة ولا يحلو اللعب بها ليلاً أو بعد أذان المغرب لأن الآباء ينهون أولادهم عن قذف البلي على الأرض ليلًا، وهناك من يعتقد في الموروث القديم بأن البلي سوف يختفي وينقص عدده بسبب سرقة الجن والشياطين لها ولعبهم مع الصغار ومزاحمتهم في اللهو.

الطممة

تُلعب هذه اللعبة وقت السحور إذ يفيق الصغار من النوم عند السحور حين يسمعون صوت المسحراتي، فيخرجون من بيوتهم ويلحقون المسحراتي ويحملون معه قطعاً من التنك ويضربون بالعصي عليها مقلدين حركاته ثم يتركونه ليلعبوا بعض الألعاب منها «الطممة»، وهي تعتمد على الجري والتخفي للحصول على الدفء وتزجية الوقت وذلك في وقت رمضان الشتوي.

و»الطممة» بضم الطاء وتشديد الميم، معناها الطمر أو الدفن أو مواراة الشيء. ويلعبها الأطفال الذكور، ويكون عددهم بين 5 إلى 8 أطفال، وتعتمد هذه اللعبة على براعة الطفل في التخفي واختيار المكان الملائم للاختباء، مع سرعة الجري وشدة الانتباه وخفة الحركة والتنقل.

يتم تحديد منطقة اللعب، ولا يجوز للاعبين الذهاب إلى أبعد

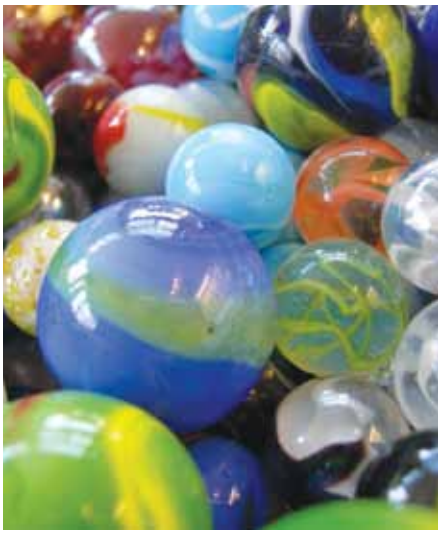

منها، وتتم القرعة لاختيار أحدهم ليغمض عينيه ويقف ووجهه نحو جدار يتفق عليه ليكون مكان «السّملّح» (وهو مكان الأمان للاعب، والذي لا يحق للطفل المطارِد أن يمسك اللاعبين المطارَدين إذا استطاعوا الوصول إليه ولمسه).

يبدأ الطفل بالعدّ البطيء إلى العشرة أو العشرين (حسب الاتفاق) واتساع المكان وكثرة اللاعبين، في حين يسرع بقية اللاعبين للاختباء في أماكن مختلفة في أزقة الحارة وشوارعها، أو خلف جدران البيوت وجذوع الأشجار. وبدلًا من العدّ للعشرة أو العشرين، يمكن لأحد اللاعبين المختبئين أن يُعطى للطفل إشارة معينة مثل الصفير أو قول كلمة معينة، كإشعار بانتهاء الاختباء؛ حيث يبدأ بعدها اللاعب عملية البحث عن زملائه في المخابئ ومطاردتهم أثناء هروبهم وتحركهم من مكان لآخر، وقبل وصولهم إلى الحائط الهدف- أي السملّح بالتعبير الفلسطيني- وهنا تظهر براعة الطفل في القدرة على اكتشاف المخابئ، ومطاردة زملائه والإمساك بأحدهم ليحل محلّه، ويحدث أحياناً إذا بقي أحد اللاعبين مختبئاً أن يساعده رفاقه ضد الطفل الباحث؛ فإذا اقترب هذا من مخبئه، يصيحون كإشارة إلى اقترابه منه، وتحذير للمختبئ بعدم الخروج.

وقد تساعد هذه الإشارات الطفل الباحث في تقدير مكان زميله

المختبئ؛ فيكشف أمره.

إذا استطاع هذا اللاعب أن يمسك لاعباً متخفياً سواء في مكان التخفي أو بعد مطاردته قبل الوصول إلى جدار السملَّح، فإن على اللاعب الممسوك أن يقوم بدور اللاعب الماسك.

نط الحبل أو الحبلة

وتمارسها البنات في الحارة أو فناء البيت، ويكون عدد المشاركات ثلاث بنات أو أكثر، أما الحبل فهو من الحلفا أو النايلون ويكون سميكًا بعض الشيء ومن الممكن أن تمارسها البنت لوحدها في البيت وتعد القفزات لتسلي وقتها .

«السيجة» أهم ألعاب الكبار

وأهمها لعبة «السيجة» وهي لعبة قديمة يعود عمرها لمئات السنين، وكانت اللعبة المميزة للآباء والأجداد الفلسطينيين وهي لعبة شعبية عريقة ربما ارتبطت بما يتمتع به الشعب الفلسطيني من صبر وأناة لأن ما يجب أن يتمتع به لاعبوها من صفات هو ما أملته الظروف على هذا الشعب من صبر وهدوء وتخطيط وحنكة.

تشبه لعبة السيجة إلى حد بعيد لعبة «الشطرنج» المعروفة، ومازالت حتى الآن تصارع من أجل البقاء، إذ يمارسها كبار الشباب أو كبار السن في جو تَحفه الألفة والمحبة.

وتبدأ اللعبة باجتماع اللاعبين الذين يشكلون مجموعات ثنائية، حيث تجد مجموعات على شكل حلقات مكونة من لاعبين وجمهور، من خمسة إلى ستة أشخاص للحلقة الواحدة؛ يتابعون مجريات اللعبة، ويتبادلون الخطط والآراء، ويتنقلون من حلقة إلى أخرى لمتابعة مجريات لعبة «السيجة»مع احتفاظ الجميع بالهدوء الذي يميز هذه اللعبة؛ حيث يخيم السكون والتفكير على الجمهور واللاعبين، ولا تسمع إلا كلمات خاصة باللعبة مثل: «حط السيجة» و«شرق للسيجة» و«كل السيجة».

هذه اللعبة يمارسها في العادة شخصان، وتتكون من 24 حجراً لكل لاعب مقسمة إلى اللونين الأبيض والأسود، ويبدأ اللاعبان اللعبة على الرمل من خلال 48 حفرة صغيرة مقسمة كالمربعات المستخدمة في لعبة الشطرنج، وتسمح قوانين اللعبة بتدخل الجمهور ومساعدة اللاعبين في اتجاه حركة «السيجة».

الملاحظ في الألعاب الشعبية الفلسطينية في رمضان أن هناك ألعابًا لا تتم ممارستها خلال الشهر الكريم لأن بها ما ينافي آدابه أو تشتمل على الشرب والأكل أو الحلف والقسم بالله أو حتى الكذب والتضليل وكل ينافي آداب الشهر الكريم، فتبقى الألعاب التي تعتمد على الحركة والمهارة والذكاء مناسبة لهذا الشهر الفضيل، ويعتمد نجاحها على الطقس ومعظمها ألعاب جماعية بالدرجة الأولى ينتظر الكبار والصغار حلول الشهر الكريم لكي يلعبوها ■

***كاتبة من فلسطين**

إطلالة

رمضان في كتابات الرحالة

أيمن عبد السميع

رصد الرحالة الأجانب خلال رحلاتهم الكثير من مظاهر حياة المسلمين. من بين تلك المظاهر ما ارتبط بشهر رمضان الكريم. في مصر عام 1589م وصف الرحّالة الفرنسي فيلامون (Falamon)) مواكب دراويش الصوفية وحلقات الذكر والمساجد المضاءة وزحام الأسواق، ومآدب الإفطار التي يدعى إليها الأصدقاء، يقول: «ولديهم عادة جميلة؛ إذ يجلسون على الأرض ويأكلون في فناء مكشوف أو أمام بيوتهم، ويدعون المارة إلى الطعام في صدق وحرارة».

تصادف دخول الرحالة الإيطالي فيلكس فابرى (Felix Fabri) القاهرة في ليل رمضان عام 1483م، وهو يصف ما رأى في شوارعها من أنوار ومشاعل وفوانيس مختلفة ألوانها وأشكالها، يحملها الكبار والصغار، ويصف المسحراتي -الذي اعتقد أنه أحد رجال الدين- إذ «كان يمر ثلاث مرات في الشوارع ليلاً ومعه طبلة يدق عليها منادياً للناس بأسمائهم».

أما الرحالة جوزيف بتس (الحاج يوسف) JOSEPH PITTS وهو أول إنجليزي يزور مكة المكرمة في التاريخ الحديث، سنة 1680م فيقول عن ما زمزم: «وفي شهر رمضان يفطرون به، ويقولون إنه حلو كالحليب، وفي شهر رمضان يتم ملء مئات من أباريق المسجد الحرام بماء زمزم وتوضع أمام الناس ومعها أكواب قبيل أذان المغرب، وبمجرد أن يؤذن المؤذن من فوق المئذنة يشربون من هذا الماء بنهم قبل أداء الصلاة».

الرحالان الفرنسيان إدموند كومب وموريس تاميزييه ED. COMBES ET M. TAMISIER التقيا في جدة في شهر رمضان سنة 1835م، وكتبا عن ذلك: «خلال شهر التعفف هذا يعيش المسلمون في أثناء النهار حياة هادئة معتكفين في بيوتهم، فمنذ طلوع الشمس حتى غيابها يمتنعون عن الطعام والشراب، وعن التدخين وعن إتيان نسائهم، ولنا أن نتخيل ما يعانونه من مشاق في اتباع هذه الفريضة، ولن تعترينا الدهشة لرؤيتهم يتخذون كل الإجراءات الممكنة للابتعاد عن كل أشكال الجهد والتعب، فشوارع مدنهم كئيبة يخيم عليها الصمت، وإذا توجهنا بالحديث إلى بعض المسلمين المتقين فإنهم لا يجيبون إلا بإعراض ملحوظ لأنهم يخشون إن كلموك أن يبدر منهم ما يفسد صيامهم. كل مقاهيهم ومحالهم مغلقة، ولولا وجود الفقراء الذين لا يمكنهم الركون إلى الراحة -وإلا فإن صيامهم سيكون لمدة أطول- لأمكن القول إن جدة مدينة مهجورة. ولكن ما إن يحل الظلام حتى يصحو كل شيء، ويسارع الناس إلى المقاهي، وما تلبث النرجيلة العربية الأنيقة أن تستأنف نشاطها الصاخب».

وعن مظاهر شهر رمضان، يقول الطبيب الفرنسي كلوت بك، صديق محمد علي باشا، ومؤسس أول مدرسة للطب في مصر في كتابه الشهير (لمحة عامة إلى مصر): «تتنوع أمسيات رمضان في شوارع القاهرة ما بين مشاهد ألعاب الحواة، أو الانضمام لحلقات الذكر حول ضريح أحد الأولياء، بينما يتجمع البعض في ممرات حديقة (الأزبكية) في ضوء القمر، ليستمعوا إلى فرق الموسيقى التركية، ومشاهد (خيال الظل) و(الأراجوز) وتناول الكعك والذرة المشوية والقهوة وعصائر الفاكهة. ويتفنن الباعة في الغناء لبضاعتهم، بينما يشق السقاءون الجموع وهم يحملون قرب الماء» ■

*باحث في التراث ، مصر

تخرج من مخابئها كلما هلّ هلال الشهر الفضيل

الألعاب الشعبية الصحراوية في رمضان

ترويح وتنشيط للعقل والجسم

د. بوزيد الغلى *

كانت الألعاب وسرد الحكايات في صحراء المغرب خلال الحقب التي سبقت عصر التلفزيون ثم الإنترنت أهمَّ وسائل الترويح في رمضان عند الذكور والاناث صغارًا وكبارًا، فلا تزاحمها في ليالي السمر الرمضانية إلا مجالس الأنس والاستمتاع بسماع قصائد المديح الحسّانية على إيقاع الطبل، إذ تعتبر ليالي الشهر الفضيل أفضل فترات «البدْع» /الابداع والتغني بالشمائل المحمدية.

ولقد أجاد كبار شعراء البيضان بالمغرب وموريتانيا نظم قصائد المديح، فخلف الشيخ محمد المامي ديوانًا من الشعر الشعبي الحساني توشحه وتزينه قصائد المديح الجميلة، كما ترك الشيخ محمد سالم الصحراوي قصيدة مديح جاوزت المائتي بيت من الشعر العربي الفصيح، وتغنى الشاعر الموريتاني الكبير همّام بمدحةٍ مشهورة، هذا مطلعها:

يالـــرسول اراع همـــام ... جاك اليـــوم افذ لزدحام
متوســـل للحي الكـــسام ... بيك انت مـــاه مـــبت
ألا عند للـدار الكـــدام ... مـــنش ينفعن كون انت

وليس سرًّا أن ارتباط مجالس الشعر الحساني واللعب التقليدي -إن جاز التعبير- والحكايات المعروفة بـ:اروايات أو لمرادّ، بالليل وسكونه، يعود أساسًا إلى طبيعة النشاط الرعوي المهيمن في بوادي الصحراء زمن الترحال، إذ لا يفرغ البدو ولا ينتصبون لفعل ما يروح عن الأنفس الكالّة الا حين يسدل الليل ستاره، وتؤوب الأنعام والدواب إلى مباركها ومهاجعها، وقد اشتهر عندهم القول: «السارح ما يجمّعْ»، أي لا ينبغي للراعي الاهتمام بـ «الحدوثات» نهارًا، والاشتغال عن مراقبة القطيع بالمجالسات والمؤانسات، بل يسبلون على الحكي نهارا رداء الحرمة، ويدخلونه في دائرة المدنس المحظور، إذ يزعمون أن «الحكواتي» إذا اشتغل بسرد الحكايات في عز النهار صار أقرعا، كما في قولهم: «اللي رَدَّارْوايـاتْ في النهار يَنْبُتُهالقرع»، غير أنهم لا يرون غضاضة في ممارسة الألعاب الشعبية نهارًا، خاصة تلك التي تعتمد على النشاط العضلي مثل ألعاب «دبلي» و«أراح» و«أرْدوخ»، وكرة الوبر المعروفة بـ«كبيبة» تصغيرا للكبّة، وليس المقصود بلعب الكرة عندهم التنافس والربح بقدر ما يهدفون إلى تنشيط البدن وطرد السموم من خلال الجري والعدو خلفها، وهذا مقتضى قول بعضهم: «المقصود من الكرة الجري».

ونظرا لجريان الألعاب الشعبية مجرى العادة التي عمّت بها البلوى عند أهل الصحراء قديمًا، فإن الشيخ محمد المامي

المتوفى عام 1282هـ، قد أدرجها ضمن دائرة العرف غير المخالف للشرع، وأدرجها تحت ما سمّاه «بلَّنْتِ» إشارةً إلى كونها من صغائر الأمور لا من عظائمها حيث قال: «ثم درجنا إلى «بلّنتِ»، وهي النملة الحمراء بالبربرية، وذلك (مثل ألعاب)...«دمْراوْ» و«هيب»... واللعب بالبنات (الدمى).... وغير ذلك من «بلّنت» ... وإني ذهبت إلى التحليل في جميعها، ....و الداعي إلى هذا أمران: أحدهما عدم وجود النصوص الدالة على الأحوال، والثاني التسهيل على هذه الطائفة من الأمة التي ألجأتها الضرورة إلى التبدي»(1).

ومن بين أهم الألعاب الشعبية التي لا يدع الصحراويون ممارستها في شهر رمضان وغيره من الشهور، نذكر لُعبتي السيق وخميسة بالنسبة للإناث، ولُعبتي ضامة ومرياس بالنسبة للذكور.

لعبة السيق

تعتبر لعبة السيق التي ينطقها الصحراويون بقاف معقودة، من أبدع وأروع الألعاب الشعبية الشهيرة ببلدان شمال افريقي، ولا تختلف

كانت الألعاب وسرد الحكايات في صحراء المغرب خلال الحقب التي سبقت عصر التلفزيون ثم الانترنت أهمَّ وسائل الترويح في رمضان عند الذكور والاناث صغارًا وكبارًا، فلا تزاحمها في ليالي السمر الرمضانية إلا مجالس الأنس والاستمتاع بسماع قصائد المديح الحسّانية على إيقاع الطبل، إذ تعتبر ليالي الشهر الفضيل أفضل فترات «البدْع» /الابداع والتغني بالشمائل المحمدية

يصنف «مرياس» ضمن ألعاب الورق الحديثة بالصحراء، و»تتأسس اللعبة على أربع قبائل متنافسة، وهي: البيك والكور والكارو والطريفل، وأكبر القبائل في اللعبة هي البيك تليها الكور ثم الكارو وأخيرا الطريفل، بمعنى أنه إذا نطق أحد أفراد اللعب «بيك» يقتل جميع أوراق الكور والكارو والطريفل، وهكذا بالنسبة للقبيلة التي تليها

أنتجت الذاكرة الجماعية والخبرة الشعبية الممتدة ألعابًا شعبية عديدة، ينسحب على بعضها حكم المشترك الإنساني بين شعوب عربية ممتدة من المحيط إلى الخليج مثل لعبة الغميضة المعروفة لدى شعوب عربية كثيرة على غرار المغرب

قوانين هذه اللعبة لدى التوانسة عن نظرائهم بصحراء المغرب، إذ أظهر رواق التراث الشعبي التونسي بمهرجان الطنطان الذي تعتبره اليونسكو تراثا عالميا، قدرًا كبيرا بين التشابه بين طرق ممارسة اللعبة لدى الطرفين، إذ «تتشكل عناصرها من كومة رمال على هيئة ظهر دابة يمتد طولها على حوالي 60 سنتيمتراً تسمى (لبرا)، وتتطلب سيكات (ثماني قطع من القصب يتراوح طولها بين 30و 40 سنتميرا ذات وجه ملون ومقوس وظهر أملس) ... بالإضافة إلى أدوات تتشكل من الحجارة أو العيدان الصغيرة أو قطع من القصب يتحرك بها كل فريق على ظهر (لبرا) في اتجاه الفريق الخصم في محاولة لإخراج عناصره من دائرة التنافس ...، وتعتمد لعبة السيك على قواعد لا تسمح بالتحرك لأي فرد من لاعبي الفريقين على وجه «لبرا» إلا إذا تمكن من إنجاز رمية تسقط فيها السيكات على وجه واحد، قد يكون الظهر أو الوجه، ليبتدئ التنقل بين الحفر على «لبرا» في اتجاه الخصم وفقًا لعدد النقط التي تسجل تبعًا للوضع الذي تتخذه السيكات أثناء اللعب»(2) ونظرا لاستقرار جل الأسر الصحراوية في المدن، فإن وسائل اللعب قد شهدت بعض التغييرات (مثل استبدال رقعة الرمل باللعب على ظهر طاولة)، بينما بقيت قوانين اللعبة على حالها.

لعبة خميسة

تلعب فتيات الصحراء خلال أيام رمضان وغيره من أوقات الفراغ لعبة خميسة التي «تستند إلى مهارة التركيز»، «حيث تعمل كل لاعبة على التقاط الحجارة (خمس قطع صغيرة نظيفة) بعد أن يتم تقاذفها في الهواء، وذلك بشكل متناغم يحول دون إسقاطها، إذ يعتبر إسقاط إحدى قطع الحجارة بمثابة هزيمة أمام الفريق المنافس» (3).

لعبة ظاما

«ظاما عبارة عن رقعة مشبكة يتم رسمها على الرمال، ويصل عدد تقسيماتها إلى ثمانين مربعا، ويقوم بلعب ظاما شخصان يحيط بهما جمع من المشجعين، يسمون بالنعات أي المرشدون» (4).

لعبة مرياس

يصنف «مرياس» ضمن ألعاب الورق الحديثة بالصحراء، و«تتأسس اللعبة على أربع قبائل متنافسة، وهي: البيك والكور والكارو والطريفل، وأكبر القبائل في اللعبة هي البيك تليها الكور ثم الكارو وأخيرا الطريفل، بمعنى أنه إذا نطق أحد أفراد اللعب «بيك» يقتل جميع أوراق الكور والكارو والطريفل، وهكذا بالنسبة للقبيلة التي تليها.

ذاكرة جماعية وخبرة شعبية

أنتجت الذاكرة الجماعية والخبرة الشعبية الممتدة ألعابًا شعبية عديدة، ينسحب على بعضها حكم المشترك الإنساني بين شعوب عربية ممتدة من المحيط إلى الخليج مثل لعبة الغميضة المعروفة لدى شعوب عربية كثيرة على غرار المغرب، فالقارئ للنص الروائي الماتع «وسمية تخرج من البحر» للروائية الكويتية المقتدرة ليلى العثمان، يترفل في جنان «الزمن الجميل» حين كان الأطفال في البوادي يستمتعون بممارسة هذه اللعبة الجميلة التي تذكي غريزة

لعبة السيق

حب الاستكشاف والبحث عن المخبوء، وإذا قدر لتلك اللعبة الاندثار والانحسار في زمن مدن الصحراء الراهن، فإن ألعابًا أخرى ظلت عصية على الانـدراس، إذ لا تفتأ تخرج أدوات ممارستها من مخابئها ومخازنها كلما هلّ هلال الشهر الفضيل، ولا أدل على ذلك من لعبة السيق التي لا تشهد إقبالًا كبيرًا إلا في ليالي هذا الشهر، إذ تمثل ذروة سنام «اللهو المباح» في انتظار صوت الاعلان عن دخول وقت السحور ■

***باحث في التراث من المغرب**

هوامش:

كتاب البادية، الشيخ محمد المامي ابن البخاري،1206هـ-1282هـ، زاوية الشيخ محمد المامي ،موريتانيا، الطبعة الأولى 2006، ص 198.

2 مكنز التراث الشعبي المغربي، د. السعدية عزيزي والأستاذان سعيد أيت زهرة وطارق المالكي ،دار القرويين، الطبعة الأولى 2008، ص 350.

3 المرجع نفسه، ص 350.

4 نفسه، ص 349.

أن تكون محبوباً في الشرق الأوسط

د. وائل إبراهيم الدسوقي

جذب ساحل الخليج العربي في الماضي فريقًا من أهل صحراء الكويت الفقراء للإقامة بعد أن قرروا ترك الداخل الصحراوي، وعلى الرغم من محاولات البيئة الصحراوية مرارًا وتكرارًا أن تصب جام غضبها عليهم برياحها ورمالها، إلا أنهم صمدوا في وجه غضباتها، وتمسكوا بتلك البقعة التي اختاروها لمعيشتهم.

وكانت الكويت محرومة حرمانًا قاسيًا من المياه العذبة والنباتات، ولذلك ولى الكويتيون وجوههم شطر الخليج بهدف فك حصار الصحراء، فبرعوا في بناء السفن والمراكب واحترفوا الغطس خلف اللؤلؤ، حتى تم اكتشاف النفط في أراضيها، وتهافتت الشركات العالمية للحصول على عقود التنقيب منهم.

في الفترة من عام 1921 وحتى 1932 أظهرت شركة إنجليزية تعمل في مجال التنقيب عن النفط اهتمامًا كبيرًا بالكويت، وبدأت في محاولات الحصول على امتيازات للعمل فيه، فاعترضت الخارجية الأمريكية رسميًا وبدأت مباحثاتها مع بريطانيا والتي انتهت إلى اتفاق شراكة أمريكي إنجليزي كويتي، تأسست بموجبه «شركة بترول الكويت»، ومن ذلك التاريخ أصبحت الكويت في بؤرة الاهتمام الغربي.

وبحسب قول «جان جاك بيريبي» في كتابه عن الخليج العربي، فإنه في ظرف عشر سنوات لا غير، انهالت على هذا البلد الفقير ثروة لا تقدر ولا يحصيها حساب صُبت في خزائنه، بعد أن تدفق البترول غزيرًا من آباره. وهكذا وفي هذه الحقبة القصيرة التي لا تقاس في حياة الأمم غيرت هذه الثروة معالم الحياة كلها في الكويت الجديد.

ولم يكتف أهل الكويت بتضخم ثرواتهم فقط، بل اقترنت الإصلاحات الاقتصادية بإصلاح سياسي مهم، وقدم بعض الكويتيين عرائض للمطالبة بإنشاء مجلس للشورى، وعندما تأسس تم اختيار الشيخ «أحمد الجابر الصباح» ليصبح أميرًا للكويت، والذي قام مع أخوته باستثمار أموال تصدير النفط في تطوير الخدمات التعليمية والصحية في بلاده، وشيدوا القصور والمستشفيات والمعاهد التعليمية ومعامل تحلية المياه في أنحاء الكويت، وقاموا بنشر الثقافة وإيفاد البعثات التعليمية إلى مصر والعراق وغيرها.

> وانعكس هذا التطور السريع للكويت في خمسينيات وسيتينيات القرن العشرين على علاقاتها مع كل إمارات الساحل المتصالح، وقد كان شيوخها آنذاك يقومون بمباحثاتهم في سبيل الوحدة، إلا أن الكويت أخذت جانباً استقلالي في إدارة شؤونه، لكنه لم يفصل نفسه عن جيرانه وساهم في ترجيح كفة الوحدة ونبذ الخلافات بين الشيوخ أثناء المحادثات

وانعكس هذا التطور السريع للكويت في خمسينيات وسيتينيات القرن العشرين على علاقاتها مع كل إمارات الساحل المتصالح، وقد كان شيوخها آنذاك يقومون بمباحثاتهم في سبيل الوحدة، إلا أن الكويت أخذت جانبًا استقلاليًا في إدارة شؤونها، لكنها لم تفصل نفسها عن جيرانها وساهمت في ترجيح كفة الوحدة ونبذ الخلافات بين الشيوخ أثناء المحادثات.

وبين الكويت والإمارات علاقة ذات طابع خاص، فمنذ تعيين سمو الشيخ «صباح الأحمد الجابر الصباح» (أمير الكويت الحالي) وزيرا للخارجية ورئيسا للجنة الدائمة لمساعدات الخليج العربي عام

1963، كان الكويت خير سند لنهضة الإمارات الحديثة، وفي عام 1969 كان لحكومة الكويت دورها المهم في المجال التعليمي بالإمارات، فقد أنشأت حوالي 43 مدرسة عمل فيها ما يقرب من 850 مدرسا. وكانت كتب الدراسة مطبوعة في الكويت وتحمل صور أميرها، وقد ظلت معتمدة في الإمارات لمدة طويلة بعد قيام الإتحاد. وعندما عهدت إلى الشيخ «صباح الأحمد» وزارة الإعلام إلى جانب الخارجية عمل على إنشاء محطة للإرسال الإذاعي في الشارقة من أجل بث الإرسال الإذاعي في جميع الإمارات، واهتم بإنشاء محطة إرسال تلفزيوني في دبي. بالإضافة إلى المستشفيات التي شيدت قبل قيام الاتحاد، وما زال أبناء الإمارات يتذكرون إسهام الكويت في حفر خور دبي.

ولزيادة أواصر الصداقة والتعاون قررت الإدارة السياسية في كل من الإمارات العربية المتحدة والكويت الدعوة إلى تأسيس مجلس التعاون الخليجي عام 1976، لعمل كيان خليجي يهدف لتحقيق التعاون لخلق دول خليجية عصرية متطورة.

واستمرت العلاقات بين البلدين على قوتها حتى خرج العديد من الكويتيين من بلادهم في أعقاب الغزو العراقي لها، فقام الشيخ «زايد بن سلطان آل نهيان» رحمه الله باستقبال 66 ألف كويتي، وأمر بتوفير السكن لهم، ومنحهم مساعدات مالية، بالإضافة إلى إعفائهم من دفع أي رسوم للعلاج الطبي.

كانت العلاقة بين الإمارات والكويت دوما تسير وفق مبادئ وتقاليد ورثها شيوخ الخليج العربي عن أجدادهم، لخصها الشيخ «عبد الله السالم الصباح» الذي تولى مهام الإمارة في الكويت عام 1950، حينما سألوه: كم من الوقت ممكن أن يدوم هذا الحكم؟ فأجابهم: إن المهم هنا في الشرق الأوسط أن يكون المرء محبوبا ■

لم يكتف أهل الكويت بتضخم ثرواتهم فقط، بل اقترنت الإصلاحات الاقتصادية بإصلاح سياسي مهم، وقدم بعض الكويتيين عرائض للمطالبة بإنشاء مجلس للشورى، وعندما تأسس تم اختيار الشيخ «أحمد الجابر الصباح» ليصبح أميرًا للكويت، والذي قام مع أخوته باستثمار أموال تصدير النفط في تطوير الخدمات التعليمية والصحية في بلاده

كاد لا يتكلم إلا بالشعر

الشاعر منصور بن غانم «بو زاهرة»

د. راشد أحمد المزروعي

عندما وقّعت حكومة أبوظبي اتفاقية استخراج النفط من أراضيها مع الشركات الأجنبية عام 1939م، وحينما بدأت موارد تلك الاتفاقية تدر قليلاً من الأموال على إمارة أبوظبي، تشاء إرادة الله سبحانه وتعالى أن تتوقف السفن عن الغوص والإبحار في البحث عن اللؤلؤ، ولم تبحر في ذلك العام. كان لذلك عدة أسباب، أهمها بداية استخراج اللؤلؤ الصناعي في اليابان، ووفرته في الأسواق خاصة أسواق الهند، وهي السوق الرئيسية للؤلؤ الطبيعي من دول الخليج العربي.

وقد عانى من ذلك في المقام الأول المواطنون الفقراء الذين كانوا يعتمدون على الغوص في حياتهم، فتوقف دخلهم وبدأوا يعانون من قلة الموارد والدخل واستنفدوا ما لديهم من مدخرات، فبدأوا يعانون من قلة ما في اليد وأصبح الجميع فقراء ومحتاجين. وقد زاد من هذه المعاناة الحرب العالمية الثانية التي بدأت أيضاً في تلك السنوات، فبدأت تكوي الدول بنارها وإن لم يكن كذلك، اكتوت هذه الدول بتوقف الاستيراد إليها وحصول مجاعة فيها حيث سمّيت في الإمارات سنة «الفاضة» أو سنة «الجوع» أو سنة «البطاقة»، عندما تم توزيع الأرز والسكر على الأهالي عن طريق البطاقات. فاكتوى الأهالي بنار الفقر، وبدأت أفواج الهجرة من المواطنين تهاجر إلى دول قريبة مثل السعودية والبحرين والكويت والهند، لعلهم يجدون هناك دخلاً يعوضهم عن دخل الغوص واللؤلؤ الذي توقّف. أما الأغلبية الباقية من الأهالي فقد تحملوا تلك الصعاب وعانوا في سبيل حياتهم، عندما أصبح الكل فقيراً وبدأوا يحصلون على أكلهم من أرزٍ وسكر وقمح عن طريق البطاقات وبإشرافٍ بريطاني.

ظلت تلك الحال سنوات الحرب بأكملها، والمواطنون يعانون من آثارها وآثار توقف سفن الغوص، وتشاء الأقدار أن يذهب أحد المواطنين من أهالي أبوظبي -وهو الوجيه المعروف المسمى منصور أبو زاهرة- إلى مركز توزيع الحبوب لاستلام حصته من الطعام. كان ذلك الرجل ذا خدمٍ وحشم، ويعيش في «فريج الحمران» فيذهب ليستلم ببطاقته التموينية لتعيش منها عائلته وخدمه. ويتفاجأ باستلام جزءٍ يسير من الحب أو

الشاعر منصور بن غانم «بو زاهرة»

السكر في ذلك الزمان وهو ما كانوا يطلقون عليه «نصيفيّه»، أي نصف كيس من الحب فقط، والكيس كان يزن 80 كيلو جرام تقريباً. كانت أسرته تتكون من زوجته وابنته و4 خدم ذكور، وخادمتين تعيل إحداهما 4 أطفال. وتساءل كيف يكفي ذلك لتلك العائلة الكبيرة وضيوفه حيث أنه رجل معروف في أبوظبي وبيته مفتوحاً للضيوف؟ كيف لا وقد كان «نوخذا» سفينة قبل سنوات! فكّر رحمه الله في طريقة يسدّ بها حاجته ويطعم بها ذريته، فكل السبل ضاقت عليه، فالغوص الذي كان يعيش منه توقّف، وتوقّفت سفينته التي كانت تخص التاجر أحمد بن خلف العتيبة.

وفي ليلةٍ من تلك الليالي الربيعية من عام 1946م جهّز السيد «منصور» حاجياته الضرورية وعائلته وجميع خدمه، وأخطرهم بضرورة هجرته إلى خارج أبوظبي ليحصل على لقمة عيشهم. وفي ليلةٍ ظلماء أحضر «شاحوفه» أو قاربه، ونقل حاجياته إلى البحر مع خدمه وعائلته كلها، وكانت وجهتهم دبي القريبة من أبوظبي.

حطّت رحلتهم بدايةً في «خور غناضة» على الحدود البحرية بين إمارة ابوظبي ودبي، حيث استراحوا لفترة، أعجبتهم بعدها الإقامة هناك في «خور غناضة» لما يقارب السنة، واستقروا في خيامٍ من السعف، حتى ناداهم الرزق من الله سبحانه وتعالى، فعادوا الكرّة وواصلوا مسيرهم إلى دبي، وإلى الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم ووالده الحاكم آنذاك الشيخ سعيد بن مكتوم رحمهم الله جميعا، حيث سمعوا بوجوده هناك فطلبوه للإقامة عندهم في دبي. وقد شكّل ذلك انفراجةً كبيرة له وتعديل أوضاعه المعيشية بعد تلك الظروف الصعبة التي مرّ بها ودعته للتوجه إلى دبي.

تلك الحكاية ليست من نسيج الخيال، إنها حكاية انتقال شاعرنا لهذا العدد الشاعر منصور بن غانم المزروعي، الملقب منصور «بوزاهرة»، من أبوظبي إلى دبي عام 1947م. وقد حكى لي تلك المعلومات كل من إبنته سلامة بنت منصور، عافاها الله، 75 عاماً من دبي، والشاعر حمد بن سوقات 80 عاماً، الذي عاصر الشاعر منصور، وكذلك السيد محمد بن بيات المهيري (75 عاما) من العين، وكان يعمل مع الشيخ راشد بن سعيد المكتوم رحمه الله في دبي في تلك السنين، وقد سمع ذلك منه كما يذكر، وكذلك من السيد علي بن ناصر بالمطيرية (75 عاما) من دبي، والذي يعرف منصور وهو الذي أخبره بتلك الرحلة شخصياً وكان جاره وزميله كما يقول.

من هو الشاعر منصور بن غانم بو زاهرة؟

هو منصور بن غانم بن أحمد بن سالم بن قاشوط المزروعي، ويلقّب باسم «بو زاهرة» وهو اللقب الذي يرافق دائماً اسم منصور، فتلك عادة عربية متأصلة في دول الخليج العربي، ومثله علي الذي يلقّب «أبو حسن» وراشد «أبو سنيده» ومحمد «أبو جاسم»، وهكذا، أما اسم منصور فيطلق عليه «أبو زاهرة» أو أبو زاهر، وقد ارتبط هذا اللقب بالشاعر منصور، فأصبح ملاصقاً له ولا يعرف إلا به، حتى أن البعض ظن أن لديه ابنة تسمى «زاهرة». ينتمي شاعرنا منصور بن غانم إلى قبيلة المزاريع الكريمة وهي فرع من حلف من بني ياس. ويقول حفيده راشد بن خميس بن عابر الهاملي أنه من أسرة «بن قاشوط» وهي من الأسر الكريمة من «آل شكر» من المزاريع الذين يقطنون «بينونة» حيث يقيمون في محاضر ليوا هناك، ومن محضر «مزيرعة» الذي ولد وترعرع فيه رحمه الله، كما تذكر ابنته الوحيدة «سلامة» أطال الله في عمرها. وتقول إنه ولد في مزيرعة عام 1900 م تقريباً، من أمٍّ تدعى «مصيفة بنت محمد المري»، وهي كما يتضح من اسمها من قبيلة «المرر» الكرام من ليوا أيضاً. وله أخت واحدة تسمى «ريْسه» تزوجت من أحد أبناء عمومتها من المزاريع هناك في «ليوا».

عاش شاعرنا رحمه الله في «ليوا» بين أهله وعشيرته من المزاريع والمرر، حتى كبر وصار شاباً يعتمد على نفسه، فتزوج من السيدة حمدة بنت حفيظ المزروعي التي ولدت له ابناً وبنتا ماتوا كليهما صغاراً، ثم انتقل من البادية والبر يبحث عن رزقه من البحر، ليستقر به المقام في جزيرة أبوظبي، وكانت تحت حكم الشيخ شخبوط بن سلطان رحمه الله، في بداية الثلاثينيات الماضية تقريباً.

ونظراً لأن المهنة الرئيسية التي كانت معروفة في المنطقة هي الغوص والبحث عن اللؤلؤ من البحر، فقد انضم رحمه الله إلى سفن التاجر المعروف أحمد بن خلف العتيبة وعمل في إحدى السفن غيصاً، وما لبث أن أسندت إليه مسؤولية الإشراف على إحداها ليصبح «نوخذا».

وظل في عمله رحمه الله يكدّ الغوص ويصرف على عائلته المكونة من زوجته، وخدمه، وتشاء الأقدار أن يحصل الفراق بينه وبين زوجته الأولى حمدة بنت حفيظ، فيتزوج في عام 1939م من امرأة من نفس قبيلة أخواله وتسمى «عيدة بنت أحمد بن إبراهيم المري»، من أهالي أبوظبي وكانت متزوجة من الوجيه راشد بن خلف العتيبة، شقيق التاجر أحمد بن خلف. وقد رزق منها بإبنته

الوحيدة «سلامة» عام 1940م. وكانت «عيدة» رحمها الله على قدرٍ كبير من الجمال والوسامة، وذلك بشهادة حفيدها السيد راشد بن خميس بن عابر 55 عاماً من دبي.

ويحضرني بيت الشعر الشعبي الذي قاله شاعرنا «منصور بو زاهرة»فيها، وأصبح مثلاً شعبياً مشهوراً يقال على كل لسان في الامارات، وخاصةً في المدن، وهو:

« اللّي تبى له عيده بيّي حظه عـــدل
ولي ما تبى له عيده يا ويله م الرجل»

وهو مثل شعبي يضرب للمحسوبية والواسطة ويقال في النقد. وقد حاولت مع ابنته بشتى الطرق لكي تشرح لي معنى هذا المثل وأصل حكايته، إلا انها قالت إنها لا تعرف لماذا قاله والدها في والدتها «عيدة».

هو الشاعر منصور بن غانم بن أحمد بن سالم بن قاشوط المزروعي، ويلقّب باسم «بو زاهرة» وهو اللقب الذي يرافق دائماً اسم منصور، فتلك عادة عربية متأصلة في دول الخليج العربي، ومثله علي الذي يلقّب «أبو حسن» وراشد «أبو سنيده» ومحمد «أبو جاسم»، وهكذا، أما اسم منصور فيطلق عليه «أبو زاهرة» أو أبو زاهر، وقد ارتبط هذا اللقب بالشاعر منصور، فأصبح ملاصقاً له ولا يعرف إلا به، حتى أن البعض ظن أن لديه ابنة تسمى «زاهرة»

حياته وعمله في دبي

يقول الشاعر حمد بن سوقات (80 عاما) نزل الشاعر منصور في بداية مجيئه إلى دبي، في جزيرة «أم هرير»، وذلك بعد انتقاله من من «خور غناضة»، حيث منحه الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم ووالده الحاكم، منزلاً عاش فيه مع أسرته وخدمه. ويكمل الشاعر بن سوقات حديثه عن الشاعر منصور

فيقول، «كان رحمه الله من أفضل الناس خلقاً وأكرمهم، وكان محبوباً لدى الجميع، وقد قرّبه الشيوخ كثيراً فكان لا يفارقهم أبـداً، يمتعهم بحديثه الشيّق وأشعاره الخفيفة المرحة. وكان صقّاراً يحبونه كثيراً ويأخذونه معهم في رحلات القنص والصيد في مختلف مناطق الامارات».

وحيث أن دبي قد تطورت قليلاً، فقد أمر الشيوخ بتعيينه حارساً لأحد البنوك التي افتتحت في نهاية الخمسينيات في دبي، وكذلك حارساً في نفس الوقت لبيت الدولة البريطاني بجانب البنك.

ويذكر السيد علي بالمطيرية أنه قد ترك هذا العمل لاحقاً وعمل في شركات التنقيب عن البترول في أراضي الشارقة في منطقة الصجعة في بداية الستينيات، حيث وقع له حادث هناك وانكسرت رجله وعولج في مستشفى المكتوم الجديد في دبي الذي أنشئ حديثاً في ذلك الوقت، فرجع إلى عمله مع الشيوخ وملازمتهم في مجلسهم ورحلات صيدهم المختلفة. ويذكر السيد حمد بن سوقات : «كان معه طير من نوع شاهين، ما يترك طائر ما يصيده من قوته، وكان يسميه «الذيب».

وقد انتشرت صورة للشاعر منصور بوزاهرة في السنوات الأخيرة ويظهر فيها منصور بو زاهره في حفلة «تومينه» لبنات الأسرة الحاكمة وبعض بنات الأهالي، وهو جالس على الأرض ويحمل طيره الشاهين على يده، وقد نشرتها مجلة «ناشونال جيوغرافيك» التي نشرت تحقيقاً عن إمارة دبي عام 1953م.

الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم

منصور بو زاهرة والشعر

يعد الشاعر منصور بوزاهرة من الشعراء المعروفين في دبي وخاصة في شعر الاجتماعيات، فالجميع يعرفونه من الشيوخ والأهالي. وقد توفرت لدي حصيلة جيدة من شعره، واتضح لي أنها أشعار جميلة وخفيفة وقيل معظمها على بحر الردح.

يقول الشاعر حمد بن سوقات: «إن الشاعر منصور يكاد لا يتكلم إلا بالشعر، فكل حديثه بالشعر، وكل ردوده بالشعر ويكاد يخلط بين الشعر وبين الحديث العادي». أما حفيده راشد بن خميس بن عابر فيقول عنه :«كان جدي يقول الشعر جالساً وماشياً، وله شعر في كل موقف ولم يواجه موقف أو غيره في الحياة اليومية، إلا وقال فيه بعض الأبيات».

وحيث ان الشاعر منصور كان محبوباً من الجميع والكل يقدره، فقد كان منزله مأوىً للشعراء ومحبي الشعر، ويذكر حفيده راشد ان الشعراء امثال الشاعر الجمري و الشاعر سعيد بن سرور وغيرهم لا يفارقون منزله ينادمونه بالشعر وهو كذلك. وهناك عدة قصائد للشاعر سعيد بن سرور المزروعي يسندها على الشاعر منصور بوزاهرة . أما الشاعر سالم الجمري فكان أيضاً يشاكيه وينادمه بالشعر. وقد اشتهرت قصيدة للشاعر الجمري يشاكيه فيها عندما طلّق زوجته- اي الشاعر الجمري- يقول في بدايتها:

هيّج بكا عيني لـعى الورق
بالنوح يلعي فوق لـــوكور
يلعي طرب وانا بيَه ســرق
ما يلام لي مثلي يا منـصور
أصبح أصلي جبلتي شـــرق
ما عرف وين الجبلة تــدور

الخ القصيدة.

إلا أن منصور أخذ القصيدة إلى جاره الشاعر علي بالمطيرية في زعبيل، وقال له، هذه ابنة خالتك - التي تكون مطلقة الجمري- وارجـو ان ترد على الجمري، وقد أخبرني بذلك الشاعر علي بالمطيرية بنفسه، وفعلاً رد على الشاعر الجمري.

وهناك أيضاً بعض الأشعار الغزلية لشاعرنا منصور، إلا أن أغلب أشعاره جاءت في الاجتماعيات، وقد اشتهر في هذه الناحية حتى أصبحت أشعاره وحكاياته مع الشعراء والشيوخ على كل لسان وما زالت تتردد حتى اليوم.

حكايات الشاعر منصور وأشعاره

يذكر الشاعر حمد بن سوقات قصيدة قالها الشاهر منصور عندما لم يأخذه الشيوخ معهم في رحلة قنص داخلية، وكان مستعداً للذهاب معهم، إلا أنهم نسوه، وعندما حضر في مجلس الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم بعد عودتهم من الرحلة وقف في المجلس أمام الشيوخ وقال :

يا شيخ مـا تدري بمـنصور
مـشتاق ومـــولّم فـراشه
فـي بقعتي حطّيت ناطور
وزيّدت لأجلك في مـعاشه
ودّي مع اللّي يقنص حـبور
وفـي الليل غيّه وارتبـاشه
حدٍّ ايْحلف ويـــشهد بزور
ويقول في طيري وحـــاشه

ويذكر السيد علي بن ناصر بالمطيرية (75 عاما) من زعبيل، أن

الشاعر منصور رحمه الله اعتاد أن يحضر يومياً في مجلس الشيخ راشد بن سعيد القريب من الشندغة، وكان يذهب إلى هناك من الفجر، فتضايقت من ذلك زوجته «عيدة»
فقال لها:

يوم آغَبشْ م الشيــفه
جـدوى والي الأمــر
شيخٍ زبن الـــمخيفه
للبـــادي والحـــضر
يا شيخ ابغي وظيــفه
مـــن خـدمة بو شقر
وانا نفـــسي عفـــيفه
ما ايـــي غـــير بْزقر

وكان ذلك طلباً منه رحمه الله للحصول على وظيفة من الوظائف التي بدأت تنتشر بسبب التنمية الجديدة في دبي، وفعلاً تم تعيينه حارساً في بيت الدولة والبنك في نفس المكان القريب من الشندغة.

وعندما قيل له أنه «شيبه» أي رجل كبير في السن قال:

مـــا حقّ أني شـــيبه
واتبـــع درب الـــهوان
عدني أشـــم الطيـبه
مـــن مـــدعوي العيان
واثيب عـــند الثيـــبه
في حـــزة الامـــتحان
إلا كان يتني مصـــيبه
لي فـي تالي الـــزمان

فهو هنا يدافع عن نفسه ويقول إنه ما زال شجاعاً وشباباً يساعد من يطلب نجدته ويثيبه.

وفي منزل الشيخ جمعة بن مكتوم في الشندغة يقول:

في الشندغة مـن عالي
يعل امطره كـــل يوم
يسقي بـريم الهـــالي
محـضّر وامْحـــشوم

وعندما هاج البحر وحصل طوفان في دبي عام 1958 وطمى البحر على المدينة، وخاصة من جهة «ام هرير» التي يسكنها الشاعر، قال للشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم:

يا شيخ هـاي مـصيبه
يـــتنا تـــلايا ليـــــل
كـــلٍّ هـــويا حـبيبه
يـزقر بصـــوته حـــيل
ثابـوا عـــلينا ثيبـــه
لـي يسوّون الجـــميل
وأصبـــح ويّا طبـــيبه
يْـــــداوون العـــــليل

وعندما وزّع الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم بشوت على جماعته كهدايا،(عباءات)، تعمّدوا أن يؤجلوا هديته ليروا ردّ فعله، فقال لصديقه السيد سيف بن ثالث:

لي يا العـــرب ما يـاني
كيف الفـكر يا «سيف»
مـا حيد حـــظي داني
عند الشيخ الشـــريف
م البـعد بيتك عـــاني
يا زبـــن المـــستخيف
كله عـــــن القصراني
والحـال اللّي شظـــيف

أفـــزع مـــع الشبّاني
وين العـــــمار تْهيف
واراجي للمـــــــعاني
واداري للـــــــوليف

وعندما زار العين وكان هناك حفل عرس (زفاف) وفيه رزيف ورقصة النعّاشات قال:

ليتني ما بيت فرجان «الحميري»
كان قلبي سلم من ضـرب الرميّه
حثّوا العْيلات وانووا بالمـــسيري
لـــــي نضـوي دار عذبين الثنيّه

وكان رحمه الله عندما يذهبون مع الشيوخ إلى القنص، يستقلون إحدى السيارات الكبيرة وكان يركب معهم وبيده طيره «الذيب» فيقول في ذلك:

لي مـــا يسوّي شـرات «الذيب»
لزمٍ تكـــــثر عـــذاريبـــه
ولي سرح ما ســـرح فـي الجيب
لـــزمٍ العـــود يـموى بـــه

فــوقه محـــاوي وتـــحته بيب
ومـــن الســمَرَ خـــايسٍ جيبه

ويقول لصديقه الشاعر سيف بن سعيد بن ثالث، عندما غادرت زوجته «عيده» إلى أقاربها في قطر في سفينه وتركت ابنتها سلامه معه في دبي:

يا «سيف» ســـارت «عـــيده»
وقت الضـــــحى م الـــدار
فـــي لنـــجاتٍ جـــديدة
لـــي تـــقطع الابحـــار
خـــلّت «ســـليم» وحـــيده
تتـــــــويّع بالـعـــبار
الانســـان يـــلزم ســـيده
لـــي لـــه معـــه مـــقدار
مـــــا يـفرّح الحـــسيده
لـــي ينقـــلون الـــثار

ومما عرف عن الشاعر منصور بو زاهره أنه كان سخياً كريماً لدرجة كبيرة، وكان يقول:

اقرب لدلة «عيـــده»
كانك تـــبا الـــفنيال
فـــي حرّاره جـــديده
ومـــقنّده بالـــهال

وفاته

يقول حفيده، السيد راشد بن خميس بن عابر: «في عام 1965 وأنا صغير، كنت في زيارة لأخوالي المرر في المنطقة الغربية من أبوظبي، عندما وصل خبر وفاة جدي منصور، وأذكر أنهم كانوا لا يريدونني أن أعرف عن وفاته، ولكنني عرفت بفطنتي أنه توفى».

فلقد أصيب رحمه الله بالمرض الخبيث في بداية عام 1965م، وأرسله الشيوخ إلى الهند للعلاج، ولكن العلاج لم يفد معه، إذ تم ارجاعه إلى دبي، وهو يعاني من هذا المرض أشدّ المعاناة، وتوفي رحمه الله متأثراً به في خريف عام 1965م، ودفن في مقبرة دبي، فرحمة الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته.

صيانة ذاكرة المقاومة

أنس الفيلالي*

انتبهت الكثير من الـدول العربية في السنوات الأخيرة لأهمية الحفاظ على التراث وتشجيع المبدعين والفنانين على الإبداع والمنافسة، والمثال الأبرز على هذا هو دولة الإمارات العربية المتحدة، التي قامت بعدة جهود في الحفاظ على هويتها الثقافية، وتوثيق العلاقة بين تاريخها وحاضرها عن طريق العديد من الأعمال الفكرية والعلمية والفعاليات الثقافية الكبرى التي جعلت الثقافة همًّا يوميًا للمواطن الإماراتي وحتى العربي، من دون أن ننسى الجوائز التي خلقت حركة ثقافية كبرى.

في المغرب ثمة مؤسسة رائدة، تعمل منذ سنة 1973 لحفظ الذاكرة الوطنية والتراثية والتعريف بتاريخ الربوع المغربية من طنجة إلى الكويرة.

لقد قطعت «المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير» أشواطًا مهمة منذ تأسيسها بشكل رسمي -وقبل ذلك في إطار مجلس للمقاومة سنة 1959 برعاية من المغفور له محمد الخامس- بالاهتمام برجالات المقاومة المغربية، ورفع مكانة المقاوم المغربي من خلال بعض المنافع والامتيازات العينية والخدمات الاجتماعية، قبل أن يؤسس مكتب عمومي لقدماء المقاومة وجيش التحرير سنة 1961، ويأخذ صبغة مندوبية سامية منذ سنة 1973.

وظل دور هذه المؤسسة الرئيس إعـداد وتنفيذ السياسة الحكومية المتعلقة بقطاع المقاومة وجيش التحرير وإنجاز وتقييم البرامج المرسومة للنهوض به في جميع المجالات، وفي عام 1993 أضيفت إليهم مسؤولية الاهتمام بتاريخ المقاومة وجيش التحرير وملحمة الاستقلال والتعريف بها لدى الأجيال الناشئة. بدأت المؤسسة في تنفيذ العديد من الأعمال التي تسير في هذا الإتجاه، بالتعريف بالمقاومة وجيش التحرير وملحمة الاستقلال في كل المناسبات في الإذاعة والتلفزة المغربية، وإقامة نصب تذكارية تعرف بالملاحم الخالدة.

وفي إطار اهتمامها بالذاكرة الوطنية والمحلية والتراث الوطني، دشنت المؤسسة مشروعًا جديدًا ضمن المشروع العام الخاص بصيانة الذاكرة، من خلال إقامة فضاءات للذاكرة التاريخية للمقاومة والتحرير في عدة مدن ومناطق مغربية، وكذلك من خلال الإصدارات والمنشورات والمؤلفات التاريخية، وتنظيم الندوات الفكرية والأيام الدراسية، وتخليد الذكريات الوطنية، وإطلاق التسميات التي لها ارتباط بملحمة الحرية والاستقلال على الساحات العمومية والشوارع والمؤسسات الاجتماعية والتعليمية، وإقامة المعالم والأنصبة التذكارية.

وحاولت مختلف هذه الفعاليات التربوية والتثقيفية والمتحفية إبراز قيم الروح الوطنية والمواطنة، التي تنطق بها بطولات وروائع الكفاح الوطني، دفاعًا عن المقدسات الدينية والثوابت الوطنية والمقومات التاريخية والحضارية، والعمل على استظهار دروسها وعبرها واستلهام قيمها وعظاتها لمواصلة مسيرات الحاضر والمستقبل. وأبرز مجهودات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، كانت على مستوى البحث التاريخي والتأليف والتوثيق لأمجاد الكفاح الوطني والتحرير، والتي تعتبر من الأعمال الرائدة بالمغرب، سواء من حيث الكم أو الكيف، شملت انتاجات علمية وفكرية تصل إلى أزيد من 497 إصدارًا نوعيًا، تسعى من خلالها إلى إشاعة ثقافة المقاومة والتربية على المواطنة الحقة والاعتزاز بالذاكرة الوطنية النفيسة، وإشاعة ثقافة الافتخار بالأمجاد والتربية على المواطنة الصادقة للأجيال اللاحقة، عبر احتضان كل الانتاجات العلمية والفكرية الجامعية وغيرها، التي رصدت هذه الملاحم البطولية، وعملت على إخراجها إلى الوجود بالشكل اللائق بها.

وكان المندوب السامي لهذه المؤسسة، الدكتور مصطفى الكثيري، قد أضاف بخصوص مجهود البحث التاريخي والتوثيق لأمجاد

الكفاح الوطني الذي اشتغلت عليه المندوبية قائلا : «طرقت المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير أبواب الحقل التاريخي الرحب وشرعت نوافذه لتلمس وتقصي فضاءاته وجنباته بما يجب من الاحتياط العلمي والمنهجي والتحقيق التاريخي والموضوعية الفكرية والأدبية على أرضية وخليفة الندوات والملتقيات العلمية والأيام الدراسية».

والجدير بالذكر، أن كل إصدارات المندوبية التي كانت على خلفية الندوات والملتقيات العلمية والأيام الدراسية، كانت بشكل تشاركي، تفعيلًا لاتفاقيات التعاون التي تربط المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير مع مختلف الوزارات المعنية بالثقافة والتربية الوطنية والهيئات البحثية وكليات الآداب والعلوم الإنسانية وكليات العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية والكليات المتعددة التخصصات التابعة لمختلف الجامعات المغربية، ستعمل المندوبية على العمل التشاركي في إنجاز هذا المشروع، بالإضافة إلى انفتاحها على أكاديميين من خارج المغرب، ليساهموا بإضاءاتهم العلمية والبحثية في القضايا المطروحة.

كما لا يخفى على أحد الدور التي تقوم به المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير في تشجيع الشباب الباحثين في مواضيع الحركة الوطنية والمقاومة، وخصصت مبالغ مادية مهمة لأصحاب الأبحاث المتميزة التي كان موضوعها عن تاريخ المقاومة والحركة الوطنية وملحمة الاستقلال، كما قامت بنشر الأبحاث والأطروحات الجامعية الجديرة بالنشر بالشكل الذي تستحقه. وقد حرصت هذه المؤسسة على الاعتناء بهذا الورش العلمي طيلة السنوات الأخيرة، في إطار اللجنة العلمية بكل عناصرها، بدءا من لجان القراءة، إلى المحكمين لضوابط العمل الأكاديمي بكل موضوعية وشفافية، في لجنة تضم أساتذة جامعيين كبار أمثال الدكتور علال الخديمي و الذكتور علال ركوك والذكتور نور الدين بلحداد والدكتور زكي مبارك

ومثلما حظي الباحثون والمتتبعون باهتمام خاص ضمن مختلف أعمال المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، حظي الطفل هو الآخر بهذه الأهمية في سلسلة «كتاب الطفل» التي دأبت على نشرها المندوبية لمؤلفين مختصين ولهم حظوتهم الإبداعية كالراحل الأستاذ أحمد عبد السلام البقالي والدكتور مبارك ربيع والأستاذ عبد القادر بوراس. حيث ساهم هذا المشروع إلى الاهتمام بالطفل باهتمام خاص على مستوى الممارسة والتلقين.

وانطلاقا من إيمانها بالدور الذي تقوم به الصورة اليوم في الحياة العامة للمواطن، فالصورة تقرب ما ابتعد، وتبسط ما عقد، وتوضح ما اختفى. عملت المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير في عدة أوراش على تقريب الذاكرة الوطنية ذات الصلة بتاريخ المقاومات والنضالات والملاحم الوطنية والبطولية في معارض لصور فوتوغرافية توثق للذاكرة الوطنية وملاحم الاستقلال ولوحات تشكيلية تسير على نفس الخطى، وأيضا عرض الأفلام الوثائقية التي تروي هذه الملاحم. إلا أن أبرز ما يحسب لهذه المؤسسة على هذا النحو، كانت مشاريع الأفلام الطويلة التي قامت بدعمها أو إنتاجها سواء على المستوى الفردي أو الأعمال التي قامت بإشراك مؤسسات رسمية مختصة كالمركز السينمائي المغربي، أو حتى التي انفتحت فيها على الأندية السينمائية، والتي ساهمت مجتمعة في خلق أفلام مغربية طويلة حول الذاكرة الوطنية وبخاصة ملاحم المغاربة في سبيل الاستقلال والتحرر، لتقربها إلى الناشئة بالشكل الأسهل والأقرب، تبعا لعصر الصورة ■

***شاعر وباحث في التاريخ، المغرب**

صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده، يتسلم بعض الإصدارات والمنشورات الفكرية من السيد المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الدكتور مصطفى الكثيري، يوم 21 غشت 2003

عالم «كازا» السرّي

محمود شرف*

عشش صفيحية، ورائحة نفاذة لشواء تنتشر في المكان، لا تكاد السماء تظهر من بين التعريشات التي نصبها أصحاب العربات النقالة خلال هذا الممر الضيق حد انحشار شخص ممتلئ بعض الشيء في ثنيات الأزقة التي تبدو كثعابين متقاطعة، على امتداد البصر؛ ذاك هو «درب غَلَّف»، قلعة العالم السري للتكنولوجيا. نعم، هو هذا المكان الذي تخشاه كبرى شركات التكنولوجيا في العالم. تلك العشش الصفيحية المهترئة، التي لا تكاد أسقفها تمنع ماء المطر المنهمر دوما في أيام شهر فبراير من العام، بلا انقطاع، هذه العشش التي تبدو بائسة للوهلة الأولى، وكأنها تؤوي خلف جدرانها الهشة عالما كاملا من العجائز المحتضرين، ستصدمك حينما تكتشف ما الذي تخبئه في تجاويفها الضيقة؛ جماعات كبيرة من الشباب الغض، يتشكلون كخلايا نحل أطلقها مربوها في مرابعها، لا همّ لهم في الحياة سوى العمل، بدأب وجدٍّ شديدين. في الزوايا والأركان تتراكم أحدث الأجهزة الإلكترونية في العالم أجمع، في أكوام عالية، تلمع الأرقام، والأضواء الصادرة من تلك الأجهزة في ظلمة تلك الكهوف الصفيحية والخشبية، ملايين الأجهزة هنا، الآلاف منها مفتوحة البطون، تمر الأصابع ذات الدربة بسرعة وحرفية على براغيها، تخلع قطعة، وتزرع أخرى، تعيد التشغيل، ثم... ها نحن انتهينا!

درب غلّف في القلب من «كازا» المتأنقة، يبدو كنتوء لا علاقة له بالمكان، ظاهريًا؛ فالمدينة التي تمتد على ساحل الأطلسي تبدو ناعمة، متشحة ببياضها، صافية، كأنك ستكون قادرا على سبر أغوارها السحيقة من الطلّة الأولى، تمنحك أسرارها، وتحتضنك بـدفء، تبقى قـادرة أيضا على حمل هذا العالم السحري، الذي جابت شهرته آفاق العالم المتقدم. في أوروبا (والدول المتقدمة) يخشون هؤلاء، يسمونهم قراصنة، وأنا لم أر هناك لا ببغاء على كتف، أو عصابة عين تخبئ واحدة مفقوءة، أو حتى خطّافا بديلا لكف يد مقطوعة؛ رأيت أصابع تتنقل بين لوحات مفاتيح أجهزة حديثة بدقة، وسرعة، تنفذ المطلوب، تتقاضى الأجر، ويفترق السائل والمسؤول في دقائق معدودات. دوما تكون بغية السائل فك تشفير أحد الأجهزة، أو الحصول على برنامج من برامج الهواتف النقالة الحديثة، والذي يتوجب عليك للحصول عليه أن تدفع مبلغا كبيرا من المال، أو شراء واحد من تلك الأجهزة بنصف الثمن الحقيقي تقريبا! هذا هو «درب غلّف» الذي اقتطع من أيامٍ خصصتها لواحدة من مدني المفضلة في العالم- ساعات طويلة. أخذني بغموضه، واقتضاب ساكنيه، لا يتحدثون كثيرا، يجيبون أسئلتك بغمغمات غير واضحة، لكنهم ينفذون المطلوب دوما، كما تحب أن يكون. يستخدمون أسماء حركية في كثير من الأحيان أيضا؛ فهم يمارسون أعمالا مجرّمة طبقا لقوانين المغرب، والبلاد الأخرى كذلك، لكن «البيضاء» تحتضنهم برقة، لا تعنفهم، ولا ترد زائريهم خائبين.

صار « درب غلّف» واحدا من أشهر مراكز القرصنة الإلكترونية على مستوى العالم، طبقا لتصنيف شركات البرمجيات الكبرى في العالم. هذه العشش بأحشائها كنز بشري، طاقة جبارة وُضعت على مدرج الإقلاع، لكنها انطلقت نحو وجهة مختبفة، مختلة؛ من وجهة النظر الرسمية، وضرورية؛ لتسهيل الحياة، من زاوية هؤلاء الباحثين عن إيقاع العصر، بحداثته، وغرائبيته، لكن من دون تكاليفه الباهظة! ■

* شاعروإعلامي مصري

ارتياد الآفاق

قمة جبال تاترا

الانسجام مع العالم بلا تعقيد

مختار سعد شحاته *

اختبرت مع صـدور روايتي الأولـى «لا للإسكندرية» كيف يختلف الخيال عن الواقع، وكيف يكون لكل منهما مذاقه الخاص، إذ كانت زيارتي الأولـى لبرلين (نوفمبر 2010م) مختلفة عما تخيلته في روايتي حول المدينة.

لبيتُ دعـوةً لحضور مؤتمر أدبي حول أسلوب كتابي جديد يتشّكل في الغرب، أطلقتُ عليه «الحياة المكتوبة وكتابة الحياة». قبل المؤتمر بأيام تمكنت من زيارة جبال «تاترا» بكراكوف في مدينة «زاكوباني» البولندية، حيث صور أحد مشاهد روايتي الموقع، وكانت من أمتع الـرحـلات في حياتي، هنا أسجل كيف ارتادت روحي آفاقًا بديعة منحتها لي تلك الرحلة المميزة.

نحو كراكوف

ركبتُ الأوتوبيس ليلًا، حاملًا على ظهرى حقيبتي، التي أسرعت بوضعها في مكانها المخصص داخل الحافلة، التي انطلقت بنا نحو قمم «تاترا»، في رحلة استمرت 10 ساعات بين مدينتي برلين الألمانية ومدينة زاكوباني البولندية، كانت واحدة من المرات القليلة التي أختبر فيها السفر بصحبة غرباء؛ وعرفت كيف يمكن أن تُصبح اللغة حاجزًا بين البشر.

وصلت لمدينة كراكوف في تمام الساعة الثامنة صباحًا بتوقيتها المحلي، كان الطقس باردًا والـرذاذ يملأ الأجواء المنعشة، التي خففت عناء رحلتي الطويلة شيئًا ما، كانت الحياة تدب في المدينة، وحركة أهلها برغم البرد الشديد سريعة ونشطة، يتسارع الناس في الشوارع ومتى وقعت عيناك على عيني أحدهم؛ تكون الابتسامة ردًا مطمئنًا.

ابتسمت حين تخيلت وجوهنا في بلادنا ونحن نستعد لبداية يـوم عمل جديد، وأدركـت كيف يمكن لابتسامة بسيطة من شخص لا يعرف لغتك ولا وجهتك أن تمنحك قدرًا من الارتياح يمكن أن يعبر بك مؤقتًا فوق حاجز الغربة، ويصبح دعاية غير مباشرة للسياحة في بلد يعتمدها كمصدر مهم للدخل القومي.

تزداد الرحلة جمالًا وأنا في أوتوبيس للنقل العام الداخلي يتجه من محطة كراكوف إلى زاكوباني، وعبر صعود (960م) فوق مستوى سطح البحر. كانت حبات الثلج المتساقطة قد غطت الشوارع؛ كثير من معالم المدينة تأخذني إلى ماضي المنطقة إبان الحرب العالمية الثانية، ومعاناة البولنديين ضد النازيين، وما سجلته المقاومة البولندية آنـذاك من ملحمة وطنية يعتز بها كل بولندي.

في كراكوف، رائحة الأجبان المدخنة زكمت أنفي حين كنتُ أعبر بوابة محطة الحافلات،

وأتابع جـدول رحلتي لتمتد (15 دقيقة) لأجدني أمام بوابة المتنزه الوطني والذي يزوره سنويًا ما يقارب المليون ونصف المليون سائح طوال العام لأجل التمتع بسحر الغابة وبقمم جبال تاترا.

للمكان قيمة روحية مضافة إلى قيمته التاريخية عند البولنديين، رسختها زيارة «بابا الفاتيكان السابق» يوحنا بولس الثاني ـ بولندي الأصل- في العام 1979، والذي دعم الحركات الاحتجاجية في بولندا وحقوق الإنسان كما يُقال عن تلك الزيارة.

في ذلك المناخ البارد القريب من درجة الصفر، كنتُ مبهورًا بجمال المتنزه الوطني، والذي اكتظ بكل الفئات العمرية، كان حولنا أطفال مدارس من المرحلة إبتدائية، وقفت معلمتهم تشرح للتلاميذ عن تاريخ المقاومة البولندية في تلك الجبال، وعرفت كيف يمكن لقيمة الوطن أن نرسخها بطرق أخرى غير ترديد النشيد الوطني في طوابير مدارسنا بعبارات لا تتخطى أعلى جباهنا، وفي هدوء تام لم يعكره أعداد الزوار ولا تلك الرحلة المدرسية.

كان يشغل عقلي رغبتي في اكتشاف المكان، وبرغم طول المسافة والصعود فوق مستوى سطح البحر، طغى حماسي على التعب الناتج عن رحلة استمرت لساعتين قبل أن أصل إلى الاستراحة المجهزة خصيصًا لرواد المتنزه الراغبين في المبيت. إذًا وصلنا سفح جبال تاترا، وفي الصباح تبدأ رحلة الصعود.

على قمة تاترا كل شيء

السابعة صباح اليوم التالي، بدأتُ -وصديقٌ رافقني- الصعود نحو قمم تاترا، والتي تمتد لمسافة تقارب الألف كم، وباتساع يتجاوز (15 كم)، لتشكل واحدًا من أجمل الحدود الطبيعية في العالم بين مجموعة الدول السلافية، وتتوسط ما يسمى قوس «Carpatians»، وتتشكل على طول الجبل مجموعة من القمم تتوزع بين الدول المشتركة، وبولندا تشتهر بواحدة من أعلى تلك القمم والمسمى Kozi Wierch» « بقمته المنتصبة (2291م) فوق سطح البحر، وترتفع قمة Rysy»» في الجانب البولندي بارتفاع (2499م) كواحدة من قمم كثيرة، يقابلها على الجانب السلوفاكي ما يصل ارتفاعه إلى (2503م) فوق سطح البحر.

عبر المسارات الجبلية الممتدة بين أشجار الصنوبر العملاقة كانت العلامات الفسفورية المحددة للمسافة والارتفاع تأتي من بعيد كصديق قديم، ترشدك نحو المسار الصحيح عبر مجموعة من الجداول التي راح صوت خريرها مؤنسًا يخفف عنك بعض التعب. كيف للماء أن يكون له كل تلك القدرة على مسح التعب عنك؟ وكيف يريحني خرير الجداول تلك؛ فأنسى نقص الأوكسجين فوق الجبل، ولا أنتبه لكل تلك اللافتات التحذيرية من الحيوانات الضارية؟! ألهذا كان الماء أصل كل شيء حي؟

لتكن استراحة قصيرة إذًا للاستمتاع بهذا الإبداع من حولي، ولتنطلق روحي خارج جسدي المتعب تسبقني نحو قمة الجبل، فتزيد شفافية وخفة.

مهارات لا غنى عنها

وهُنا لابد أن أنقل تلك النصيحة والتي تعلمتها من أهل الخبرة هناك، إذ يتعين على الصاعد نحو قمة الجبل –لأول مرة مثلي- أن يتعلم بعض المهارات لضمان السلامة:

- يجب الاستعانة بتلك الاستراحات الصغيرة للتزود بالماء وشرب كميات كبيرة منه، وفي الاستراحات الواسعة ينبغي تناول الطعام

وكميات كبيرة من الماء.

- استبدال الملابس التي يبللها العرق، ومعرفة تواقيت تبديل الملابس، ففي حالات يمكن أن تصل درجات الحرارة إلى ما دون الصفر المئوي، إلا أنه يتعين عليك إرتداء ملابس خفيفة نتيجةً للصعود وانخفاض نسب الأوكسجين.

- إلزم «عصا التسلق» طوال الرحلة، فهي صديق لا غنى عنه في الصعود والهبوط، وتسهل كثيرًا للمبتدئين رحلتهم الأولى أو غير القادرين على السير لمسافات طويلة ووعرة. وهي عصا طويلة مدرجة يمكن تعديل طولها حسب طبيعة الأرض والممرات التي تعبرها.

- الانتباه للعلامات والممرات المعبدة فقط، وذلك تحاشيًا للحيوانات الخطيرة أو الحشرات، وأخطرها الدُب والأفاعي، وبعض أنواع الثعالب، وفي حالة المواجهة –وهي نادرة- يجب الهدوء والعودة إلى الممر الأصلي، كما تكمن خطورة ترك الممرات الممهدة والمؤطرة بالعلامات إلى خطر الضياع في الغابة، وهي كثيفة وملتفة يسهل لها خداع غير المتمرس.

- أكياس القمامة والفضلات صديق لك، فليس ثمة عامل نظافة

سيمر خلفك، ويمكن أن تتحول مجرد ورقة من «السوليفان» إلى زحافة خطرة نتيجة المطر.

في تاترا أرى

بعد ثلاث ساعات ونصف وصلتُ عند واحدة من أشهر قمم جبال تاترا «قمة أورنك Ornak»، والتي تنطق «أرْنَك» ويبلغ ارتفاعها (1853م) فوق سطح البحر، وهناك كانت لافتة حديدية تعود أكلها الصدأ إلى أوائل القرن الماضي تحمل اسم القمة وتاريخ الوصول الأول لها.

فوق أورنـك، راحت تصفو الـروح من كل درنها، وألقيت بضغوط العمل، والكتابة من أعلى القمة، فتدحرجت على ألوان الجبل الزاهية ما بين الأخضر والأصفر والبرتقالي، وغيرها من ألوانٍ بديعة، وحين كانت تغمرني قطعٌ من السحاب شعرت للحظة أنني أخف من ريشة طائر، ورحتُ أتحلل من كل شيء حتى وجودي، إذ صرت كائنًا ممزوجًا بهذا الجمال والروعة من حولي، ولم أنتبه حتى ناداني صوت رفيقي في الرحلة، فأعادني رويدًا رويدًا إلى عالم البشر. لأول مرة أشعر بقربي من السماء جسدًا وروحًا، حتى أن رفيق رحلتي ابتسم وقال حين لاحظ إشراقي: «حالك يذكرني بقول الصوفي «في حميثرة سوف ترى». والآن هنا في تاترا أرى وأرى.

لم أكن نفس الرجل

على الحدود السلوفاكية البولندية كانت استراحتي في «زدني أورنك

Zadni Ornak»، التي تعلو عن الأخيرة عشرات الأمتار. طلبت من رفيقي أن أتمدد لدقائق فوق القمة التي لونها الكبريت الأصفر، ومن جديد رحتُ أستعيد ما شعرت به في استراحتنا السابقة، وحين بدأتُ في تبديل ملابسي المتعرقة مرةً أخرى، وجهزت عصا التسلق، وضبطتها بما يناسب رحلة النزول، إذ تختلف مقاسات ضبطها ما بين الصعود والهبوط، تساءلت ما الذي يحتاجه المرء كي تشف روحه؟ وكيف يمكن أن نتصالح مع الطبيعة في بلادنا؛ لتمنحنا ما منحته لنا طبيعة المتنزه البولندي وجباله من سلام؟!

أهدافك واضحة ومحددة، ومدروسة كل خطواتك نحوها، وذلك التركيز فيما تفعل، وأين تضع قدمك كي لا تنزلق، وأن تدرك حجم إمكانياتك وحجم الكون من حولك بطبيعته وسطوته على روحك، وكيف تجد سبيلك للانسجام مع العالم دون تعقيد؛ ذلك ما يلزم للوصول إلى القمة.

عشر ساعات مضت قبل العودة إلى محطتي الأولى. لم أكن نفس الرجل الذي صعد الجبل، إذ ألهمتني تلك التجربة الكثير من الخبرات التي أظنها ستؤثر على روحي إلى نهاية عمري. وفي طريق العودة بينما كان القطار فائق السرعة يتحرك من أوسلو نحو برلين، رحتُ أغفو محاولاً القبض على تلك الحالة التي تلبستني خوفًا أن تغيب؛ فيغيب جمالٌ ما طغى على روحي ■

*** سنيمائي وروائي من مصر**

أحمد محجوب *

«عايشة» مرسال الحياة والموت

سبعة عشر عاماً في الحزن تقسي القلوب جميعها، فما بالك بطفلة عرفت الحياة في قبر أمها التي دفنت معها، حتى شقت بصراخها طبقات التراب، وأعلنت أن شيئًا ما ينبض تحت الثرى، سبعة عشر عاماً، بعد أن أخرجتها معاول الخال والعم وسط دهشة الحاضرين، كانت كافية جداً لتحترف مهنتها التي التصقت بها للأبد «معددة».

يقول صابر بن معبد ابن الذين تاهوا سبعة آلاف عامٍ تحت خط الفقر، إن والدها خاف أن يضمها لصدره خمس سنين، كانت «حتة لحمة حمرا» خارجة لتوها من القبر، فيما قطع حبلها السري فلاح كفيف يعمل في طمر القبور بالتراب، لم يكن معه وقتها سوى مطواة يفكك بها أكفان العباد، وحين تحسس الرابط بين «البنية» وبين أمها، أسرعت يده لتقطع الحياة من الموت، وتعلن أن «عايشة» قد انتقلت من دفاتر الموتى إلى دفاتر الأحياء بحد مطواة يمسكها كفيف يحرس البوابة الترابية بين العالمين.

يقول صابر: «لم يكن والدها يملك من حطام الدنيا سوى عنزتين وجحش هو رابعهم، وحين رأى أمامه الصبية تخرج من القبر، سالت روحه فبلل جلبابه الأزرق العتيق، وأطلق ساقيه للرياح».

تنقلت «عايشة» من بيت إلى بيت، الكل كان خائفاً من الطفلة/ الزومبي، كان جسدها المغطى بالخرق، تكسوه الزرقة من أثر اختناق الخروج المفاجئ من بطنٍ ميتة، فتسلمتها «حسيبة» بنت منصور، وقالت في سرها: «لعلها مبروكة»، وبعد ثلاثة أيام، رفعت عقيرتها صارخة في جوف الليل، وحين التف الناس حولها، كانت تهذي بخرافات وتشير للصبية وهي تصرخ: «جرّت الموت معاها».

لم يفهم أحد ما الذي جرى في البيت الصامت حيث حسيبة وزوجها بلا أولاد، سوى أم مشهور، كاهنة «دار الرماد»، التي أسرت لها حسيبة بالأمر، فخرجت لتضيف ألغازاً جديدة حول الطفلة.

جلست أم مشهور أمام المتجمهرين، ورفعت عقيرتها تحكي: «اللي جاي من الموت ميت، واللي طالع من قبره ملعون، والصبية في الدنيا حسرة وفي الآخرة ندامة»، ثم رفعت صوتها موضحة: «البطن اللي شالت، أكلها الدود، والرجل اللي قدمت بالخير صابها الشلل».

بعد يومين، عرف الجميع أن الغرغرينا التي أصابت ساق زوج حسيبة، وأدت لقطعها من الكف للركبة في المستشفى الأميري، لم تكن بسبب إهمال طبي، لكنها كانت «لعنة عايشة».

من بيت حسيبة إلى بيت أبو أحمد الناطوري، شيخ الغفر المهيب، الرجل الذي قرر أن يتقمص دور الحكومة الغائبة، وأن يفض الجمع ويلتقط الصبية من وسط الجموع ليذهب بها إلى بيته، فتحممها زوجته وتقسم معها رضاعة صغيرها (مخلوف)، لتبدأ الحياة تسري في عروق الطفلة الوليدة، وحين أكملت «عايشة» شهرها السادس، تلفتت زوجة الناطوري حولها فوجدت دماً يسيل من بين فخذيها، فهرولت تصرخ في الشوارع باحثة عن أم مشتاق الداية، لكن النزيف اشتد وتواصل، وذهل الناس فيما زوجة الناطوري ترسم خيطاً من الدم في شوارع البلدة باحثة بجنون عن أم مشتاق التي تبخرت فجأة حتى خارت قوى النازفة فرقدت على الأرض تنهنه ودمها يصنع بركة صغيرة بين فخذيها.

يقول صابر: «حضرت المشهد، كان الدم يلف كالثعابين في الشوارع، دم ثخين لم تشربه الأرض إلا بعد أسبوع، وحين سقطت آخر نقطة دم من «بهانة» زوجة الناطوري، كانت معها آخر أنفاس السيدة، فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منها حتى حملها زوجها بمساعدة شيخ الجامع المرتعش نحو المقابر، فيما لزم الجميع بيوتهم خوفاً من الخطو فوق خيط الدم الذي استقر في كافة شوارع القرية، فارضاً حظر تجول مدموغ باللعنات».

كانت البلدة كلها ترتعش، تنقل الرجال مثل النساء من سطح إلى سطح، وكاد الزرع أن يهلك، والأطفال أن يموتوا، حتى اقترح بيت مندور في آخر القرية، أن «يجتمع كل ذكر بالغ عاقل راشد في

البلد، كل أمام منزله قباله خيط الدم، ويقرأوا جماعة (قل هو الله أحد)، وآية الكرسي وسورتي الكهف وياسين، من الفجر إلى العشاء، حتى ينفك الحظر».

كانت لعنة «عايشة» تجمد الدم في عروق الجميع، و كان على الجميع أن يجدوا حلاً لهذه الطفلة التي بالكاد بدأت طريق الحياة.

اجتمع كبار القرية في دوار عقيل الصفدي، الأفندي الأحدث نزولاً للبلدة من فلسطين، لبحث الأمر، فقال العمدة: «نوديها للحكومة، أهي تاكل وتشرب وتموت»، فرد عميد عائلة «السرساوي»، المنافس التقليدي للعمدة: «نـروح نقول للتراكوه (الأتـراك الحكام)، إن البلد ماعدش فيها رجالة؟»، التقط الخيط الصفدي وقال بلكنته اللطيفة: «نبعتها للحكومة ونصرف عليها، كل راجل مقتدر يطلع ريال في الشهر»، فرد عليه أبو السعود العجيزي مازحا: «ريال من كل بيت، طب ما تودوني هناك أحسن؟».

احتار الحضور في المعضلة، وساد اللغط والتنافس والخوف بين الجميع، فمن يحمل «اللعنة» سيكون بطلاً بالنسبة للأهالي، لكنه سيكون «ملعونا» ببطولته، فمن سيصافح في الطريق يدًا امتدت لتطعم «الزومبي؟».

استمر الاجتماع من بعد الظهر إلى قرب العشاء، حتى دخلت على الجمع ببجاحتها المعهودة، أم مشهور، فقالت لهم: «العيل يلزمه أمه، ودوها لأمها». كانت العجوز محترفة السحر، تطمع لتحقيق أيقونة أعمالها السفلية بدفن رضيعة حية في القبر، لكن الرجال ذوي الشوارب الكثة والنفوس اللينة، قرروا أن يفهموا بطريقتهم الخاصة، فصاح فرج المزين (الحلاق): «حلو، بدل ما ندفع للحكومة، هي تروح عند الترب (المقابر)، وكل بيت يودي اللي يلزمها، إن عاشت يبقى بركة، وإن ماتت تدفنها العفاريت».

استحسن الجميع تخريجة المزين، وذهبوا بها في «بردعة» وضعوها فوق عنزة مرضعة، إلى المقابر، وحين أنزلوها مالت العنزة على جنبها، لتلتقم الصبية ضرعها، وتبدأ في الرضاعة.

سبعة عشر عاماً، عاشتهم «عايشة» في مقابر البلدة، يذهب إليها طعامها وشرابها من كل بيت بالترتيب، فمرة «بتاو وجبن قريش»، ومرة «لحم ورز» ومرة «خبيزة وحريرة»، كانت الوحيدة التي لا يرهقها الحاكم بضريبة، ولم يفزعها العساكر بالعصي، تواطأ الجميع على مدها بـ«التموين» كل يوم بعد العصر، كنوع من القرابين، حتى فوجئوا بها في جنازة أم محسن قمارة، تقتحم مجلس النساء وتخبرهم: «سأحكي لكم أين هي الآن».

أنصتت الآذان ولزمت الشفاه الصمت، وتحجرت العيون، فيما تحكي الصبية عن «قمارة» من لحظة دخولها القبر وحتى وصول «عايشة» لمجلس العزاء، لتصبح «عايشة» هي القنطرة الفريدة التي يتلمسها كل من فقد محبوبًا، ليطمئنه على أحوال الراقدين في القبور.

كانت الصبية قد أدركت ببداهة سطوتها كملعونة على المجتمع، فقررت أن تبتزه وتتحكم فيه، فكانت تختار شاباً كلما اكتمل البدر، كي يذهب إليها في المقابر، فيخرج الشاب المختار مذعوراً، مودعاً ببكاء أمه واخوته وزوجته، كي يقدم جسده قرباناً في مذبح «عايشة»، ويعود ليتحمم بماء الورد والبخور، ويظل لا يلمس امرأة سبع ليالٍ، يقرأ عليه فيها شيخ الجامع الصمدية وآية الكرسي وسورتي الكهف وياسين، حتى «يطهره من اللعنة».

ظلت «عايشة» في مقابرها، وظلال سلطانها يغمر الجميع، فهي حارسة بوابة العالم الآخر، والوحيدة التي تستطيع أن تخبرك بما يريده المتوفى في توزيع الإرث وزواج البنات واختيار المحاصيل.

كانت «عايشة» في المقابر بجسدها، لكن «سلطان الموتى» يحكم قبضته على الحياة مقابل ريالات معدودة، وقرابين بشرية كلما اكتمل القمر ■

* شاعر وروائي من مصر

إشكالية «العقل» و «النقل» في فكر ابن رشد

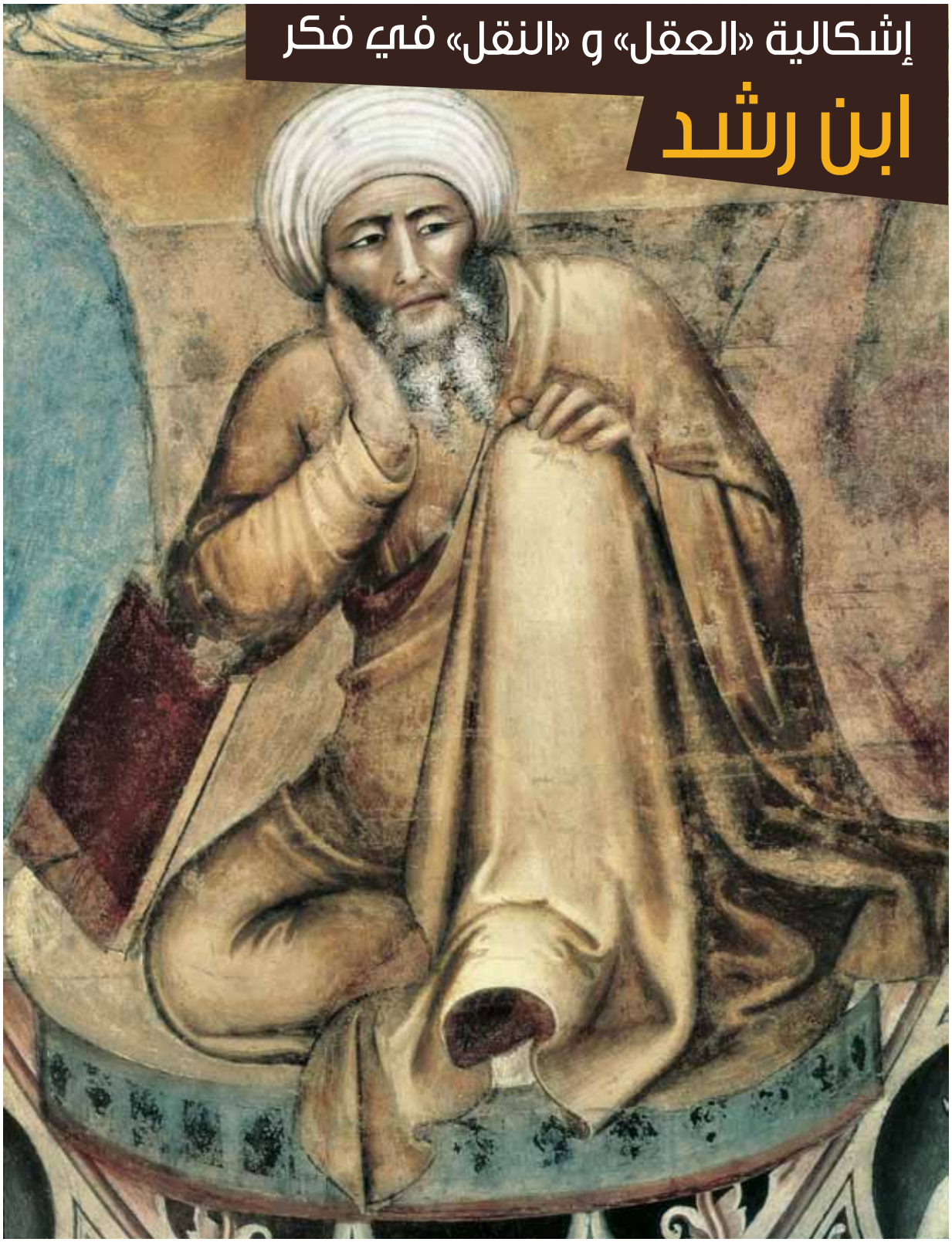

صديق محمد جوهر

ظلت إشكالية(العقل) و (النقل) محل جدل ومثار خلاف في الأدبيات الفلسفية العربية الإسلامية على مر العصور وخاصة في العصر الحديث. وقبل أن نتطرق لهذه الإشكالية يتعين علينا أن نورد باختصار المعنيين اللغوي المعجمي والاصطلاحي الفلسفي لكلمة (العقل) . فمن ناحية أولى يقصد بالعقلِ لغةً الربط والشد والحبس، كان العرب يقولون: عَقَلَ الرجلُ الناقةَ أي ربطها وشد وثاقها لئلا تشرد أو تهرب، ومن ناحية ثانية اتسع هذا المعنى المادي الحسي العملي ، شأن الكثير من ألفاظ اللغة العربية التي تشير في جذرها اللغوي إلى معانٍ مادية حسية ترتبط بأنشطة حياتية عملية ، لتدل على معانٍ ودلالات تتجاوز هذا الأصل اللغوي الحرفي وتتسع مجازيا بالاستعارة والكناية والرمز (الحجر /انتفاضة الحجارة ، الثعلب / الدهاء، السماء / ما هو روحاني ، الأرض / ماهو مادي ، البومة / الشؤم والخراب إلخ) وقد اتسع بهذا المفهوم نطاق كلمة العقل ، حتى توارى معناها المادي الحسي الأول فصارت تشير قصراً وحصرا إلى الملكة الذهنية الإنسانية التي تعين الإنسان على التثبت من الأمور والامتناع عن كل ما يضر أو يهلك أو التي يميز الناس بواسطتها بين الحسن والقبيح والخير والشر والحق والباطل وهلم جرا.

وثمة طائفة من المعاني التي ترتبط بالعقل والعقلانية والمعقولية تتعدد بتعدد القائلين بها من المفكرين والفلاسفة مشارب ومذاهب، وتختلف باختلاف الثقافات تقدماً وتخلفاً وتوالي الأزمنة وصيرورة المجتمعات تاريخياً وحضارياً.

وحتى يتسنى لنا الدخول إلى صلب الموضوع ، أي قضية العقل التي تمثل عصب نموذج ابن رشد الفكري، لابد لنا أولاً من فحص العلاقة بين طرفي الموضوع خاصة قضية العقل ونموذج ابن رشد الفكري وهو فحص يستند تاريخياً إلى معركة وسجال فلسفيين وفكريين ما زالت رحاهما دائرة حتى اليوم في الميدان الفكري الأكاديمي العربي /الإسلامي . ذلك أن ابن رشد يشكل فصلاً كبيراً في كتاب الفكر العربي الإسلامي على الصعيدين الفلسفي والديني. فابن رشد من حيث السيرة الذاتية هو أبو الوليد محمد ابن أحمد بن رشد (1126-1198م) ولد بالأندلس وكان فيلسوفاً وطبيباً وفقيهاً وقاضياً وفلكياً وفيزيائياً على شاكلة مفكري العصور القديمة ، لكن أهم ما ميز الرجل عن سابقيه ومجايليه ولعه الكبير بتركة أرسطو الفلسفية الضخمة فأمضى ما يربو على العقود الثلاثة من حياته في تلخيصها وشرحها (وكان العرب قد سبقوا إلى ترجمتها إلى العربية

في عصور سابقة) ومن هذه المؤلفات شرحه وتلخيصه لكتب ما وراء الطبيعة (الفلسفة الماورائية أو الميتافيزيقا) ، الأورغانون (كتاب الآلة وهو كتاب في المنطق وعلم قوانين الفكر) كتاب القياس(وهو كتاب يعالج فيه أرسطو أسس الاستدلال العقلي الصحيح) إلى غير ذلك من تلخيصات وشروح كما ورد في سيرة ابن رشد ومؤلفاته.

بحث عن إجابات لا زالت معلقة

لكن انكبابه على تركة أرسطو لم يكن ولعاً عاطفياً أو هوساً فكرياً بل كان بحثاً عن إجابات لأسئلة ظلت معلقة في فضاء الفكر العربي المشرقي حيث المركز الثقافي الأول والجذر البعيد الذي تعود إليه أفكار وتصورات المسلمين عرباً وغير عرب، مثلما ترتكز إليه حركة حياتهم في معاشهم وسياسة بلدانهم ونظرتهم للآخر وموقفهم من كل شاردة أو واردة والتزامهم الثقافي الصارم بثقافة السلف (الصالح)التي بلغت ذروتها في فكر الأشاعرة الذين رفضوا تأويل النص القرآني (باعتباره النص المركزي في الثقافة العربية الإسلامية) والتزموا بحرفيته إلى أقصى الحدود.
ولكن عندما احتك العرب بالشعوب الأخرى خلال زمن (الفتوحات) وعرفوا من ثقافات الآخر ما عرفوا من أفكار و مناهج و فلسفات أخرى أهمها الفلسفة اليونانية والحكمة الشرقية (البوذية والزرادشتية والمانوية وغيرها) فكانت الصدمة الثقافية والحضارية التي أدت فيما أدت إلى مزيد من الالتصاق الفكري القومي ذي الجذر الديني الإسلامي القوي حتى وصل الأمر بهم إلى رفع شعار يتردد صداه إلى اليوم ألا وهو «أن من تمنطق تزندق» أي أن كل من درس الفلسفة وأخذ بالمنطق فقد خرج على الشرع والملة وهو موسوم بالكفر والإلحاد .
ولعل كتب أبي حامد الغزالي (1058-1111 م) الفقهية والفكرية مثل (إحياء علوم الدين و المنقذ من الضلال وتهافت الفلاسفة) تلخص بشكل لا لبس فيه هذا الموقف المناهض للفلسفة والمنطق إلى يومنا هذا إعلاءً لثقافة (النقل) عن السلف(الصالح) وهو الموقف الذي لا زالت (الأصولية الإسلامية) تعود إليه لتبني عليه وتؤصله سواء في ميدان الفكر أو الممارسة التي بلغت منتهاها الراهن في صور الإرهاب المسلح وتكفير الحاكم والمجتمع بدءاً بجماعات التكفير والهجرة في مصر بالسبعينيات مروراً بتنظيم القاعدة وجبهة الإنقاذ في الجزائر في الثمانينات والتسعينيات وانتهاءً بجماعة بوكو حرام في نيجيريا و تنظيم داعش ابن العقد الثاني من الألفية الثانية علاوة على ما ظهر على الصعيد الشيعي من تنظيمات وفرق متطرفة وإرهابية خاصة في العراق وسوريا ولبنان.
ومن هنا تبدو الأهمية القصوى في إعادة طرح قضية العقل ونموذج ابن رشد الفكري.
والحقيقة أنه كلما ذُكر العقل في سجال متعلق بالثقافة العربية والإسلامية برز على السطح للتو اسم ابن رشد رغم البون الزمني الذي يفصلنا عنه (قرابة الألف عام) لكنه مع ذلك يظل هو ومن نهجوا نهجه بعد زمن طويل نماذج فكرية فارقة نادرة ومعالم طريق مضيئة موحية ترمز إلى السُبل الواجب طرقها إن أردنا أن يكون لأمتنا العربية موضع قدم على خارطة عالم ما بعد داعش، أمتنا العربية التي تتناوشها اليوم حراب الطاعنين من كل حدب وصوب وخاصة الأصوليين في الداخل ممن صنعتهم ثقافة النقل في كل عصر وساعدتهم ظروف السياسة

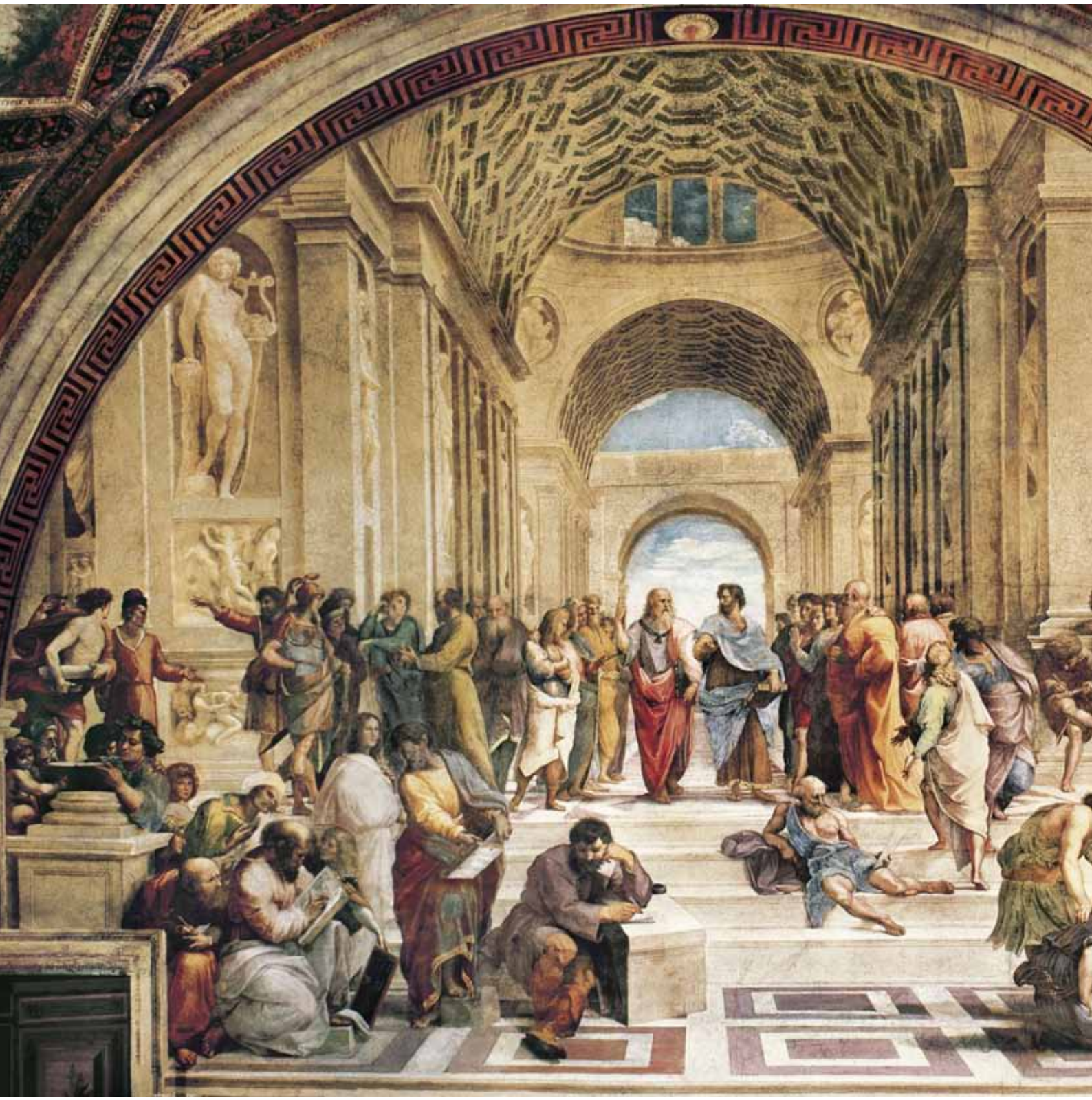

والاقتصاد العربيين في عصر العولمة على ذلك.

إذن هي معركة حياة أو موت بين موقفين من الحياة وسجال مصيري بين اتجاهين أحدهما رجعي جمودي اتباعي نقلي وآخر تقدمي ديناميكي إبداعي عقلي، ودائما ما يقفز اسم ابن رشد ليسبق كل الأسماء التي تلته والمفكرين الأحرار الذين نهجوا نهجه ولاقوا نفس مصيره من نبذ وتشهير وتخوين وتكفير ومن بينهم طه حسين و نجيب محفوظ و فرج فودة.

وبخصوص قضية العقل وابن رشد كنموذج يجسدها نعتقد أنه -و بعد كبير تهيؤ ووافر استعداد ثقافيين على صعيد الدراسة الدينية والتبحر في علوم اللغة والفقه والتفسير- رأى بمنظار ثقافته الفلسفية الواسعة وبآلية المنطق الأرسطي البرهاني المركزة أن الحق واحد لا يتجزأ ولا يتناقض فأخذ يطبق المنطق الأرسطي البرهاني على كل قضايا الدين وكل أطروحات الفقه معملاً العقل في كل استدلال .

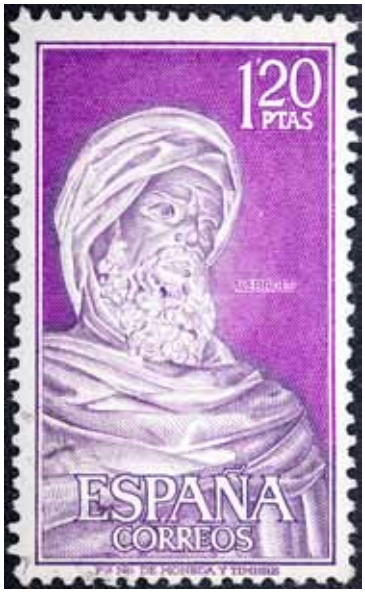

التأويل مقولةً محورية

وفي هذا السياق يقول الدكتور مراد وهبة ثمة مقولة محورية في فلسفة ابن رشد هي مقولة «التأويل» وهو يعّرفها بأنها «إخراجُ دلالةِ اللفظِ من الدلالة الحقيقيةِ إلى الدلالة المجازية «(1) . وهو يقول ذلك في شأن العلاقة بين الشريعة والبرهان العقلي . يقول : فإن أدى «النظر البرهاني» أي النظر الفلسفي العقلي المنطقي إلى نحوٍ ما من المعرفةِ بموجودٍ ما -و الموجود هنا يعني أي موضوع أو قضية أو ظاهرة- فلا يخلو ذلك الموجودُ أن يكونَ قد سكتَ عنه الشرعُ أو نطقَ به.

فإن كان مما سُكِتَ عنه فلا تعارضَ هناك وهو بمنزلةِ ما سُكِتَ عنه من الأحكام فاستنبطها الفقيهُ بالقياس الشرعي . وإن كانت الشريعة نَطَقَتْ به فلا يخلو ظاهرُ النطقِ أن يكون موافقاً لما أدى إليه البرهان (يقصد إعمال العقل بآلية المنطق الأرسطي) فيه أو مخالفاً فإن كان موافقاً فلا قول هناك (أي لا اعتراض ولاتناقض)، وإن كان مخالفاً طلب هناك تأويله. أي أن ما لا يقبله العقل من أحكام وتفاسير الناقلين الحرفيين من السلفيين وأمثالهم يوجب على الباحثين إعادة النظر فيه بحيث يتوافق في النهاية مع منطق العقل وآليات البرهنة.

ومن المعروف أن التأويل عند ابن رشد هو شأن شؤون «الراسخين في العلم وليس من شأن الجمهور « وإذا كان الأساس في النقل السلفي هو الإجماع فإن التأويل «يخرق الإجماع؛إذ لا يتصور فيه إجماع ولهذا يمتنع تكفير المؤوِل» ولهذا فقد أخطأ الغزالي عندما كفّر الفلاسفة من أهل الإسلام مثل الفارابي وابن سينا في كتابه «تهافت الفلاسفة».

وفي سياق متصل يتساءل مراد وهبة : ماذا يعني تكفير الفلاسفة؟» ويجيب الرجل: «يعني أن الذي يكفّرُ هو الذي يتوهم أنه مالك للحقيقة المطلقة. وهذا الوهم هو الذي يحد من سلطان العقل وقد أراد ابن رشد إزالة هذا الوهم بحيث لايبقى سوى سلطان العقل وهذا هو جوهر التنوير ومن هنا يمكن القول بأن ما حدث لابن رشد من إحراق كتبه ومحاكمته ونفيه مردود إلى دعوته إلى التأويل على نحو ما ارتآه وإثر نفيه صدر المنشور التالي لمنع الفلسفة وكتبها وتحذير الناس منها وهذا جزء من المنشور :

«قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهـام، وأقر لهم عوامهم بشفوف عليهم في الأفهام حيث لا داعي يدعو إلى الحي القيوم، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم. فخلّدوا في العالم صحفا ما لها من خلاق، مُسْوَدّة المعاني والأوراق، بُعدها من الشريعة بعد المشرقين وتباينها تباين الثَّقَلَيْن يؤمنون أن العقلَ ميزانُها والحقَ برهانُها. وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقا ويسيرون فيها شواكل وطرفا ذلك بأن الله خلقهم للنار «(2).

خلاصة القول أن ابن رشد بمحاولته التوفيق بين العقل والنقل، بين الفلسفة والدين، بين المنقول والمعقول كما في كتابه الأشهر «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال» أو في نقده لكتاب الغزالي «تهافت الفلاسفة» بكتاب لاذع العنوان «تهافت التهافت» إنما اقتحم منذ ألف سنة تقريبا أكثر المناطق في الموروث حساسية وشائكية وتلغيماً فأي جسارة ونزاهة عقليين يحسد عليهما ابن رشد وأي عار لحق بالمؤسستين السياسية والدينية في عصره ستظلا موصومتين به ما دام العقل وبقي التنوير ■

*رئيس قسم الأدب الانجليزي ، جامعة الإمارات

هوامش:

1 - (أنظر د.مراد وهبة ،ملاك الحقيقة المطلقة ، مكتبة الأسرة ،1999، ص108).

2 - (أنظر د.مراد وهبة ،ملاك الحقيقة المطلقة ، مكتبة الأسرة ،1999، ص109).

المقص، القعدة، النواقس

د.سعيد يقطين *

إذا كانت الآلات الموسيقية الشعبية الأساسية متصلة بالبيئة الفلاحية الطبيعية من جلود وقرون وطين وقصب، نجد من بين هذه الآلات أيضا ما يستخدم لأغراض خاصة في الحياة اليومية. وبما أن طبيعتها تمكِّن من استخدامها إيقاعيا، صارت جزءا من الأدوات الموسيقية. وبما أن الظروف الذي توظف فيها تلك الأدوات تستدعي الغناء الجماعي، كانت وراء إدراجها ضمن الآلات الموسيقية تحويلا لوظيفتها الأساسية لتصبح جزءا منها. ويمكن أن نعطي لذلك من صينية الشاي. فالساقي «المولوع» بالغناء والموسيقى، يحول وظيفتها وهو يتابع إحدى الوجبات الموسيقية، من إعداد الشاي للمجلس، إلى الإسهام في ضبط الإيقاع من خلال النقر بكأسين على الصينية، فيكون ذلك انخراطا في الجو الغنائي والموسيقي الخاص، تماما كما يفعل الجلوس وهم يمارسون التصفيق، بالأكف، أو الرقص بالأرجل.

نقصد بهذه الأدوات «المقص» أولا. يعتبر المقص الأداة الرئيسية في أغاني «عبيدات الرمى»، فهو كبير الحجم، أسود اللون، ومصنوع من الحديد. كانت الوظيفة الأساسية للمقص هي جز صوف الغنم في فصل الربيع. وكي لا تصيب رؤوس المقص حين تكون مدببة جلد الغنم، تم قطع الرأسين الحادين، مشكلين خطا مستقيما. هذا المقص تم تحويله إلى أداة للغناء، باستخدامه في يد وفي الأخرى قطعة حديدية دقيقة للضرب عليه. هكذا يقدم المقص نغمتين اثنتين، تتحقق أولاهما بضم عروتي المقص، والثانية بالضرب عليه بواسطة القطعة الحديدية.

يمكن اعتبار المقص من الأدوات الأولية لارتباطه بالعمل. وفي المجتمعات البدائية والتقليدية ظل العمل مرتبطا ارتباطا وثيقا بالغناء والموسيقى. ما يزال المقص مستخدما في بعض البيئات المغربية، ولا سيما في زعير والغرب. ولقد كان جزءا من الغناء في مختلف مناطق المغرب إلى عهد قريب. ويسمى من يعزف به «المقَّاص»، والجمع «المقاصة». أما الأداة الثانية فهي «القعدة». تعني القعدة في الاستعمال المغربي الإناء الدائري الذي تغسل فيه الملابس. صارت القعدة تصنع الآن من البلاستيك. لكنها قبل ذلك كانت تستخدم من الحديد. وفي الأصل، ومن هنا جاءت كلمة «القعدة»، كانت عبارة عن حجارة صلبة تكون قرب إحدى العيون أو الآبار، يجلب الماء إليها حيث توضع الملابس المتسخة ولا سيما الغليظة منها، مثل جلاليب الصوف، ويقف رجلان على تلك الملابس، ويبدآن في «الشتف» عليها بطريقة إيقاعية حيث تبدأ «الشتفة» الأولى بالرجل من اليمين إلى الخلف، ثم من الخلف إلى الأمام. ويأتي دور الثاني ليقوم بالدور نفسه على ما يقع تحت رجله من الثياب، ويكون شخص ثالث يرمي الماء بين الفينة والأخرى على الثياب. يتناوب الرجلان على ضرب الثياب برجليهما، وينجم عن ذلك إيقاع يوازيه غناء، ويتفنن كل واحد منهما في تعداد آماله وأحلامه. هذه القعدة الحديدية صارت فضاء للرقص، بحيث تقلب على ظهرها، وفي أي مجلس غنائي، يتم استدعاؤها لتحتل موقعا وسط الدائرة، ويتناوب المتدخلون للرقص عليها مصاحبين إيقاع الوجبات الموسيقية المختلفة. بل صاروا يزودونها بمسمِّع كهربائي ينقل صوت إيقاع الأرجل عليها بكيفية تثير الإعجاب والفضول. ثالث هذه الأدوات وهي النواقيس «النواقس»، وهما ثلاث قطع من النحاس تركب قطعتان منهما على السبابة والإبهام في يد، وثالثة على الوسطى أو سبابة اليد الأخرى. ويمكن اعتبارهما تطويرا للمقص لأنهما تقومان بالدور نفسه، فالقطعتان في يد تحدثان إيقاعا، وتكوِّن القطعة الأخرى إيقاعا ثانيا. هذه الأدوات تتصل جميعا بضبط الإيقاع، وتستعمل كلها حسب النوبات الموسيقية. فالنواقيس كانت تستخدمها النساء غالبا، وخصوصا الشيخات. أما المقص فخالص للرجال، وقد توظفه النساء أيضا، ونفس الشيء بالنسبة للقعدة. نتأكد من خلال هذا أن الأدوات الموسيقية الشعبية كلها وليدة البيئة الفلاحية ■

* ناقد من المغرب

لماذا يجب قراءة التراث الفلسفي العربي؟

سعيد بوكرامي *

يقدم علي بن مخلوف في كتابه الجديد الصادر عن دار البان ميشيل 2015 «لماذا قراءة الفلاسفة العرب؟» بحثًا وافيًا عن الموروث الفلسفي العربي، فهو لا يعتبر بحثه منحصرًا في تاريخ الفكر الديني وإنما على العكس تمامًا، فهو محاولة اكتشاف ما يربط الفكر العربي منذ بدايته حتى يومنا الحاضر. مؤكدا على حقيقة لا مناص منها، فمن خلال هؤلاء الفلاسفة العرب تعرف الغرب على الفلسفة والمنهج العلمي وانطلاقًا من ترجمة مؤلفاتهم إلى اللاتينية (ابن سينا،الكندي، ابن رشد، ابن باجة، وغيرهم) انبثقت لدى الغرب نهضتهم وأنوارهم. ثم مرر تراثهم الفلسفي بطريقة مجهولة، ومن هنا يحاول الباحث علي بن مخلوف الكشف عن هوية هؤلاء الرواد من خلال إعادة قراءة تراث الفلاسفة العرب مع الأخذ بعين الاعتبار القوة الحقيقية للفلاسفة الباحثين عن الحقيقة خلال العصور الوسطى، في الأراضي الإسلامية، هذا الالتزام الفلسفي هو ما جعل الفكر المعاصر يزدهر بقوة. كما اعتبر الباحث قراءة هؤلاء الفلاسفة نهوضًا بالوعي منذ جذوره. مذكرًا أن النخب الفكرية التي انتسبت إلى العقل دفعت ثمنًا غاليًا مقابل ذلك، معلنًا منذ الصفحات الأولى أن الفلسفة العربية احتكمت إلى المنطق الأرسطي من بغداد وقرطبة.

يميل علي بن مخلوف إلى السماح للفلاسفة العرب بأن يتحدثوا عن أنفسهم، وبالتالي يتجنب السياقات العامة، وإظهار ما تركوه باعتباره إرثًا للفلسفة عامة. هم ليسوا ورثة فحسب، وإنما هم السؤال العقلي المتوالي للفكر الإنساني؛ بما ترجموه من التراث اليوناني، ولا يهم إن كانوا قد أحسنوا ترجمته أم لا. ولكن ما يهم هو الفكر الذي تفتق عن هذا اللقاء العربي اليوناني وما نشأ عنه من استمرارية للسؤال الفكري الآخذ طريقه صوب المستقبل.

ابن رشد

نسخة من كتاب الشفاء لابن سينا

الفلسفة العربية والأحكام المسبقة

إذا كانت الفلسفة العربية قد اصطدمت بسلسلة من الأحكام المسبقة، فإن من يتحمل المسؤولية إلى حد كبير هو أرنست رينان الذي خلق بوضعيته تفسيرات خاطئة، فكانت لها عواقب وخيمة، خاصة تبخيسه لمساهمات الفلاسفة العرب إلى مساءلات فلسفية. لهذا يستعيد علي بن مخلوف مساهمة الفلاسفة العرب المهمة على ضوء المنطق المعاصر معتمدًا على أعمال فريج أو فيتجنشتاين، على سبيل المثال، مستعيدًا أصول الفلسفة العربية التي ظلت منفتحة على الآخر ومراهنة على اللقاء الفكري موضحًا ذلك بما جاء به الفيلسوف ابن باجة في كتابه «رسالة الوداع» الذي يصنف اللقاءات بدءًا باللقاءات الفجائية إلى اللقاءات المتعاضدة مرورًا باللقاءات المرغوبة التي نعقدها مع الحيوانات. ثم هناك اللقاء الإلهي لتلقي أو إعطاء العلم وهو «أنبل من اللقاءات»؛ لقاء مع مستقبل يتجاوز صرامة الإطار البشري، اللقاء هو إرث يصبح تراثًا بدوره، وهذا اللقاء الذي فشل فيه أرنست رينان.

ومن بين هذه الأحكام المسبقة، أولًا هناك الاعتقاد الخاطئ لوضع العصر الوسيط في منطقة الظل، وهي أفكار لا تزال تقوض أعمالًا جليلة.

الاعتقاد الخاطئ الآخر هو الاعتقاد بأن الفلاسفة كانوا مستقبلين سلبيين لنصوص أرسطو. لكن اللقاء مع هذه الأعمال أدى إلى خلق فلسفة الشرح. وكانت شروحات أرسطو «وسيلة لـ»تحفيز العقل»، بمعنى آخر كانت نصوص أرسطو حافزًا لممارسة رياضة عقلية وفرصة للتفكير بين الفلاسفة العرب، وليس اختزالًا لإرث بسيط. لقد ساهم هؤلاء في تطوير المنطق، لذلك لا يمكننا أن نتغاضى عن عمل الفارابي، الذي ساهم بتعليقاته على جمهورية أفلاطون بتفعيل خطاب عقلي وحركة فكرية بين الفلاسفة العرب جوهرها هو اللغة والمنطق كوسيلة لاكتشاف المشاكل الفلسفية. مثلًا الطريقة البرهانية، التي اختاروها لفلسفتهم تعتبر المعارف الشرعية مكملة للمعارف العقلية، وأن الوحي متمم للعقل.

إذا أدركنا تأثير القديس توما الإكويني على منطق فريج وغيره، «فماذا عن الفلاسفة العرب في العصر الوسيط مثل الفارابي وابن سينا وابن رشد، وجميعهم كتبوا عن المنطق الذي قرأه توما الإكويني بدقة متناهية؟» يقول علي بن مخلوف. وبالتالي فإن العلاقة بين الفلسفة العربية واللغة يبرر عنوان هذا الكتاب.

الفلسفة العربية أم الإسلامية؟

الفلسفة كتبت بالعربية، ولكن إزالة مصطلح إسلامي هو رغبة في إظهار أن هذه الفلسفة لا تقتصر على القضايا الدينية. وهذه إجابة لكريستيا جامبي الذي لا ينظر إلى الفلسفة العربية إلا كونها فلسفة إسلامية. وإذًا، فإن الإسلام، هو دين يسعى إلى أن يكون الشرط الأساسي لهذه الفلسفة. اللغة أيضًا هي المواجهة منذ البداية مع غموض الكلمات. هذا الغموض ما يسعى علي بن مخلوف لإزالته بطريقة علمية.

ويحدد أنه في الواقع، ووفقًا للتقاليد، فإن الناس العاديين لا يحتاجون لأن نكشف لهم كل شيء، لكي لا نفسد لهم إيمانهم، لكن في المقابل ليس هناك فلسفة من دون توضيح الكلمات. الجذر، «ILM» باللغة العربية، والتي تفضي إلى الإسلام تعني «المعرفة». وبالتالي، فإن العلم والإيمان ليس لهما أسس صلبة! هذا أيضًا حكم قيمة آخر وهو ربما الأكثر عنادًا. وهو أيضًا سبب آخر لعنوان الكتاب: «الفلاسفة العرب» وليس الإسلاميين، كي يتم تجنب الهوس الديني المثار حولهم. يحاول إذن علي بن مخلوف أن يصحح وجهات النظر التي لا تحافظ لا على الأخطاء فقط، ولكن أيضًا على الصراع والعنف.

وبخصوص الحقيقة، فمرة أخرى هناك

يقدم علي بن مخلوف في كتابه الجديد الصادر عن دار البان ميشيل 2015 «لماذا قراءة الفلاسفة العرب؟» بحثًا وافيًا عن الموروث الفلسفي العربي، فهو لا يعتبر بحثه منحصرًا في تاريخ الفكر الديني وإنما على العكس تمامًا، فهو محاولة اكتشاف ما يربط الفكر العربي منذ بدايته حتى يومنا الحاضر. مؤكدا على حقيقة لا مناص منها، فمن خلال هؤلاء الفلاسفة العرب تعرف الغرب على الفلسفة والمنهج العلمي وانطلاقًا من ترجمة مؤلفاتهم إلى اللاتينية (ابن سينا،الكندي، ابن رشد، ابن باجة، وغيرهم) انبثقت لدى الغرب نهضتهم وأنوارهم.

العديد من الإلتباسات التي يسعى الفلاسفة العرب لتصحيحها. ولا مفر من المرور بثلاث طرق إذا ما قرأنا الكندي أو ابن رشد. الصورة في خدمة البلاغة والإقناع، لا يمكن الادعاء أنها تصل إلى الحقيقة إذا وضحنا حدا للبرهان. قد تصبح البلاغة مجرد سفسطة. أما إذا تمسكت بمبادئها فإنها تغدو مصدرًا للحقيقة. كما سيكتب باسكال بعد بضعة قـرون عن العقل الهندسي، البرهان هو بالتأكيد واحـد من دروب الحقيقة، ولكنه يعتمد على ما يتعذر إثباته الأمر الذي يقلل من هيبتها. أما الطريق الثالث، فهو الجدال. وبالتالي هناك مسارات متعددة للوصول إلى الحقيقة والصورة هي أبعد ما تكون عن الرفض تمامًا كصورة بلاغية، وهي واحدة من السبل الممكنة للوصول إلى الحقيقة.

الحقيقة المزدوجة

بالنسبة لعلي بن مخلوف القرن العشرين انحرف عن معنى الحقيقة عند الفلاسفة العرب. ليس هناك حقيقتا الإيمان والعقل فحسب، فالحقيقة ليست جمعًا. لأن السبل المؤدية إليها متعددة.

في 1277، أدان الأسقف بيير اتيان تومبيي أطروحة «الحقيقة المزدوجة» التي سينسب إليها الرشديون مثل سيجر برابانت. بالنسبة لابن رشد لا يمكن أن تكون هناك «حقيقة مزدوجة». وهو يدعم فرضية أن الحقيقة لا يمكن أن تتعارض مع أخـرى. ما يهمه هو التوفيق بين القانون والفكر. من جانبه الفارابي، عند تناوله مسألة العلاقة بين الدين والفلسفة، يتجنب العودة إلى التاريخ، أي لا يريد الرجوع إلى الوقائع، التي يندرج ضمنها هذا المفهوم. «تكمن عبقرية الفارابي في معالجة هذه القضايا بمنهجية عبقرية» يقول علي بن مخلوف. ثم يضيف: «يعطي للصيغ القطعية لتأكيد الأطروحات صيغًا افتراضية أو افتراضية استنباطية التي تحلل الظروف اللازمة من الظروف الممكنة». وبالتالي فإن أسبقية الدين الذي ظهر في البلاد الإسلامية على الفلسفة اليونانية هي حقيقة عارضة. إذا كان البعض يستغل الفرصة لمعارضة الفلسفة بالدين، قائلًا إنها تتعارض فيما بينها، فهذا الاعتقاد الخاطئ ما يجب أن نعترض عليه وليس الدين. لأن الدين يمنح لنا ليس كمجموعة من القواعد، ولكن كعلم للكونيات يحدد مكان الإنسان في العالم. كما أنه يمركز الإنسان ويؤسس أنثروبولوجيا تساعد السياسيين، كي يبرروا مكان الإنسان في المدينة. وبالتالي فإن طريقة الفارابي تنطلق من الخطاب الديني لتصل إلى الخطاب البرهاني.

كتاب علي بن مخلوف مرآة فكرية ساطعة، لاستعادة الفلسفة العربية ومجدها التنويري وإبراز ما لحقها من تحريف وتبخيس أساء كثيرًا إلى موروثها وأصولها. هذا التحريف الذي جاء أساسًا من الحضارة الغربية التي استفادت من الفلسفة العربية استفادة كبيرة، ثم أقصت إسهاماتها المشرقة وعددت عيوبها وأخطاءها وكأن الحقيقة الفلسفية ثابتة لا تتغير قيد أنملة

تفسيرات خاطئة

يعترف علي بن مخلوف بأن الفلسفة العربية وقعت في تفسيرات خاطئة، لكنها حملت في بعض الأحيان معنى جديدًا. ومن الأمثلة على ذلك سوء الفهم المثمر لابن رشد في الشرح الوسيط على شعرية أرسطو، عندما خلط بين التراجيديا والكوميديا. «لكنه قرأ النص عن قرب، ووقع في تفسير خاطئ، قريب من المعنى، وضد المعنى»، يقول علي بن مخلوف. «هذا الاستيعاب في حد ذاته يبين كيف أن الشرح مبدع للفلسفة ولا يكتفي بمحاكاة العصور القديمة بخنوع». وقد دفعت ابن رشد إلى إنتاج فكر متكامل مبني أساسًا على مسائل غاية في الأهمية وتشكل جوهر مؤلفاته ويمكن اختزالها في ما يلي: مسألة شرح فلسفة أرسطو/ مسألة فهم القرآن، وتأويله/ مسألة العلاقة بين الدين والفلسفة. هذا الممر الفكري خلق دينامية فكرية ممتدة ليس في الأندلس وحدها بل انتقلت مع حرص تلاميذ ابن رشد من العرب واليهود إلى نشر إشعاعه الفكري إلى أوروبا التي استفادت من الإرث الفلسفي الرشدي أكثر من أي منطقة عربية أخرى.

وضع الإستعارة

يتأمل علي بن مخلوف في فصل آخر وضع الاستعارة، والذي يختم الفصل المخصص للبحث عن الحقيقة، يتناول فيه مسألة الصورة التي يعتبرها البعد الإبداعي للخيال. لا يمكن اختزال الصور الاستعارية في بعدها العاطفي، كما قال أرسطو. كما أن ابن رشد والفارابي جعلا الاستعارة «قياسًا وشرطًا خياليًا» وهذا ما وصفه فريجه بأنه «الخطاب المنحرف». في البداية يكون المجاز، مفاجأة، ولكنه يندمج بكثرة استخدامه في المعنى واللغة. إن الصورة،

البيروني

ببساطة تنتمي إلى الفكر واللغة العربية.
لماذا كتابة تاريخ هؤلاء الفلاسفة وهذه الخيارات السياسية؟ لأنه لا توجد غايات بريئة: القدر لم يكتب بعد. ما الذي يدعونا اليوم للحديث عن صدام الحضارات؟ إن لم يكن سوء النية أو التلاعبات بالقيم الدينية وتحريفها عن مقاصدها الشرعية؟ ويوجه علي بن مخلوف إصبع الاتهام إلى السلطة السياسية وتسوياتها للحالات الطارئة، وطغيان البرغماتية والايديولوجيا على الفكر المستنير مما يقضي إلى تكلس العلاقات وتشنجها ... هناك وفي كل مكان «المطالب نفسها بضرورة القبض على ما هو لا مرئي»، وهذا يؤدي إلى الضلال. ولكي نخرج من عالم التناقضات، لا مناص من الحوار. وهذا سبب أكبر يحتم علينا أن نتخلى عن الثناء على هذا الخطاب أو هذه اللغة ولوم أخرى ومحاولة تبخيسها وتحريفها وإظهار الجانب الشوفيني فيها. لا بد من الاعتراف بأن الفكر الإنساني ومنتجه الحضاري جميعه يعود إلى مصدر وأصل واحد. إنه المشترك من الخيال الإنساني، كما شكلته الأحكام نفسها وللغايات عينها: هذا يعني أن المفاهيم

علي بن مخلوف

والأفكار والصور والتأويلات هي من إنتاج العقل نفسه.
كتاب علي بن مخلوف مرآة فكرية ساطعة، لاستعادة الفلسفة العربية ومجدها التنويري وإبراز ما لحقها من تحريف وتبخيس أساء كثيرًا إلى موروثها وأصولها. هذا التحريف الذي جاء أساسًا من الحضارة الغربية التي استفادت من الفلسفة العربية استفادة كبيرة، ثم أقصت إسهاماتها المشرقة وعددت عيوبها وأخطاءها وكأن الحقيقة الفلسفية ثابتة لا تتغير قيد أنملة.

للتذكير؛ علي بن مخلوف أستاذ الفلسفة في جامعة باريس شرق- كريتي وعضو اللجنة الاستشارية الوطنية للأخلاقيات. متخصص في الفلسفة العربية والمنطق، وملتزم بالقضايا الاجتماعية. وهو مؤلف لعدد من الأعمال، نذكر منها: « الفارابي. بغداد في القرن العاشر (عن دار النشر سوي، 2008)، وكتاب عن مونتين) 2008(، والهوية، خرافة فلسفية (2011) ■

*** كاتب ومترجم من المغرب**

ثقافة مجتمعية أم ثقافات؟

عائشة الدرمكي*

في مقال كتبه (ت . س . إليوت) يحمل عنوان (المعاني الثلاثة لكلمة ثقافة)، استعرض المعاني التي تعرَّف بها الثقافة من حيث كونها مرتبطة بنمو الفرد ونمو فئة أو طبقة من طبقات المجتمع، فهو يبدأ من الأساس الذي يشكل الثقافة، ولهذا «فإن معنى الثقافة بالنسبة للمجتمع كله هو المعنى الذي يجب بحثه أولا» كما يقول إليوت.

وبناء على هذا التصور فإننا عندما نريد أن نحدد ثقافة أي مجتمع فإننا ننظر إلى بنية ذلك المجتمع أولًا وإلى مكوناته وأبعاده المعرفية التي تطورت ونمت عبر حقبه المتعددة، غير أن السؤال الذي يلح علينا هنا هو: إذا كانت المجتمعات تنمو وتتطور وأن ثقافة تلك المجتمعات في الأصل ثقافة تراكمية سيما في عصر الانفتاح هذا فما الذي يدفعنا إلى تصنيف الثقافة باعتبارات عدة من قبيل (الثقافة الشعبية والثقافة النخبوية)؟

إننا بهذا نجعل من ثقافة المجتمع ثقافات متعددة قد لا يكون لها أساس إذا عدنا إلى مرجعية (المجتمع) وأساس (النمو التراكمي)، ذلك لأن المجتمع يُبنى على أسس متنوعة من حيث المعطيات التاريخية والحضارية، وينمو ويتطور بناء على متغيرات ذات أبعاد ثقافية متسارعة ومعقدة تنتج خلالها مجموعة من الأشكال والأنواع الثقافية التي يمكن أن نطلق عليها (النوع الهجين من الثقافة)، ولهذا فإننا إذا أردنا أن نقول (الثقافة المجتمعية) فإننا بهذا ندرك تمامًا أنها ثقافة قائمة على التنوع من ناحية والتراكم من ناحية أخرى.

ولهذا فإننا يمكن أن نقول مع (ستورات هول) فيما أسماه (الثقافة الموحدة) التي تقابل (الثقافة الهجين) أنها «عبارة عن قصص نجاح»، وهذه القصص تعبر عن صمود الثقافة (الموحدة) أمام التغيرات والتداخل و(التهجين) وهي بالتالي التي تصنع (الهوية الوطنية) من وجهة نظره، إلا أنه سيعود لاحقًا للقول أن الهويات «أصبحت كالخدمة الذاتية، فأنت هو ما اخترت أن تتناوله)ـ على حد تعبير ستوراتـ وبالتالي فإن الهوية الوطنية لا تقوم على الثقافة الموحدة باعتبارها صافية وإلا فإننا نحكم على هذا المجتمع بأنه منعزل ومنغلق على نفسه وبالتالي فإنه بطيئ التطور أو معدوم، والحال أنه ما من مجتمع إلا وتطور بفعل الانفتاح على الآخر وهو انفتاح قائم على الأخذ والعطاء، وشكل الهجين واحد من الأشكال التي ينتجها هذا الانفتاح، والحق أن التهجين الثقافي من الظواهر الإيجابية للانفتاح لأنه نتيجة تفاعل ثقافي واع مع الثقافات الأخرى التي يستقبلها المجتمع وينفعل معها لإنتاج شكل يمكن أن نقول أنه (توفيقي) بين الشكل الوطني والقادم.

وهذا الشكل من الثقافة محكوم بقدرة المجتمعات على التفاعل والانصهار مع الشكل المستقبل من الثقافات الأخرى، وهذا الاستقبال ليس حكرًا على المجتمعات الضعيفة وحسب كما يظن البعض بل إن المجتمعات الموصوفة بالسلطة والاستعمار لا تخرج من المجتمعات التي استعمرتها إلا وقد حملت معها مجموعة متنوعة من الأشكال والأنواع الثقافية التي ستتفاعل معها وتنتج منها ثقافة هجين خاصة بها.

وهكذا نجد أن الثقافة المجتمعية لا تنتج خارج سياق هذا التفاعل وقد نبالغ إذا زعمنا أن هناك مجتمعاً صافياً يحمل ثقافة (وطنية)، ذلك لأن الثقافة الوطنية في الأصل قائمة على تطور معرفي للإنسان الذي يصنعها ويشكلها وهذا التطور المعرفي لا يقوم سوى بالانفتاح على الآخر الذي سيشكل لاحقًا الهوية المجتمعية لهذا المجتمع أو ذاك، وهي هوية ستشكل ما يميزها عن المجتمع الآخر الذي انفتحت عليه لأن المجتمع يعالج ويطور ويغير ويمزج ويماهي ما يأخذه من المجتمعات الآخرى بما يتناسب وقيمه وأخلاقه ودينه وغيرها من الأسس الحضارية والفكرية التي تقوم عليها المجتمعات، وبالتالي فإنه ينتج ذلك (النوع الهجين) الذي لن يوجد في أي مجتمع آخر إلا إن كان

يساويه في الأسس والسياقات المعرفية.

ومن هنا فإن الأنساق المعرفية التي تقوم عليها الثقافة في الأصل قائمة على مجموعة (العادات والتقاليد والمعارف الأدبية الشفوية والتاريخ ...) وغيرها من الأنساق التي يتأسس بها أي مجتمع ثم تتطور تلك الأنساق إلى أخرى نتيجة للتفاعل المجتمعي الداخلي أو الخارجي، ولهذا فإن السؤال الذي يطرأ هنا مرة أخرى أنه إذا كان الحال كذلك من التطور والنمو المعرفي للمجتمع الواحد بالنظر إليه بوصفه بنية معرفية فلماذا نصنف الثقافات مرة أخرى إلى شعبي ونخبوي وبالتالي نقسم المجتمع إلى قسمين ذوي اتجاهين متوازيين؟

وإذا سلمنا بأن كل مجتمع له ثقافتان فإننا بهذا لا يمكن أن نتحدث عن ثقافة وطنية لأنها في الأصل قائمة على مبدأ الوحدة، ويمكن أن نأخذ ما يقدمه (دوركهايم) في أبحاثه حول ما يصنفه تحت (الثقافة الذاتية والثقافة الموضوعية)، فإن ما يدعوه بـ (الثقافة الذاتية) وهو المعارف والصفات والقدرات الفردية الخاصة، و(الثقافة الموضوعية) وهي تلك الموسوعة الثقافية المتراكمة التي ورثت عن المجتمع بحيث وِضعت تحت تصرف الأفراد، فإن (دور كهايم) يقول بأن «الأفراد الذين يزيدون في اختصاصهم يصيرون أقل اقتدارًا على امتلاك التراث الثقافي المتنامي».

وإذا أخذنا بالاعتبار ما قدمه (دور كهايم) هنا فإننا نقول نعم سيكون الفرد أقل اقتدارا على امتلاك التراث الثقافي لمجتمعه كلما أخذ في التخصص والانفتاح إلا أنه لن يخرج من ذلك التأسيس المعرفي الأصيل الذي تأسس عليه منذ نشأته الأولى في المجتمع فهو ذو عقلية وفكر له أبعاده المعرفية والثقافية التي لن يخرج عن سماتها العامة ومحدداتها المعرفية ولن يستطيع الخروج من ربقتها إلا ظاهرًا أو على المستوى الخاص، وهذا يعني أن المجتمع لن ينقسم إلى (ثقافة شعبية)، و(ثقافة نخبوية) إلا على المستوى الظاهر فقط فكبار الكُتَّاب في العالم جمعوا حكايات مجتمعهم وعاداته المعرفية قبل أن يشتغلوا على صياغة نصوص روائية أو قصصية أو شعرية خاصة بهم، لأن ما يقومون به هو تنام معرفي وتطور على مستوى الفكر ومستوى النص لإخراج أنواع ثقافية جديدة تحت مظلة الثقافة الوطنية أو القومية، وبالتالي فإننا نتحدث عن ثقافة مجتمع بلا تصنيف أو تحديد بين عليا أو دنيا لأن العليا لا تقف في الفراغ وإنما تقف على أساس قوي تمثله الثقافة الأم التي نشأت وتطورت حتى ظهر لنا الشكل الحالي للثقافة ■

*باحثة في السيمياء، عمان

مصر في الأساطير العربية

قراءة أنثربولوجية

د. هويدا صالح

إن العلاقة بين التاريخ والموروث الشعبي ودور كل منهما في تفسير الظواهر التاريخية وفهمها، وصورة مصر في الأساطير العربية، وكيف نظر إليها المؤرخون هو ما يطرحه كتاب «مصر في الأساطير العربية، دراسة في كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين» للباحث عمرو عبد العزيز منير الذي صدر مؤخرًا عن المجلس المصري الأعلى للثقافة. اتسمت لغة الكتاب بالسردية الفنية التي تجذب القارئ وتجعله مقبلًا على قراءة عمل يبحث في تلك المساحات الملتبسة بين الأدب الشفهي والأساطير في مقابل التاريخ كوثيقة رسمية مدونة، وربما هذا ما نحن بحاجة إليه من إعادة النظر في هذا الموروث من الأدب الشفهي والأساطير لنكمل فراغات التاريخ والمسكوت عنه فيه، انطلاقًا من مقولة أن التاريخ يكتبه المنتصرون، وأن تاريخنا القديم والحديث هو تاريخ الحكام والملوك فقط، لكن تاريخ الشعوب الحقيقي نستطيع أن نكتب ونملأ فراغاته من الأساطير.

علينا أن ندرس الأساطير وغيرها بروح الباحث النزيه المريد للحقيقة، القادر على التدبّر واكتشاف ما بين السطور، ولن يكون ذلك للباحث إلا بعد أن يؤمن أولا بفكر أولئك الأوائل وعقلانيتهم ويُسلّم أنّ ما بين يديه هو صورة من نتاج الفكر الإنساني، ويعتقد ثانيا بأنّ الفكر الإنساني ذات طبيعة واحدة ويمتلك نظام صياغة واحدة. ثمة مقولة مركزية في هذا الكتاب وهي أن مصر نشأت مع خطوات التاريخ الأولى، والباحث في الميثولوجيا والتاريخ الأنثربولوجي لمصر يدرك أن لها مكانة كبيرة في الأساطير العربية. يحاول عمرو منير أن يثير التساؤلات، بل يحاول أن يكرس لوعي جديد، أو استعادة الوعي كما أشار في المقدمة، بأهمية مصر في التراث الحضاري، وهي دراسة تصدر عن رؤية تلتمس في الماضي التفسير الشعبي للتاريخ، أو ما يمكن أن نسميه بـ (البعد الثالث) للدراسات التاريخية؛ أي التفسير النفسي والوجداني ورؤية الجماعة الإنسانية لذاتها وللكون والظواهر والأحداث من حولها. اتخذت الدراسة من (مصر) محورًا بوصفها نموذجًا طيبًا يمثل العنصر الثابت – نسبيًا – في أركان العملية التاريخية (المكان) فضلًا عن أنها اكتسبت في مخيلة الرحالة والمؤرخين والكُتاب أبعادًا ودلالات اقتربت من الأسطورة والخيال، وأخذ هذا التصور يتمتع في تلك المخيلة بصفة تكاد تكون «نمطية» تنطوي على الصدق حينًا وعلى الكثير من التصورات والأوهام الغامضة في أحيان أخرى، ولعل هذه التصورات التي راحت تتضخم عبر العصور هي التي اجتذبت باقة من أعلام الشرق والغرب ؛ أدباء ومؤرخين وفلاسفة ورحالة وشعراء وغيرهم. فأقبلوا بأقلامهم وريشاتهم مشوقين إلى روائع الماضي في مصر، بما تحمله من دلالات جغرافية وتاريخية تمثل نمطًا فريدًا مفعمًا بالعلوم والفنون والسياسة والحكم، ومحورًا للعلاقات القائمة بين أفريقيا وآسيا.. بين أوروبا والشرق بين ذاكرة الماضي والواقع الفعلي ومسرحًا لأهم الأحداث التاريخية العالمية.

هذه الدلالات كلها كانت الأرضية التي استند إليها عمرو منير في عرض مبادئ الدراسة الموزعة على تسعة فصول رئيسية ومقدمة؛ حيث أُفرد الفصل الأول للحديث عن أبعاد العلاقة بين التاريخ والأسطورة، وأوجه الائتلاف والاختلاف فيما بينهما، وعرض لتعريف كلٍّ من التاريخ والأسطورة ومدلولهما، وجاءَ الفصلُ الثاني عن الأساطير والحكايات المرتبطة بأصل اسم مصر، وأصول المصريين أنفسهم، وما حملته تلك الحكايات الخيالية عن اعتزاز

المصريين ببلادهم، وعن تنازع نسبة أصولهم إلى الحاميين، أو اليونانيين أو العرب والكشف عن أن هذه الاتجاهات الثلاثة في «الموروث الشعبي» كان يرضي حاجة ثقافية/اجتماعية لشرائح بعينها في المجتمع المصري آنذاك.

فضائل مصر

وخُصصَ الفصل الثالث لعرض المادة الفولكلورية التي تدور حول «فضائل مصر» باعتباره نوعًا من التأليف نشأ بداية من القرن الثالث الهجري جمع بين التاريخ والأساطير والموروث الشعبي، وكان إفرازًا للتفاعل القائم بين ما جاء به الإسلام، واللغة العربية، والموروثات الثقافية المحلية في كل مصر من أمصار دار الخلافة . أما الفصل الرابع فيتناول الأساطير والحكايات التي تناولت الحضارة المصرية القديمة وإنجازاتها والتي تشي بمدى إعجاب أصحاب هذه الحكايات وجمهورهم بإنجازات الحضارة المصرية القديمة التي بقيت رغم عوادي الزمن. وتم تخصيص الفصل الخامس للحديث عن الأساطير والحكايات التي تناولت الدفائن والكنوز المصرية القديمة وفراعنة مصر. والتي كان الحديث فيها عن الكنوز يحمل بعضها ثمة من الحقيقة، علي حين حمل البعض الآخر رائحة المبالغة. كما حاولنا أن نكشف عن صورة ملوك مصر القدامى التي تاهت في كتابات الرحالة والمؤرخين التي حفلت في بعض موضوعاتها بالخيال الواسع، وعرض في الفصل السادس لأساطير أصول المدن المصرية القديمة، بما تحويه من أخبار العجائب والغرائب والـذي يدل على مدى إعجاب الـرواة وانبهارهم بانجازات الحضارة المصرية القديمة وهو الأمر الذي بدا واضحًا من خلال تلك القصص الخيالية عن الأعمال الإعجازية لملوك مصر القديمة.

عجائب العمران

أما الفصل السابع جمع بين الحديث عن عمران مصر وما دار عنه من حكايات شعبية إضافة إلى الحديث عن العجائب الموجودة على أرض مصر على نحو يكشف عن حجم الخيال الـذي غلف تاريخ مصر وتكشف عن عجز الـرواة عن الوقوف على تاريخها الحقيقي والتي كانت تحاول أن تقدم إجابات «تاريخية» عن حضارة تليدة مضت ولكن آثارها مازالت ماثلة أمام عيون الناس، والتي تنسب الكثير من منجزات هذه الحضارة إلى أعمال السحر والخوارق.

بيد أن بعض هذه الحكايات كانت تحمل ظلًا، أو نواة من الحقيقة التاريخية في غالب الأحوال. في حين أن الفصل الثامن الأساطير والحكايات التي تناولت النيل ومصادر المياه في مصر. حيث أحب المصريون بلادهم وعشقوا نيلهم، وصاغت أساطيرهم وحكاياتهم الشعبية هذا الحب وهذا العشق صياغة جميلة ومثيرة. أكدت أن حياة المصريين ووجودهم اعتمدت على النهر النبيل اعتمادًا مطلقًا، وأن إحساسهم بهذا كان كبيرًا للغاية.

وأُفرد الفصل الأخير عن الموروث الشعبي المتعلق بالشخصية المصرية التي ظلت عرضة للأخذ والرد وتضارب الآراء والتحليلات عند المؤرخين عبر عهود مختلفة والتي جاءت كتاباتهم متسمة ببعض المبالغة أحيانا والواقع أحيانا أخرى . وتلك هي مفردات الخطة التي اهتديت إلى وضعها آملًا أن تكون مستوفية موضوع الدراسة من الجوانب كافة، ومتكفلة بتحقيق النتائج المرجوة لي في هذا المجال، وهي أيضًا خطوة لا تخلو من نقص ضروري، يدعوني إلى المزيد من الحرص على البحث، والتنقيب والتأمل والتسلح بطموح ورغبة في الفهم والتساؤل ■

يوميات شاعر

عامية لويس عوض

محمد عيد إبراهيم *

نشر المفكّر المصريّ الرائد لويس عوض عدة قصائد بتاريخ 1940، ثم أصدرها كتاباً (بلوتولاند) في مكتبة الكرنك 1947، وأُعيد نشر الديوان بهيئة الكتاب المصرية 1989. اشتُقّ اسم الكتاب من (بلوتو)، وهو ربّ العالم السفليّ بالأساطير اليونانية القديمة. وفي مقدمة الديوان (سابق عصره) يقول لويس عوض (1915/ 1990): «نحن أحوج ما نكون إلى التجربة، وخلاصنا لن يكون إلا بالثورة الدائمة، فالمعركة إذن معركة بيولوجية، معركة بين الشباب والشيوخ، وقد يصرع الشيوخُ الشبابَ، لكن هذا لا يبرّر اليأس، فالزمن يضمّد الجراح، والزمن في صفّ الأجيال الجديدة... لكن عرض القوالب الجديدة على المشتغلين بالأدب أهمّ من كلّ اعتبار آخر، ولا أمل للويس عوض إلا أن يقرأ هذا الديوان شاعرٌ ناشئ مطبوع فيتأثر بما فيه من تجارب ويجدّد لنا ألوان الحياة وألحانها، ويسلخ جلود الشيوخ».

وأعتقد أن المعركة مع الشيوخ، أقصد، كما كان يقصد، الراسخين في الشعر، لا تزال، بل صاروا «سلفيين» أكثر من الأول، لكننا سننتصر وكلّي ثقة، في الحاضر الشعريّ قبل مستقبله، على رغم كلّ شيء.

المثير هنا، على رغم تقدمية الديوان عن عصره، وأسبقيته في حركة (الشعر الحرّ) العربية، وذلك الجدل الذي صَحِبَ صدوره في الطبعتين، هو تلك الروح التي كتب بها قصائد العامية، غير قصائد الفصحى، التي حاول فيها ابتعاث تقاليد شعرية أوروبية لترفد تقاليدنا العربية بدم جديد، وفيها ترجمات وتناصات مع شعراء روّاد في قصيدة النثر، التي اشتعل أُوارها في مصر فيما بعد الديوان بثلاثين عاماً.

تتميز عامية لويس عوض ببساطتها وشفافيتها وخروجها الفكريّ والإبداعيّ عن السائد، فقد كان المجتمع الثقافيّ بليبراليته وقتها (الأربعينيات) يتّسع لمزيد من (الحرية) التي لا نتحمّلها الآن، فقد كنّا (وكان طبعاً) نتمنّى أن نستزيد من هذه الجرعات لننفتح أكثر، لا أن ننغلق ثانيةً، بدعوى الحفاظ على الأخلاق والقيم الرفيعة، وهو وهم ساذج يدجّنون به الناس، مع أن المجتمع الآن أكثر راديكالية مما قبل، وأشدّ قُبحاً، وأيامه بالغة السواد، لكن يدور بالسطح ما هو على النقيض مما تحته.

وقد نرى أثره في قصائد العامية ما بعده (روح «صلاح جاهين» مثلاً)، مع أن لويس عوض يعترف، بجرأة وتحدٍّ، بمقدمة «بلوتولاند»: «لويس عوض يسيء الظنّ بكلّ ما يكتب، وله في ذلك عذره، فأكثر شعره رديء!»، وهكذا لم يقترف «جريمة» الشعر بعده إلا في بضع قصائد أخرى، بها روح مسيحية وضدّ مسيحية، نشرها في مجلة «حوار» اللبنانية 1965، على ما أذكر.

ومع أننا قد نختلف، أو نتّفق، معه، فيما طرحه من تنظير، حول آليات تطوير الشعر، لكنه قطعاً بثّ روحاً جديدة، لا تزال نارها إلى اليوم تندلع، في ذيول الشيوخ!

وانظر معي كيف كتب العامية المصرية وقتها (1940):

(جِنّيه ليها ريش/ اتمدّدت عريانه/ تتشمّس ع الحشيش/ وطبّقت خجلانه/ ستاير الرموش/ حرّ الجنوب لفّحها/ قالت تعالَ حُوش)

(أوتار الفن طقّت/ واللحن لسه فكره/ حرام يا موت تاخدني/ قبل اما اغني بكره)

(فكره في ذهن الله أو الطبيعه/ إن العدم يصير إلى كينونه/ والفوضى تبقى في النظام مسجونه/ وان السديم يصبح نجوم بديعه/ المادة طاقة وعكسها صحيح/ أَيُون أَيُون يبقُم فسيخ المالح/ والقافيه دي كانت كرمبه امبارح/ حتى الحياة نوع كهربا ملووح)

(«الكلمة دي فزوره/ والكلمة دي ألماز/ عندي ألوف مكنوزه/ لفرحة الجهاز/ تعال بكره تاني/ عند الغروب يا عيني/ عُود الهوى سباني/ وان غِبت نُص دقيقة/ تندَم على الثواني/ وغِبت نُص دقيقه/ وندِمت طُول زماني) ■

* شاعر ومترجم من مصر

أليسار... بانية قرطاج

الياس عازر

تعتبر مدينة قرطاج التونسية من أعظم وأهم المعالم الحضارية التي كان لها دور اقتصادي وتجاري وثقافي رائد على طول البحر الأبيض المتوسط لمدة قاربت السبعة قرون، امتدت من العام 814 قبل الميلاد وحتى العام 146 ق. م.

بَنتْ هذه المدينة الخلّابة ملكة عظيمة اسمها أليسار عُرفت بجمالها وذكائها وبقوة شخصيتها وطموحها الكبير الذي لا يساويه أي طموح آخر!

أليسار هي فتاة فينيقية من مدينة صُوْر العريقة (Tyre). والفينيقيون هم الشعب الذي سكن على امتداد الشريط الساحلي الشرقي للبحر الأبيض المتوسط فامتهنوا التجارة وبرعوا في صناعة السفن وبنوا لأنفسهم عشرات المستعمرات والمراكز التجارية في معظم سواحل البحر الأبيض المتوسط، شمالًا وجنوبًا، شرقًا وغربًا.

والدها هو الملك «متان» حاكم مدينة صُوْر أعظم المدن الفينيقية -حكم في فترة القرن التاسع قبل الميلاد. وكان أوصى قبيل وفاته بأن تكون ابنته أليسار شريكةً في حكم مملكة صُوْر إلى جانب أخيها المُتسلّط والمدعو «بيجماليون»، الأمر الذي لم يعجب هذا الأخير لشعوره بأن أخته باتت مصدر تهديد لحمكه الفردي، فعمل على إثارة وتأليب أهالي صُوْر في وجه أليسار ومعارضة حكمها، مما دعاها بذكائها وفطنتها للرد على هذا الموقف بالزواج من الكاهن الأعظم «زيكار بعل» كاهن معبد ملكارت أشهر الآلهة الفينيقية، ليصبح -وهو صاحب النفوذ الواسع ومالك الثروات والقصور- سندًا حقيقيًا لها في مواجهة أخيها الذي أرسل أحد أتباعه ليغتال «زيكار بعل» فتمكن من قتله داخل قصره.

أصبحت أليسار على قناعة بأن لا مستقبل لها في صُوْر ما دام يحكمها بيجماليون الأناني، الذي أخذ يُضيّق الخناق على أخته ومن أيّدها من المناصرين من طبقة الأشراف وذوي الشأن في المجتمع، فهادنت أليسار بيجماليون لتسلم شره، وفي الوقت نفسه كانت تخطط للهروب من صُوْر مع ما تيسّر لها من ثروات تركها لها زوجها.

تعتبر مدينة قرطاج التونسية من أعظم وأهم المعالم الحضارية التي كان لها دور اقتصادي وتجاري وثقافي رائد على طول البحر الأبيض المتوسط لمدة قاربت السبعة قرون، امتدت من العام 814 قبل الميلاد وحتى العام 146 ق. م.

وبطريقة ذكية استطاعت أليسار الفرار من صُوْر عبر السفن البحرية يرافقها الكثيرون من خيرة عائلات وشخصيات تلك المدينة.

كانت قبرص هي محطتها الأولى، فَهبّ السكان والأشراف فيها للترحيب بالملكة صاحبة الوقار وبادروا لإعلان ولاءهم وطاعتهم الكلّيّة لها. اختارت أليسار من قبرص حوالي ثمانين فتاةً عذراء من زينة الفتيات اللواتي كنَّ يخدمن في معبد إلهة الحب والجمال «فينوس» (أو أفروديت) وقامت بتزويجهنَّ إلى مجموعة من الشبان العازبين الذين كانوا قد قَدِموا معها، ليُشكّل هؤلاء القاعدة الشعبية في المدينة الجديدة التي تزمع بناءها.

من قبرص تابعت أليسار مسيرتها البحرية باتجاه غرب البحر المتوسط لتحط على شواطئ الشمال الإفريقي في قرطاج بالقرب من مدينة تونس شمال الجمهورية التونسية حاليًا. بادر الأهالي المحليون هناك (ومعظمهم من البربر) لملاقاة السفن الصّوريّة بكل ترحيب - لعلمهم المسبق بالخيرات الوفيرة التي تحملها تلك القوافل وإمكانية تبادل السلع والبضائع مع هؤلاء الوافدين الجدد.

اتخذت أليسار موقعًا إستراتيجيًا بالقرب من الشاطئ وبنت مدينتها الجديدة على تلة متوسطة الارتفاع هناك، أو على نتوء خليجي إذا جاز التعبير. وتتعدد الروايات حول كيفية حصولها على قطعة الأرض الواسعة التي بنت عليها مدينة قرطاج.

تقول واحدة من أشهر وأطرف الحكايات -كما يرويها جوستين المؤرخ الروماني- إن أليسار بعد وصولها إلى الشمال الإفريقي، طلبت من ملك البربر المُسمّى «هيرابس» قطعة أرض بحجم جلد الثور، فأعلن الملك موافقته، وهنا بادرت أليسار إلى تقطيع جلد الثور إلى خيوط ناعمة وطويلة ولفّت بها الهضبة المراد تأسيس المدينة عليها لتحصل بذلك على مساحة واسعة من الأرض.

وضعت أليسار مخطط المدينة وشرعت في إنشائها وبناء السور الذي يحيط بها في عام 814 قبل الميلاد، ومع بدء ظهور نجم قرطاج وبروز جمالها وغناها، تنبأ الملك البربري «هيرابس» بمكانتها في القريب العاجل، وشعر بمقدار خطرها على مملكته، وأمام جمالها وعظمة طموحها وقوة شخصيتها، مع جشعه وطمعه في أملاكها وثروات مدينتها تقدم بطلب الزواج منها. تهربت أليسار قدر المستطاع من هذا الطلب، وذلك لسببين كما يرى الكثير من المؤرخين والباحثين المُطّلعين: الأول: وفاءً منها لذكرى وجها الأول زيكار بعل، والآخر عزة نفسها وترفُّعها عن الاقتران بملك بربري، لكونها فتاةً عالية الشأن من جذور فينيقية صوريّة.

إلا أن محاولات أليسار لم تفلح في صد الملك! وتحت ذاك الضغط الشديد وافقت أخيرًا على الزواج بعد أن حصلت على ضمانة أكيدة منه بعدم مساس البرابرة بالمدينة الجديدة واحترامهم الكامل لها، ذلك أن رفضها للزواج كان سيؤدي حتمًا إلى تدمير قرطاج على أيديهم.

وأثناء حفل الزواج صعدت أليسار إلى محرقة الأضاحي بحجة أنها تريد استرضاء الآلهة وروح زوجها الأول زيكار بعل، فما كان منها إلا أن ألقت بنفسها في أتون النار رافضةً أن يمسها هيرابس البربري وجاعلةً من نفسها الضحية التي افتدت مدينة قرطاج وحفظتها من الخراب - لتكون بذلك قدوة حقيقية في معنى التضحية بالفرد في سبيل ازدهار الأمة ونموها.

تتخذ أليسار مجموعة متعددة من الأسماء، فإلى جانب اسم أليسا (Elissa)، يُطلق عليها الشاعر الروماني فيرجيل في «الإنياذة» اسم: «ديدون» أو «ديدوه» (Dido) بمعنى الهاربة. هذا وقد باتت أليسار عبر الزمن رمزًا للأنثى الجميلة الساحرة، قوية الشخصية الطموحة في آن واحد. وحافظ القرطاجيون بعد موتها على ذكرى ملكتهم العظيمة فأطلقوا اسمها على الكثير من الفتيات وعملوا على تناقل قصتها البطولية من جيل إلى جيل.

اتخذت مدينة قرطاج اسمها هذا من الأصل الفينيقي: «قرت حدشت» «QRT HDST» الذي يعني المدينة الجديدة. ومع مرور الوقت تحوّلت قرطاج من مستعمرة ذات أصل فينيقي صُـوْري إلى إمبراطورية مهمة قائمة بحد ذاتها فرضت حضورها على مساحات شاسعة من غرب البحر الأبيض المتوسط (شماله وجنوبه) وباتت منافسًا حقيقيًا لكِلا الإمبراطوريتين الإغريقية والرومانية.

أصبحت قرطاج إذًا مركزًا تجاريًا هامًا يتوافد إليه التجار من كل حدب وصوب، وكذلك امتلكت أسطولًا بحريًا مهماً وجيشًا جرّارًا يُعدُّ بعشرات الآلاف؛ فضلًا عن أنها أسست لنفسها مستعمرات في شتى أنحاء غرب البحر المتوسط على مثال مدينتها الأم صُوْر. والجدير بالذكر أن قرطاج تخطّت حدود أن تكون مجرد اسم لمدينة من المدن العظمى على سواحل الشمال الإفريقي، بل تحوّلت تاريخيًا إلى اسم يدل على حضارة قيّمة كان لها دورها البارز في الماضي ولا تزال بعض آثارها الخالدة ماثلةً حتى يومنا الحاضر.

مع تعاظم قوة الإمبراطورية الرومانية الغربية، ظهر التنافس بشكل شديد ما بين تلك الإمبراطورية وإمبراطورية قرطاج، فكانت سلسلة حروب طويلة الأمد بينهما وصلت حتى الثلاث حروب - عرفت باسم «الحروب البونية» برز في إحداها اسم النابغة العسكري القائد «هانيبال» - وامتدت من العام 264 قبل الميلاد وحتى العام 146 ق. م. حيث انتهت إمبراطورية قرطاج في ذلك العام بعد أن طالتها أيادي الحقد الروماني الدفين ودمرتها تدميرًا كاملًا ■

الأمريكاني
ماضي الطب ... مستقبل الثقافة

أشرف أبو اليزيد

المكانُ صنو الإنسان، يولدُ ويشبُّ، ويكبرُ ثم يشيب. تمر عليه الأزمنة فيستجيب لسطوتها، وقد تصيبه فيندثر، إلا أن يأتي من يمنحُه قبلة الحياة، فيهبُه ميلادا جديدا، تزدهر به دورة وجوده مرة أخرى، فيعودا شابا. وليس أدل على تلك السيرة المتجددة من قصة حياة «الأمريكاني»، الذي ولد قبل أكثر من قرن في دولة الكويت ليكون مستشفى يعالج الأبدان، وها هو يشهد مؤخرا ميلادا جديدا يخاطب الوجدان، بعد أن حمل اسم مركز الأمريكاني الثقافي، يضم مقتنيات ويستضيف أنشطة دار الآثار الإسلامية. هكذا، بين ماضي الطب، ومستقبل الثقافة، سوف تأتي جولتنا في هذا الصرح المعماري الفريد والأنيق، المواجه للخليج العربي، وكأنه يملي على صفحات المياه أطرافا من سيرته وآيات من تاريخه، وكأنه شاهد على مسيرة النواخذة المغامرين، وهم عائدون من رحلاتهم البحرية، وكانت كل عودة بمثابة ميلاد جديد للبحارة والصيادين والغواصين.

هذان الأسدان من الفضة المطروقة، غرب إيران، من أواخر القرن السابع قبل الميلاد، إلى أوائل القرن السادس قبل الميلاد

ثور مجنح من الفضة، يبلغ ارتفاعه 285 ملم.

تبدأ الصفحة الأولى في عهد الشيخ مبارك الصباح (1840 – 1915)، الملقب بالشيخ مبارك الكبير، أول حاكم للكويت في تاريخها الحديث، حين دعا في العام 1909 أطباء من الكنيسة الإصلاحة الأمريكية لزيارة الكويت، ثم أوعز إليهم في العام 1911 ببناء ذلك المستشفى، الذي حمل اسم الأمريكاني، وهي الكلمة المرادفة باللسان المحلي لكلمة: الأمريكي.

لكن صفحة المبنى الحالية تُكتب في نوفمبر 2011 ، بعد قرن كامل، حين افتتح أمير الكويت الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، المبنى بعد ترميمه، مدشنا ميلاده الجديد.

في فيلم؛ الأمريكاني ... 1914 – 1967، الـذي كتبه أسامة الـرومـانـي وأخـرجـه حاتم حسام الدين ، ونفذ بإشراف جـاسـم الـغـريـب، يـبـدأ مع الفنان التشكيلي أيوب حسين وهو يروي قصة ميلاده، بعد أن تعسرت أمه في إنجابه، وكان ذلك في العام 1932، ليذهب أبوه إلى المستشفى الأمريكاني ليأتي بالطبيبة خاتون مريم على ظهر حمار إلى البيت، لتتم بنجاح ما لم تستطع القابلات. ولا تزال قصة تروى عن معركة الجهراء التي وقعت في العاشر من أكتوبر 1920، وكان للمستشفى دور كبير في إنقاذ حياة 135 جريحا من بين 140 مصابا في المعركة، وكان ذلك حدثا كبيرا لأن إنقاذ هؤلاء كان بإمكانات بسيطة، لكنها كانت كافية لتؤكد على دور المستشفى الإيجابي، كما يؤكد القس عمانويل غريب، راعي الكنيسة

إناء شرب من الذهب له مقبض مرصع بالياقوت ، يعود للعصر الهوني في القرن الرابع الميلادي، وجد في بلخ، أفغانستان حاليا، والقطعة ارتفاعها 153 ملم وعرضها 118 ملم.

حلقة حزام سميك من الذهب، سورية، يحمل لوحا زجاجيا، طوله 5 سم، وارتفاعه 3.5 سم، تعود للعصر البيزنطي، حوالي القرنين الرابع والسادس الميلاديين.

الإنجيلية الوطنية في دولة الكويت.

الطريف أن في جولتي وقفت صديقتنا «هيا» تتأمل بالممر بين مبنيين رئيسين، وكأنها تعود في رحلة صامتة إلى تاريخ ما. قالت هيا إنها ولدت في هذا المكان، حيث عمل والدها بشركة النفط، التي أتاحت لعائلات العاملين بها العلاج في المستشفى الأمريكاني. وهكذا بين قصة الفنان التشكيلي الكبير ورواية زميلتنا، كنا نستمع إلى أصوات آتية تكتب تاريخ المكان، الذي شهدت فيه نور الحياة للمرة الأولى.

التناسق في واجهة المبنى، وتوزع الضوء واللون الأخضر بين جنباته رسالة سلام وصفاء احتاجها مثل هذا المكان، كذلك الأسقف العالية. لقد كان البناء الأول الذي استخدمت فيه الخرسانة بالكويت، ورغم قسوة الخامات إلا أن نعومة التصميم الذي تميز بأقواس تعلو أبوابه ونوافذه، وأسقف عالية تنقي دورة الهواء لـــزواره، كانتا ميزتين لهذه العمارة التي اختزلت صورا من العمارة الإسلامية والقوطية الأوروبية في آن واحد.

الخصائص المعمارية للمكان، بأسقفه العالية، ونوافذه الكبيرة، وفضاءاته المتناسقة، وممراته الناعمة الالتقاء، وأقواسه الحانية، وصلابته البادية، وزخـرفـه المحبب، وبساطته الآســة، كلها اجتمعت معا لتقدم آيات بصرة، باتت تشغلها الآن مقتنيات التاريخ.

إلهام مبكر

قبل أن نتجول معا بين تحف مختارة في هذا المجموعة، ربما يبدو من المهم التعرف على هذا الشغف بالفن العريق ومقتنياته لدى صاحبي هذه المجموعة؛ الشيخ ناصر صباح الأحمد الصباح، وشريكة عمره الشيخة حصة صباح السالم الصباح.

في صباه، كان الشيخ ناصر يعيش في قلب القدس، مدينة التاريخ، وتوافرت له وهو يـدرس في صفوف التعليم العام هناك أن يرى الأماكن الملهمة، وتركت زيارات كنيسة بيت لحم وقبة الصخرة والمسجد الأقصى في نفسه تأثيرها الأكبر. كان يذهب أيام الآحاد إلى كنيسة القيامة حيث تصافح عيناه الأيقونات وتصغي أذناه إلى الترانيم الروحية المؤثرة، ثم يعرج إلى مسجد الصخرة فيصلي ركعتين، بينما يخص أيـام الجمعة بالصلاة في المسجد الأقصى. وأصبحت جولاته في شوارع القدس بمثابة جولة حرة في متحف مفتوح، يرى به مزيجا معماريا بين الروماني والإسـلامـي، وبقيت هذه الصور عالقة في ذهنه تترسخ وينمو معها شغفه بالفن، والآثار، وترميمها، ثم بدأت مهمة الاقتناء لمجموعة الصباح، وبمشاركة زوجته الشيخة حصة، وبما تتميز به من حماسة وعزم، ولهذا بدأت الرحلة في العام 1975، الذي يوثق تاريخ اقتناء أول قطعة في المجموعة، ثم كان القرار بأن توضع هذه المجموعة تحت رعاية متحف الكويت الوطني.

تـروي الدكتورة مارلين جنكينز، التي عملت أمينة ماركة بمتحف الميتروبوليتان للفنون قبل 35 عاما، أنه في شتاء 1981 سألها الشيخ ناصر لتساعده على إقامة متحف في الكويت نؤسسه مجموعته الخاصة للفن الإسلامي، ليكون جاهزا للافتتاح في العيد الوطني الموافق 25 فبراير للعام 1983. وقد وثق هذا الافتتاح أول الكتب التي أصدرتها دار الآثار الإسلامية للتعريف بمجموعتها، وقـصـد بنشره فـي 160 صفحة من القطع الكبير أن يعرف بأهم ما في هذه المجموعة، آنذاك.

حامل على هيئة ماعز تشابك هيكله وتعقدت قرونه، بارتفاع 67 سم، وعرض 33 سم،ويعود إلى حضارة بلاد الرافدين.

في ذلك العام كنا نتحدث عن ألف قطعة، هي نواة أولى لأكثر من 30 ألف تحفة اليوم.

في الجهة المقابلة تحكي الشيخة حصة صباح السالم الصباح عن تلك البداية في 1975، مرجعة الفضل إلى زوجها الشيخ ناصر، بتكوينه الثقافي في مرحلة الدراسة قبل 1967 في القدس، الذي أشرنا إليه، وتقول:

«في هذه الفترة كان اهتمامي منصبا على فنون الحضارة المعاصرة، وخاصة الفنون الغربية، إلى أن وضع بين يدي أول تحفة إسلامية اشتراها، من سوق العاديات في إنجلترا، وكانت عارة عن زجاجة من العصر المملوكي تعود للقرن الرابع عشر الميلادي، وتكشفت لي أشياء آنذاك. لقد كان حبي للفن الغربي نابعا من بساطته وإعمال التجريد به، وهاأنذا أمام الروافد الأولى لذلك الفن، موجودة في الفن الإسلامي، بطبيعة الحال، والمبني على حضارات سادت في منطقتنا، وهنا شعرت أن من واجبي كإنسانة عربية مسلمة أن أترك الفن الغربي لمحبيه والمسؤولين عنه، وأتجه إلى ما تمليه علي حضارتي، وديني، وبدأنا معا في الاتجاه نفسه، لنؤسس دار الآثار الإسلامية، التي يعود الفضل فيها للشيخ ناصر، الذي فكر باقتنائها، ومن ثم إنشاء متحف خاص بها في 1982. آنذاك، كان متحف الكويت الوطني على وشك الانتهاء من إنشاءاته، وطلبت منا وزارة الإعلام أن تضع مجموعتنا الخاص في أحد أكبر مباني المتحف، وكان الاسم الذي اختاره الشيخ ناصر «دار الآثار الإسلامية»، وليست مجموعة ناصر الصباح، وافتتحت الدار في 1983، للجمهور ومحبي التراث وشعرنا بفخر واعتزاز كبيرين لأن مجموعتنا الخاصة تحت رعاية الدولة».

بلاطة مستديرة بقطر 29 سم من مصر تعود إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، تقدم نموذجين في قطعة واحدة، الأعمال الخزفية والكتابة الخطية.

قطعة فنية من بلاد السند لقرص من الذهب قطره 96 ملم، تمثل زخارفه بقرا وجاموسا ووعولا متقابلة ، وشخوصا إلى جانبي شجرة، وصولجانا ينتهي برأس حيوان وأسماك وطيور ونحل.

الصندوق المخصص لحفظ المصحف الكريم، والمصنوع من الخشب، والمشكل بالتعيق، والمزين بالطلاء، والمصنوع في فارس، مؤرخ بمنتصف شهر رجب 745 هجرية، أي العام 1344 ميلادية.

سفير حضارة

اليوم، بعد 35 عاما من بداية الحلم، أصبحت هذه المجموعة سفيرا للحضارة الإسلامية في كل ربوع العالم، ويكفي أن نطلع على برنامج رحلات تلك الكنوز الفنية إلى أشهر مرابع الفن في شرق الأرض وغربها لندرك قوة وعظم التأثير الثقافي الذي تمتلكه الدار بمجموعة الصباح للتعريف بفترة ازدهار فني وثقافي

وحضاري وتاريخي، شاركت المنطقة في صياغته وتشكيل العالم من خلاله.

بين مقتنيات في المجموعة المبكرة التي ضمها الكتاب الأول لمجموعة الصباح : الفن الإسلامي في متحف الكويت الوطني. هناك تلك البلاطة المستديرة بقطر 29 سم التي تأتي من مصر وتعود إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وقد نقش عليها، في ثلاث طبقات، أبو النصر قايتباي / عز لمولانا السلطان الملك الأشرف / عز نصرُه. وقد اخترتها لأنها تقدم نموذجين في قطعة واحدة، الأعمال الخزفية والكتابة الخطية، وهذه الأخيرة من بين أربع خصال تميز الفن الإسلامي؛ استخدام الهندسة زخرفيا، ورسم الأشخاص بإتقان شديد، ودقة باهرة، وتحوير النباتات، خاصة أوراق الشجر ورؤوس الأزهار، وبالطبع استخدام الخط العربي فنيا. ولا تخلو مجموعة الفن الإسلامي من الأسلحة، وتأتي هذه القطعة من الهند المغولية لتبين عناية ودقة عظيمتين في شغل تلك الأسلحة، كما نرى خنجرا في غمده، نصله فولاذي مكسو بالذهب، ومقبضه من الذهب الخالص المصبوب أو المشغول، والغمد من الخش المزين جانبه الخلفي بتصامم بارزة، وقدنقش كلاهما؛ الخنجر والغمد، ورصعا بالعاج والعقيق وبلورات الماس الطبيعي الثمانية الأسطح، والياقوت والزمرد والزجاج الأخضر، ولمسات من المينا.

شرق قديم

للحلي مكان في مجموعة روائع الشرق القديم مثل ذلك العقد الحلزوني المصاغ من الذهب ويحمل ثلاثة عقارب ذهبية بالمثل، مرصعة بحجري اليشب والفيروز الكريمين. وطول السلسلة 95 سم، وتعود إلى هب مملكة باختريا (باكتريا) التي تمتد من آخر الألفية الثالثة لبدايات الألفية الثانية قبل الميلاد.

من فن المنمنمات، وصناعة الكتب، صفحة من من «زبدة التواريخ» كتبت نصوصها بالحبر على ورق وزينت ونقشت رسومها بالألوان والذهب، منالقرن السادس عشر الميلادي.

من مملكة باختريا ، شرق أفغانستان حاليا، نحت من ثلاث قطع، لامرأة جالسة، نحتت ملامحها باتقان، البدن من الكلوريت والرأس من الكالسيت، ويبلغ ارتفاعها 113 ملم.

وسنصل إلى وادي السند مع قرص من الذهب قطره 96 ملم، تمثل زخارفه بقرا وجاموسا ووعولا متقابلة ، وشخوصا إلى جانبي شجرة، وصولجانا ينتهي برأس حيوان وأسماك وطيور ونحل. هذه القطعة التي تعود على وادي السند مؤرخة بنهاية الألفية الثالثة لبدايات الألفية الثانية قبل الميلاد، تكشف عن الفردوس الذي استلهم منه الفنان هذا التشكيل الذي يكاد يماثل فكرة تكوين ركاب سفينة نوح. ثم أتوقف طويلا أمام رقصة استثنائية، صيغت بالطرق والتشكيل، ليُصنع هذان الأسدان من الفضة، ويقدمان قيمة مضافة عبر استخدامها في الحياة اليومية لسكب السوائل، وهذه القطعة التي وجدت غرب إيران، تعود لأواخر القرن السابع قبل الميلاد، إلى أوائل القرن السادس قبل الميلاد، ويبلغ ارتفاع الأسدين 23 سم. ومن المنطقة والزمن نفسه آنية على هيئة ثور مجنح، يبلغ ارتفاعه 285 ملم.

مستقبل ثقافة

لكن دار الآثار الإسلامية ليست تلك المقتنيات التي لا تقدر بثمن وحسب، وإنما هي الحالة الثقافية التي تنشئها بالمفهوم الشامل للثقافة الفاعلة. وإذا كانت فكرة دار الآثار الإسلامية في تحويل المستشفى الأمريكاني _ بعد ترميمه _ إلى مركز ثقافي عالمي، يأتي ضمن تلك النظرة الشاملة للثقافة ومستقبلها، للحفاظ على العمارة الأصلية التقليدية، وترميمها، واستعادة تصاميمها العريقة، فإن الدار لها مواسمها الثقافية التي تشمل عدة محاضرات تستقطب خبراء العالم كله في الحضارة والفنون الإسلامية، فالمتحف ليس خطابا عن الماضي، وإنما هو حوار مع الغد، وأبناء وبنات الغد. هكذا بدأت الحكاية بحلم، حلم لمن أراد أن ينشىء مستشفى، وحلم من أراد أن يؤسس متحفا، ومن الأحلام تولد الأفكار ويشرق المستقبل ■

ضوء آخر

نحن والموسيقى

عبد الهادي روضي*

الأغنية سفيرة الأمم والشعوب، ولأنها كذلك، شكلت نمطًا وطقسًا أساسيًا من طقوس الحياة اليومية. الموسيقى جزء لا يتجزأ من مسارات الحياة، أينما وليت وجهتك ثمة موسيقى؛ تخترق صمت الأمكنة، يختلط جيدها بالرديء كلمة ولحنًا وتوزيعًا وغناء، والأخلاقي بالساقط، غير أنها تظل هي الموسيقى، تعيد تكريس صلة الرحم المتوارثة عصرًا عن عصر ولكل منا أن يختار ما تتفاعل معه روحه، ما دامت لها حرية الاختيار في النهاية.

شكلت الطبيعة ملامح الموسيقى الأولى؛ من أصوات الأشجار وخرير المياه وزقزقات العصافير وغيرها، رافقت الإنسان في حلّه وترحاله كإيقاعات غامضة لها سطوة السحر، إلى أن ابتدع الإنسان آلاته الخاصة التي تطورت مع الحياة لتحقق لذاته وحواسه متعتهما، وترتقي بروحه وإنسانيته وتعبر عن ذاته وسط العالم.

عاشت الأغنية العربية والمغربية أزهى أيام التألق والنضج مع روادها الأوائل ممن رسخ حضورهم داخل الوجدان الجمعي للأمة، لأنهم حملوا همّ الارتقاء بالأغنية حاملين الفانوس في ليل تراجع الخيارات العربية وبنياتها الفكرية والاقتصادية والسياسية. وانتصبوا خادمين للموسيقى العربية مشنفين حواسنا بأروع الأغاني المنتصرة للوطن وللبسطاء والكادحين منتصرين للفكرة بالشعر والتلحين المثقل بالدراسة والتجربة الطويلة.

والسؤال: هل يظل ما أسسه هؤلاء العباقرة بصبر وأناة واجتهاد صامدًا في وجه تقلبات الأزمنة والأذواق، وهل واقع موسيقانا العربية يسر الحواس؟

نعتقد جازمين أن التطور التكنولوجي، بقدر ما خدم الموسيقى العربية، أساء إليها، إذ كادت تنتفي الموهبة والحزم والجدية واحترام الجمهور، وتنامت الرداءة والتهافت نحو السطحية والتقريرية.

كانت علاقة الإنسان المبدع/ بالموسيقى محكومة برؤاه ووازعه الذوقي وقناعاته، بوصفه كائنًا متفردًا في رؤية الكون والأشياء، لذلك جاء منتجه معبرًا عن وجوده، وتطلعات الإنسان الذي يسكنه، فصار المبدع هو ديدن القبيلة والأسرة والمجتمع، يحمل رسالة ويعمل على إيصالها وتبلغيها متسلحًا في ذلك بصبر الأنبياء لترسيخ إبداع يتماشى وهموم الذات والوطن والبسطاء والمنكوبين والمبعدين والمضطهدين هنا وهناك، مما قوى وشائج العلاقة بين المبدع والمتلقي وغذاها.

كانت الموسيقى العربية وستظل سفيرة الأمة العربية، مهما تغيرت القناعات والأشكال الإيقاعية، والقوالب الموسيقية، والبقاء دوما للأصلح والنوعي والجيد، وحضورها بشكل فعلي في قلب المجتمعات الأخرى، هو اعتراف ضمني بحضارة أمة، سخّر فيها الموسيقيون العرب الأوائل وقتهم وجهدهم، وضحوا بالتزاماتهم المهنية والأسرية، لذلك وبغية الحفاظ على إرثنا الموسيقي العربي من الشوائب والرداءة والاندثار، ينبغي العمل على إعادة الاعتبار إلى ذاكرتنا الموسيقية؛ عبر إحياء الأغاني القديمة وتجديدها بما يتوافق وسيرورة الأذواق، والانتباه إلى روادها، وإيلائهم الوضع الاعتباري الذي يستحقونه، وانتشالهم من براثن التهميش والنسيان، وتأصيل ثقافة موسيقية في وجدان الناشئة في المدارس التعليمية والمعاهد وغيرهما، بدل الاكتفاء باجترار مشاعر الامتعاض والأسى كلما تناهت إلى الأسماع أغنية رديئة أو صوت تافه تمجه الأسماع التي تربت على الجميل النوعي والهادف ■

*شاعر من المغرب

النسر يطارد العصفورة

محمد بركة

رآها تتلألأ كنجمة الفجر في ساحة الألعاب الأوليمبية، فجن بها غرامًا، وعزم أن يخطبها من أبيها بمجرد أن يعرف من هو، وانتظر حتى ينتهي المتبارون من ألعابهم ليتقدم إلى والد تلك الفتاة فيجعلها ملكة كريت، ودرة أعظم العروش في البحر المتوسط، وكان قلبه يخفق ويحدثه من حوله فلا يدري ماذا يقولون، ولا كيف يجاذبهم أطراف الحديث، لأنه كان عنهم في شغل بهذا الحب الغامر المفاجئ، الذي جرى مع النظرة الأولى في كل قطرة من دمه. لكن الألعاب تنتهي، وينظر مينوس العظيم، ملك كريت، فلا يرى أثرًا للفتاة التي فتنته.

ثم تمضي الأيـام، ولا يبرح طيف الفتاة يداعب خيال الملك، وكان مينوس يتمنى لو أن حادثًا عظيمًا يقع، فيشغله عن حبه الذي انقلب فصار وسواسًا يضطرب في قلبه، ويعربد بين جنبيه، حتى يدخل عليه وزيره فينبئه بأن ملك ميجارا قد أهان سفير مينوس، وأنه قد أمر بالقبض على جميع أهالي كريت في بلاده والزج بهم ظلمًا في غيابات السجون، ولماذا؟ لا يدري غير رب السماوات!

وثارت ثائرة الملك، وفشلت كل الوسائل السلمية في إعادة الصواب إلى رأس ملك ميجارا فأخذ ملك كريت يستعد لحرب طاحنة طويلة الأمد، وراح يحشد الأساطيل .

أما الملك» نيزوس»، ملك ميجارا، فقد كان رجلًا شجاعًا، جريء القلب، لكنه رأى فيما يرى النائم أن أفعى خبيثة تخرج من بيته، فيأتي الخراب في صورة رجل قاطع طريق من كريت، فيدخل البيت، ويعبث فيه، ويجعل عاليه سافله، فيذعر الملك نيزوس، ويهب من نومه ليدعو إليه الكهنة، ومفسري الأحلام، لكن أحدًا منهم لا يستطيع أن يفسر هذا الحلم المزعج، فيهيج هائج الملك، ويأمر بما أمر به من القبض على أفراد الجالية الكريتية جميعًا، والزج بهم في غيابات السجون، حتى لا يدخل قاطع طريق منهم القصر الملكي، ويتم تأويل الرؤيا المزعجة التي أقضت مضجع الملك.

حصار وحُب

وصلت أساطيل مينوس، ونزلت جيوشه الكثيفة الجرارة فناوشتها جيوش نيزوس،

وحدثت بين الفريقين حـرب كبيرة لم يظهر فيها أحد الخصمين على الآخر، ثم ظلت الحرب سجالًا هكذا حتى مرت أيام طويلة آثر نيزوس بعدها ألا يخوض جنوده الميدان، وأن يظل جيشه محتميًا وراء أسوار ميجارا، محاولًا بذلك أن يدب اليأس في قلب مينوس، وأن يطول عليه الأمد.

وكانت لـ«نيزوس» ابنة من الجميلات البيض، يترقرق الحسن في وجهها المورد الناعم، اسمها سكوللا، كانت تحب الخلوة، وتؤثر العزلة في هذا البرج الشاهق المنفرد من أبـراج المدينة، تطل منه على جيش مينوس الحب، الذي تنتشر خيامه على مدي البصر حول المدينة، وكانت سكوللا، لطول إطلالتها على الساحة، قد أخذت تتبين شخصيات كبار المقاتلين، وكان أشدهم استحواذًا على إعجابها، هو مينوس نفسه، فقد كان يجيء ويروح في زيه العسكري كأنه أبوللو نفسه، نزل من سمواته ليقود هذا الجيش، فإذا اعتلى صهوة جواد، فهو في رشاقة أخيل حركة، وصبابة أدونيس، وجاذبية جانيميد!

برج بيزا المائل وتمثال ملاك. بيزا، توسكانا، إيطاليا.

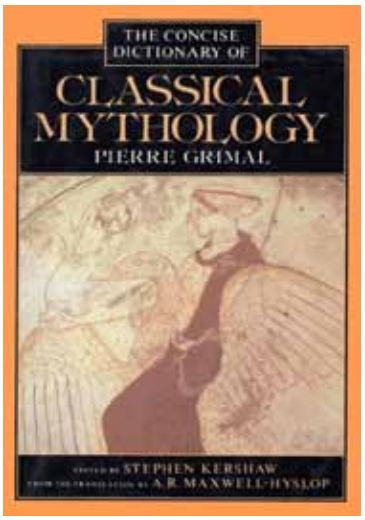

ثم استحال الإعجاب فصار ميلًا، واستحال الميل، فصار، ماذا؟ ثم لم تمض أيام حتى عرفت سكوللا أنه الحب، قد تنفس في قلبها، الحب العجيب الذي يجيء منسجمًا في كل أحواله، لكنه يأبى إلا أن يجيء متناقضًا حين يغزو قلب سكوللا، فيجذبها بكل هذه القوة، إلى الرجل الذي جاء بجيوشه ليذل أباها، ويغزو وطنها، ويجعل أنوف عشيرتها في التراب.

يطغى الحب، فيخيل إليها أن تهبط إلى البوابة الكبرى فتتفتحها في غفلة من أعين الرقباء، فتنطلق إلى حبيبها فتقبّل الأرض بين قدميه، لكنها كانت تشم ريح الخيانة، الخيانة الكبرى، في هذا الخاطر، فتغطي عينيها بكلتا يديها، وتجهش، ثم تستسلم إلى بكاء شديد.

الخصلة الأرجوانية

ثم يتمرد الحب، فيفقد عينيه، ويكون فيلسوفًا، ويلقي في روع سكوللا بمنطقه السقيم الذي لا يستقيم، فها هو ذا يقول للفتاة إن هذه الحرب عبث لا معنى له، واستبداد ملوك لا يفهمون، وطغاة مخرفون لا يبالون بهذه الأرواح،

التي تستشهد، والأطفال الذين يفقدون عائليهم، والأمهات اللائي يثكلن أبناءهن والزوجات اللاتي يترملن في زهرة حياتهن، وأنه لابد من وضع حد لكل هذا، وما دام أبوها يتمسك برأيه في المضي بهذه الحرب إلى نهايتها، ونهايتها المحتومة، وهي خضوع ميجارا حينما تفرغ أقواتها خضوعًا تامًا، فتستسلم لعدوها من غير قيد ولا شرط فيبيد القادرين من أهلها على حمل السلاح، ويأسر الأطفال، ويسبي النساء، ثم يهدم المدينة على رؤوس الضعفاء والمرضى والعجزة، يتركها أثرًا بعد عين، فلماذا لا تتدارك سكوللا كل هذا، فتمضي إلى أبيها الذي يغط في نومه العميق بعد أن ينتصف الليل، فتقص تلك الخصلة الأرجوانية من شعره، والتي ترتبط بها مصائر ميجارا المحاصرة، كما زعمت كاهنة في نبوءة لها، وتذهب ميجارا بعد ذلك فتفتح بوابة المدينة، وتخرج لتلقى مينوس، وتقدم إليه تلك الهدية الثمينة، فتكون عربون حبها له، وعنوان وفائها لشخصه الذي ملأ عينيها وقلبها وروحها، وتدفق بالحب في كل قطرة من دمها؟

ولا تفكر سكوللا كثيرًا، فقد أقنعها حبها، هذا الفيلسوف الأعمى، بتلك المغامرة، فأسرعت إلي غرفة والدها، فقصت الخصلة، وهبطت إلى البوابة ففتحتها، في غفلة من حراسها النائمين، ثم دلفت وسط معسكر العدو حتى كانت عند الخيمة الكبرى، وهناك التقت رئيس الحرس، فأقنعته بضرورة لقاء الملك، لأنها جـاءت لتسلمه المدينة.

وأمر الملك بإحضار الفتاة، وكان ساهرًا يدرس خطة الانسحاب المريرة، في فيض من أضواء الشموع، فلما رآها لم يكد يستقر في مقعده، وشعر كأنه يستيقظ من حلم قديم، ثم لم يملك إلا أن صرخ من أعماق قلبه فتساءل: سكوللا، ابنة نيزوس، ملك نيجارا؟ وماذا تريدين يا بنيتي؟

وقالت سكوللا وهي تجيبه: «إن كنت قد أحببتني وأنا لا أعرفك، فقد أحببتك وأنت لا تعرفني، لقد رأيتك من فوق أسوار ميجارا فهمت بك حبا، وجئت لأسلمك مدينة أبي».

ثم قصت عليه قصة حبها وقصة الخصلة الأرجوانية، فانزعج الملك بشدة، وأحس كأن يد الخيانة الباردة كالثلج تمتد مرة أخرى فتكاد تنتزع قلبه، فصاح بالفتاة :«ويلك يا خائنة، ما أتعسك من حبيبة، وأتعسني أنا من عاشق!، جئت لتسلميني أباك وأهلك ووطنك، وظننتِ أن هذا يكون وفاء، ويكون أول ما أعرف منك؟ أغربي، أغربي يا شقية، اقبضوا على المجرمة، اقبضوا على الخائنة، ويلاه! لقد رأيت أمس في المنام أنني أتسلم ميجارا من يد أفعى فخفت، وصممت على الانسحاب!»

ورأى أحد قادة مينوس باب المدينة الكبير مفتوحًا فلم ينتظر أمر الملك، بل أمر هو بالهجوم، واستيقظ نيزوس على أصوات الهرج في المدينة، ولم يلبث أن كشف سر خصلة الشعر الأرجوانية فجن جنونه، فأخذ يصيح ملتاعًا وهو يقول: «إذن فابنتي هي الأفعى، اقتلوها، اقتلوها» ولكنهم لم يقتلوها، فقد أرادت الآلهة أن تضع حـدًا للمأساة، فسحرت نيزوس نسرًا كبيرًا، وسحرت سكوللا عصفورة بيضاء من عصافير البحر، ولا يزال النسر إلى اليوم كلما رآها ينقض عليها، ويمزقها إربًا. أما ميجارا، فقد سقطت، ولكن بعد أن سقط مينوس هو الآخر حزنًا على سكوللا! ■

ملاحظات في الرواية العراقية

سمير قسيمي*

في زيارتي للعراق اقتنيت عددًا كبيرًا من روايات الجيل الجديد من الروائيين العراقيين، وكنت قبلها لم أقرأ إلا لعراقيين في المنفى.

إننا بإغفالنا للتجربة العراقية الجديدة في الداخل، لا نظلم هذه التجربة بقدر ظلمنا لأنفسنا، فقد وقفت على نصوص كبيرة عجزت منظومة الجوائز العربية والإعلام العربي أيضًا عن احتوائها، وهي نصوص لا تضيف للسرد العربي فحسب، بل تثريه في الجانبين اللغوي والتقني.

ثمة شرخ حاصل في مجمل هذه الكتابات بين ما يمثله العراق كمحمول تراثي أقل ما يوصف به هو الثراء، وبين ما تشتغل عليه هذه النصوص، وكنت من قبل أجد هذا الشرخ مبررًا في كتابات عراقيي الخارج لاعتبارات سوسيولوجية تترجم غالبًا- مع استثناءات قليلة جدا- في شكل نصوص نوستالجيا إلى بلد المنفى والعائلة -خاصة الأم- وذكريات حميمية تتعلق بشكل مباشر بسنوات الطفولة وبداية الشباب (أستثني تمر الأصابع لمحسن الرملي).

النصوص العراقية في الداخل تعرف نفس الشرخ، ولم تكن رواية أحمد السعداوي «فراكنشتاين في بغداء» استثناء كما تصورت؛ فالابتعاد قدر الممكن عن التراث والتاريخ العراقي والتشبث بالواقع كمحاولة لرصد اللحظة العراقية في حينها، يبدو مهيمنًا على الكتابة العراقية بشكل عام.

أعتقد أن هذه الظاهرة تتعلق أساسًا بشعور لا إرادي لجلد الذات، فالسعداوي مثلا في روايته «فراكنشتين في بغداد» استلهم بعدًا غربيًا وحاول بعثه في نصه الذي لم يحسن تمثيل الرواية العراقية عامة ولا الرواية في الداخل التي من خلال قراءتي هي أكثر قوة تقنيًا ولغويًا وحتى مخياليًا؛ جلد الذات بكل ما يعنيه من إحالات على الأدب الضحية.

هنا أعيد إثارة موضوع الأدب الاستعجالي، لا من حيث أنه أدب يرصد اللحظة في اللحظة، ولكن كأدب يترصد الواقع تسجيليًا وليس إبداعيًا، ومثل هذا الترصد قد يضر بالكتابة المتزنة والصناعة الحقيقية للنص السردي على غرار ما شهدناه عربيًا في عدد كبير من الأعمال الروائية العربية التي حاولت استغلال ما سمي «ربيعًا عربيًا» وسقطت في الاستسهال، ولعل أكثر ضحايا هذا الترصد اللحظوي شهرة واسيني الأعرج في نصه «جملكية أرابيا» وإبراهيم الكوني في نصه «فرسان الأحلام القتيلة».

أعتقد أن الأدب العراقي، سيما الرواية العراقية في الداخل تحتاج إلى العودة إلى معينها الأصيل، إلى تراثها وتاريخها الممتد في جذور التاريخ، بالطبع ليست هذه دعوة إلى كتابة روايات تاريخية أو تراثية، وليست دعوة أصولية كما قد يفهمها البعض ولكنها دعوة إلى كتابة رواية غير تلك المُروج لها «جوائزيا» على غرار رواية السعداوي البعيدة كل البعد عن المستوى الحقيقي للرواية العربية، والتي حاول علي بدر مثلًا في روايته «الكافرة» أن ينتج مثيلها، أقصد رواية بها ما يلزم من توابل لتفوز بجائزة.

هنا لا بد من الإشادة بالجهد السردي المعتبر لتجارب عراقية أخرى، تحاول رغم وجود أصحابها في المنفى الاختياري أن تنحت روائيًا واقعًا سرديًا مختلفًا على غرار تجربة محسن الرملي، سيما في روايته «حدائق الرئيس»، أو تجارب في الداخل العراقي كتجربة علي لفته سعيد أو سعد قاسم الأسدي ■

*روائي جزائري

الإثنين أم الثلاثاء

تأليف: ڤرجينيا وولف
ترجمة: صلاح صبري

كَسِلاً ولامباليًا، ضاربًا الفضاء بجناحيه في يُسْر، عارفًا طريقه، يمر «مالك الحزين» فوق الكنيسة التي تحت السماء. بيضاء ونائية، مستغرقة في ذاتها، دونما توقُّفٍ تحجب السماءُ وتكشف، تتحرك وتسكن. بُحيرةٌ؟ أحجب شواطئها تمامًا! جبلٌ؟ رائعةٌ- أشعة الشمس الذهبية على منحدراته. الزغب الذي يتساقط. سراخس إذن، أو ريش أبيض، دائمًا إلى الأبد.

مُتشوِّفٌ للحقيقة، منتظرٌ إياها، مستخلصٌ بالكاد بضع كلمات، متشوفٌ إلى الأبد- (صيحةٌ تنطلق إلى اليسار، وأخرى إلى اليمين. تندفع العربات متباعدةً. تتجمع الحافلات بغير نظام)- متشوفٌ إلى الأبد- (تعلن الساعة باثنتي عشرة دقة واضحة أن الوقت منتصف النهار؛ ينثر الضوء قشورًا ذهبية؛ الأطفال يتزاحمون)- إلى الأبد متشوفٌ للحقيقة. حمراء هي القبة؛ عُملاتٌ متدلية من الأشجار؛ أعمدة الدخان المتصاعد من المداخن؛ نباحٌ، هتافٌ، صراخٌ «حديدٌ للبيع»- والحقيقة؟

مشيرةٌ إلى نقطةٍ واحدة أقدام الرجال وأقدام النساء، بالأسْوَد أو الذهبي- مكسُوَّة- (هذا الجو الضبابي- سُكَّر؟ كلا، شكرًا لك- الكومنولث في المستقبل)- ضوء المدفأة يومض كاسيًا الغرفة باللون الأحمر، فيما عدا الهياكل السوداء وعيونها البراقة، بينما بالخارج حافلةٌ تفرغ حمولتها، السيدة ثِنجَمي 'THINGUMMY' تحتسي شايًا على طاولتها- الزجاج يحفظ معاطف الفراء.

رقائقُ، مختالةٌ- الضوء، مُنعطِفٌ عند الزوايا، مُنبعِثٌ بين العربات، فضةٌ- منثورةٌ، الوطن أم ليس الوطن، متجمعٌ، مشتتٌ، مُبعزَقٌ في قشور منفصلة، مُنْحَنٍ إلى أعلى، إلى أسفل، ممزقٌ، غاربٌ- والحقيقة؟

الآن سيجتمعون ثانية عند المدفأة فوق المربع الرخامي الأبيض. من أعماق العاجي تنبع الكلمات وهي تنضو عتامتها، تُزهر وتُبين. مُلقًى هو الكتاب؛ في اللهب، في الدخان، في الشرر الخاطف- أو الآن مُبحرٌ، القلادة الرخامية المربعة، المنارات بالأسفل وبحار الهند، بينما يهرول الفضاء نحو الأزرق والنجوم تبرق- الحقيقة؟ راضٍ بالتقارب؟

كَسِلاً ولامباليًا يعود «مالك الحزين»؛ السماء تحجب النجوم؛ ثم تعريهن ■

البُطَان

تراث سوداني لا يموت

محفوظ بشرى

جامدًا يقف الشاب، عاري الجذع والسوط يهوي على ظهره، مرة وأخرى وثالثة، حتى يسيل دمه، لكنه لا يحرّك ساكنًا، ولا ينبس بحرف، أو يبدي ما يشي بالألم الواقع عليه، فإن أظهر شيئًا من هذا، ولو برقّة جفن فقط؛ حينها سيلبسه العار ويوصم بالجبن، وهو ما تستحيل الحياة معه في مجتمعات السودان الريفية، التي تُعلي من قيمة «الرجولة» إلى حدّها الأقصى، وتضعها مقابلًا للتحمُّل والجَلَد.

تُعرف هذه العادة في السودان بـ «البُطَان»، وهي وفقًا لقاموس اللهجة العامية في السودان؛ نوعٌ خاص من الجَلْد بالسوط، ويكون على الظهر العاري من فوق الكتف، ويمارسه الشبان لإبراز شجاعتهم أمام الفتيات، لا سيما في طقس «السِّيَرَة» الذي يُعد أشهر طقوس العرس السوداني، وفيه يسير العريس من بيته إلى بيت عروسه، مصحوبًا بأهله ومشيَّعًا بالأغاني والزغاريد.

بدايات تاريخية

تعود بداية ظهور عادة البطان في السودان، على أرجح الآراء، إلى فترة الحكم التركي المصري «1821 – 1885م»، حيث سنَّ المحتلون الأتراك عقوبة الجلد للسودانيين، حال مخالفتهم القوانين، أو تأخرهم عن دفع الضريبة المفروضة، فجاء رد الفعل الشعبي من السودانيين على العقوبة المهينة، عن طريق ممارستها في أفراحهم استهانة بها، وليظهروا للحكام الأتراك قدرتهم على تحملها، واحتقارهم لها كعقوبة، وهو ما أدى لاحقًا إلى جعل أكثر العقوبات مالية، بدلًا من الجلد.

ونجد صدى لعقوبة الجلد التركية، في الشعر الشعبي السوداني، في تلك الفترة وما بعدها، مثلما هي الحال عند الشاعر إبراهيم الفرَّاش «1847 – 1883م»، الذي اشتهر بهجائه لضابطه المسؤول عنه، بسبب اعتماده عقوبة الجلد للسودانيين المجندين في الجيش التركي المصري، وأحدهم كان الشاعر الفرَّاش.

دليل القوة والشجاعة

خلال الفترة التركية وما بعدها، ظل البُطَان حيًا، بوصفه طريقة لإظهار الشجاعة والقوة في المناسبات الاجتماعية، وشهدت بدايات القرن الماضي انتشاره بكثافة في مناطق السودان المختلفة، حتى إن مؤرخًا مثل نعوم شقير «1863 – 1922م»، أفرد لوصفه مساحة

مقدرة من كتابه «جغرافية وتاريخ السودان»، الذي ألّفه في مطلع القرن العشرين. حيث يـورد شقير، أسـباب البُطان وأنواعه المختلفة، وطرق ممارسته. فبخلاف إظهار الرجولة والشجاعة أمـام الفتيات فـي احتفالات العرس؛ فإن البُطان كان فيصلًا بين المتخاصمين من الشبان، فإذا اختلف شابّان لسبب من الأسباب؛ دعا أحدهما الآخر إلى البُطان، فإن رفض عُد جبانًا ورفضت البنات زواجه واحتقره مجتمعه الذي يعيش وسطه، وإذا رضي؛ أخذ كل منهما سوطاً، وجمعا الناس للشهادة عليهما، ثم يشرعان في ضرب بعضهما بالتناوب، إلى أن يسقط أحدهما من شدة الضرب.

كذلك إذا أحب شاب فتاة، وزاحمه عليها آخر، فإنه يطلبه للبُطان، ويفوز بها الغالب. أيضًا قد يكون البطان لمجرد المباهاة في حلقة «الدَّلُّوكَة»، وهي طبل شعبي تُغنى على إيقاعاته أغاني الحماسة والفروسية، وفي هذه الحال يأتي من أراد البُطان إلى ضاربات الدَّلوكة، ويهز سوطه فوقهن قائلًا: «ابشرن بالخير»، ثم يقف الجميع صفًا واحدًا، ويبرز أولهم فيضرب كلَّ من في الصف، ويرمي السوط قبل أن يعود إلى مكانه في الصف، ليبرز الثاني ويتناول السوط ويفعل مثله، وهكذا إلى أن يأخذ كل واحد منهم نصيبه ضاربًا ومضروبًا.

أما في العرس، وهي الطريقة المنتشرة حتى اليوم؛ فيقوم العريس أو شقيقه بجلد الشبان الراغبين في البُطان، وفي الغالب يكون ذلك سدًا لديْن للعريس على من يضربهم، إذ يكون قد تلقى الجلد في زيجاتهم من قبل، كنوع من المجاملة الاجتماعية.

تُعرف هذه العادة في السودان بـ «البُطَان»، وهي وفقًا لقاموس اللهجة العامية في السودان؛ نوعٌ خاص من الجَلْد بالسوط، ويكون على الظهر العاري من فوق الكتف، ويمارسه الشبان لإبراز شجاعتهم أمام الفتيات، لا سيما في طقس «السِّيَرَة» الذي يُعد أشهر طقوس العرس السوداني، وفيه يسير العريس من بيته إلى بيت عروسه، مصحوبًا بأهله ومشيَّعًا بالأغاني والزغاريد

ثمة جانب آخر ينبه إليه دعاة محاربة البُطان، ويتعلق بنشر الأمراض المنقولة عبر الدم، حيث يُجلد الشباب في البُطان حتى تسيل دماؤهم، ومن ثم بالسوط الملطخ بالدماء نفسه، يُجلد آخرون، مما يرفع احتمالات نقل العدوى بينهم عبر الجروح العميقة التي يحدثها السوط في الأجساد، إن كان أحدهم يحمل مرضًا ينتقل عن طريق الدم

انحسار وانحصار

وبخلاف ما كان سائدًا قديمًا؛ فإن البطان اليوم أصبح محصورًا في احتفالات الزواج لبعض الأسر والقبائل التي لا تزال متمسكة بهذه العادة، وهو في الريف السوداني أكثر منه في المدن، وإن لم تخلُ حتى العاصمة الخرطوم من ممارسة البُطان، على خلفية النزوح المتواصل إليها من الريف السوداني، حيث يأتي إليها النازحون بعاداتهم وتقاليدهم. إلا أن هذه الممارسة اليوم لم تعد منتشرة مثلما كانت، في ظل الدعوات المتواصلة إلى محاربتها، بوصفها عادة ضارّة ولها آثارها الصحية السلبية. إلا أن الوعي بخطورتها لم يعفِ حتى طلاب الجامعات السودانية من ممارستها في احتفالاتهم التراثية.

في السودان، دائمًا ما تواجه حملات التوعية ضد «العادات الضارة» مقاومة اجتماعية في حال تم توجيه الحملة إلى إحدى العادات التراثية التي يرتبط بها السودانيون بوصفها هويتهم المميزة لهم عن باقي الشعوب في العالم، فمن قبل فشلت حملات محاربة استخدام دخان حطب شجر «الأكاشيا» في طقوس العرس السوداني، مثلما لم تتوقف أيّ من الطرق التي ينظم بها السودانيون احتفالاتهم الطقسية في الزواج والختان والموت، لذا لم يكن مستغرَبًا تجاهُل الدعوات للتخلي عن البُطان رغم كل الأسباب المنطقية التي أبرزتها الحملة ضده.

ثمة جانب آخر ينبه إليه دعاة محاربة البُطان، ويتعلق بنشر الأمراض المنقولة عبر الدم، حيث يُجلد الشباب في البُطان حتى تسيل دماؤهم، ومن ثم بالسوط الملطخ بالدماء نفسه، يُجلد آخرون، مما يرفع احتمالات نقل العدوى بينهم عبر الجروح العميقة التي يحدثها السوط في الأجساد، إن كان أحدهم يحمل مرضًا ينتقل عن طريق الدم. لكن هذه المخاطر كلها لا تزال تتضاءل أمام قوة العرف الاجتماعي، الذي يعد من يصبر على هذ الضرب المبرح؛ شجاعًا ورجلًا قويًا، وهو ربما السبب الذي جعل هذه العادة التراثية تحيا لكل هذه السنين.

أيضًا نجد أن بعض المنتمين إلى قوميات وقبائل بعينها في السودان، يحافظون بحرص على البُطان حتى اليوم، بوصفه إرثًا يميزهم عن بقية سكان السودان، بسبب ارتباطهم المتواصل تاريخيًا بهذه العادة التي يعتقدون أنهم أول من بدأها، ويمثل هذا فخرًا قوميًا لهم يعملون على ربطه بقيم الرجولة النمطية المشتركة في ما بينهم.

لكنَّ كثيرًا من المصادر التاريخية السودانية، تكاد تجزم بأن البُطان، ظلّ عادة ممارسة في السودان ككل، ولم يختص بها قوم من دون آخرين، إلا في مراحل تاريخية لاحقة، بعد تخلي الكثيرين، بفعل التمدن، عن تلك العادة، إلى حدّ خفوتها في نهايات القرن الماضي في أغلب مدن وقرى السودان. لكن في العقدين الأخيرين تزايدت ممارستها من جديد من قبل الشباب الساعين إلى إظهار الشجاعة، وكبرهان على أصالتهم، عن طريق إحياء عادات سودانية خالصة مثل البُطان.

برغم كل الدعوات لإيقافه، ومع المقاومة التي يبديها كثير من المثقفين؛ إلا أن البُطان لا يبدو في طريقه إلى الانقراض قريبًا، خصوصًا في المناسبات التي تقام في الأرياف السودانية. فرغم تناقص ممارسته كثيرًا في فترات عدّة، إلا أنه لا يفتأ يعود من الضمور الذي يحل به، لينتشر من جديد إلى حين خفوته من جديد، وهكذا، ما يجعله عادةً عصية على الموت رغم قسوتها ■

الشعر العربي يتألق بحنجرة عبد الوهاب

ناصر عراق

ما دمنا في عام القراءة وفقا لمبادرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة، مر علينا شهر مايو الذي شهد رحيل الموسيقار الأعظم محمد عبد الوهاب قبل ربع قرن، لذا أعتقد أن الأمر يستوجب أن نطل سريعًا على الدور الذي لعبه هذا الموسيقار الفذ في تعزيز قراءة اللغة العربية وفي القلب منها الشعر؛ الدرة الفاتنة لهذه اللغة.

لم يكن عبد الوهاب قد أكمل عامه السابع عشر تقريبًا عندما سجل أول اسطوانتين له، وهما قصيدتان للشيخ سلامة حجازي؛ نجم نجوم ذلك الزمان. الأولى مطلعها (ويلاه ما حيلتي/ ويلاه ما عملي/ ضاع الرشاد وضاقت في الهوى سُبُلي)، أما الأخرى فتبدأ هكذا: (أتيت فألفيتها ساهرة/ وقد حملت رأسها باليدين).

كان اقتران عبد الوهاب بالشعر العربي الفصيح أصيلا منذ البداية، فلما التقى أمير الشعراء أحمد شوقي عام 1924، ظل ملاصقا له ثمان سنوات كاملة حتى رحيل الأخير في 14 أكتوبر من 1932، الأمر الذي وطّد علاقة عبد الوهاب بالشعر العربي وإيقاعاته وخيالاته.

في حياة الأمير ومن أشعاره ترنّم عبد الوهاب بمجموعة من القصائد الباذخة مثل: (يا جارة الوادي)، (علموه كيف يجفو فجفا)، (رُدّت الروح على المضنى معك)، (منك يا هاجر دائي)، (خدعوها بقولهم حسناء)، فلما رحل شوقي، لم يتوقف عبد الوهاب عن الإبحار في قصائده واصطياد ما يناسب حنجرته، فشدا لنا بتحفته الساحرة: (مضناك جفاه مرقده)، وقصيدة (سجى الليل)، وجزء من (مسرحية مجنون ليلى) في فيلم يوم (سعيد/ 1940)، و(إلامَ الخُلفُ بينكمُ إلامَ؟)، وقد كتبها شوقي منتقدا صراع أعضاء البرلمان المصري حول قضية السودان ومستقبله.

كذلك لم ينسَ عبد الوهاب أن يفضح الاحتلال الفرنسي لسوريا من خلال تلحينه وغنائه لقصيدة شوقي عظيمة الشهرة: (سلام من صبا بردى أرقُّ/ ودمع لا يكفكف يا دمشقُ). ولفسطين أيضًا صدح بأغنيته الخالدة (أخي جاوز الظالمون المدى) عام 1948 التي كتبها علي محمود طه.

طاف عبد الوهاب بموسيقاه الفاتنة وصوته الرنان بين بيوت الشعراء لينتقي منها أجمل ما صاغوه، فعرفنا بشارة الخوري عام 1933 في رائعته (جفنه علم الغزل)، وأحببنا حسين أحمد شوقي (أجل ابن أمير الشعراء) عندما قدم عبد الوهاب قصيدته الوحيدة (سهرتُ منه الليالي) في فيلم (دموع الحب/ 1935)، وسرحنا مع علي محمود طه وأحمد فتحي في ثلاثية عبد الوهاب خالدة الذكر (الجندول/ الكرنك/ كليوباترا).

تحرك الزمن بسرعة، وسحب عبد الوهاب معه، فشهد الرجل سقوط الأنظمة الخديوية والسلطانية والملكية، حتى جاء عبد الناصر والذين معه وأسسوا الجمهورية، ومازال عبد الوهاب يحتفي بالشعر والشعراء، فاستهل مصر الجمهورية بقصيدة كامل الشناوي (كنت في صمتك مرغم)، ثم (دعاء الشرق) لمحمود حسن إسماعيل، وفي السبعينيات شجانا بقصيدة (نجوى) لعبد المنعم السباعي.

أكثر من 70 قصيدة لحنها وغناها عبد الوهاب، فكان بذلك أخلص المطربين والملحنين احتفالا وتقديرًا للشعر العربي، فلما مات في 4 مايو 1991، بكت القصيدة كما بكى عشاق الموسيقى والطرب! ■

* روائي وتشكيلي من مصر

الخنساء
ملحمة شعر الوفاء العظيم

أحمد فرحات *

في مطلع شهر يوليو من العام 1980، وفي ركن محبّب من أركان مقهى الدوماغو الكلاسيكي الشهير في باريس، رأيته مُنكبّاً على قراءة قصائد للشاعرة العربية الكبيرة: الخنساء (575م – 645م).

كان يُقلّب صفحات ديوانها المعروف بطبعته البيروتية الشعبية، هكذا بشغف ملحوظ، ورقة، ورقة، وبتمعنٍ يكاد يصرفه عما حوله من دبيبٍ غير مزعج، داخل مقهى مشاهير أدباء فرنسا والعالم (من أمثال: جان بول سارتر، ميشال دوغي، خورخي لويس بورخيس، أوكتافيو باث،جورج شحاده، إمبرتو إيكو.. وغيرهم.. وغيرهم).

التفت إليّ، أنا الذي كنت أصلاً على موعد معه لإجراء حوار صحافي، قائلاً بعربية غير ملحونة: تفضّل، تفضّل، أنا في الحقيقة منذهل أشدّ الانذهال بقصائد هذه الشاعرة العربية العظيمة، ومنذ زمن طويل؛ وتراني أقرأ لها الآن، لأنني بصدد كتابة دراسة مطوّلة عنها، وباللغة الفرنسية، كي أعرّف بها شرائح واسعة من قرّاء هذه اللغة داخل فرنسا وخارجها.

ولمّا سألت المستعرب الفرنسي الكبير جاك بيرك (1910 – 1995) عمّا هداه إلى هذه الشاعرة التراجيدية العربية الهائلة، أجابني على الفور، بأن الذي حبّبه أصلاً باللغة بالعربية، وقاده إلى مزيد من التخصّص بها، هو تراثها الشعري الكلاسيكي العظيم، متمثلاً بالخنساء وغيرها من شعراء كبار، كامرئ القيس وطرفة بن العبد وجرير والفرزدق والكُميت والطرماح وأبي نواس والمتنبي... إلخ. «فتراث هؤلاء الشعراء العرب وغيرهم أيضاً، أعتبره من أهم، بل في طليعة تراثات شعوب العالم قاطبة، بخاصة على مستوى فن القول الشعري».

وما سوى لحظات، حتى انضم إلى طاولتنا د. جمال الدين بن شيخ، الشاعر والمفكّر والأكاديمي الجزائري المعروف، ليسمع جزءاً من هذا الحوار، ويشارك فيه بمداخلات غنية ومفيدة، هو الذي كان بدوره مشغولاً، وحتى الثمالة، بنقل نماذج شعرية عربية كلاسيكية ومحدثة، إلى لغة بودلير، فضلاً عن مشاركته الفعّالة بنقل النسخة الأصلية من سِفر «ألف ليلة وليلة» إلى الفرنسية مع المستشرق الفرنسي الكبير أندريه ميكاييل، وقد صدرت الترجمة لاحقاً في إطار سلسلة «البلياد» الشهيرة في فرنسا والعالم. وأهم ما لفتني في كلام د. بن شيخ وقتها قوله إنه وجد نَفَسَاً ملحمياً هائلاً في شعر الخنساء، خصوصاً في قصائد رثائها لأخيها صخر، وأنه سيعرض فكرة استحداث فيلم سينمائي عن هذه الشاعرة العربية، التي تحوّلت إلى نموذج درامي هائل للمرأة المتفجّعة في التاريخ، وأن خير من يتولّى إخراج هذا الفيلم المنتظر، عبقري السينما الجزائرية محمد الأخضر حامينا، وأنه سيحاول ما وسعته المحاولة ترجمة هذه الفكرة معه، وعسى أن تسمح ظروف المخرج وارتباطاته العملية بذلك.

طبعاً لم يظهر مشروع الفيلم العتيد حتى الآن، والسبب، كما أفادني لاحقاً بن شيخ نفسه (وتحديداً في سبتمبر من العام 2003): تعذّر وجود منتج سخي له، لأن الفيلم هو من نوع الأفلام التاريخية المكلفة جداً مادياً.

أشهر شاعرات العرب بإطلاق

فمن هي الخنساء هذه؟ وماذا تمثل في لوحة تراثنا الشعري العربي؟ وما معنى فلسفة تفجّعها شعراً على أخويها صخر ومعاوية؟

طبعاً، كُتب الكثير عن هذه الشاعرة الجاهلية التي أدركت الإسلام، ودخلت في كنف الدين الحنيف، بخاصة بعدما وفدت إلى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أركان من قبيلتها مضر، وأنشدته من شعرها، ثم أسلمت بين يديه، هي وقومها.

لكن الخنساء، ومن جهة أخرى، لم تنل حقها من الشهرة على مستوى شعراء الإنسانية الكبار في التاريخ، وذلك بعيداً من

بانوراما ثقافتنا الشعرية كعرب، حيث أن مكانتها هنا محفوظة، بل ومتقدّمة على غيرها من شعراء / رموز في تراثنا. والتقصير، بالطبع، لا يعود هنا إلى شاعرتنا، ولا إلى غيرها من شعراء عرب أفذاذ، وإنما إلى مؤسساتنا الثقافية العربية بعامة، فهي مقصّرة، بل، على الأصح، غائبة كلياً عن فكرة حضارية كهذه، تتعلّق بنقل ذخائر إبداعنا إلى لغات أخرى شتى في العالم، على الأقل الحيّة من بينها. إلى جانب تفوّقها في الشعر، تجمع الخنساء، واسمها تماضر بنت عمر بن الحارث بن الشريد من بني تميم، بين صفات المروءة والشهامة والبطولة والوفاء النادر والمستدام، هكذا على نحو منشبك وعملي في الوصف والتوصيف.. وقد انعكس ذلك، حتى بعد انخراطها في صفوف المسلمين واستيعابها التعاليم الإسلامية التي تحرّم التفجع الدائم على الميت، لأن الموت، في المحصلة، هو من نصيب كل إنسان على هذه الأرض (كلّ من عليها فان)، غير أنها ظلت ترثي أخويها حتى غابت عن وجه الدنيا. ويذكر الدارسون أن سبب حزن الخنساء الاستثنائي، على أخيها صقر خصوصاً، أنها كانت قد تزوجت رجلاً كريماً مسرفاً، فأتلف ماله. فجاءت إلى أخيها صخر تشكو له ذلك، فقاسمها ماله. وعاد زوجها فأنفق ما جلبته من أخيها؛ فعادت الخنساء إلى أخيها مرتين أخريين، فقاسمها في كل مرة ما كان معه. أمام هذا الأخ العظيم، والكريم المتحضّر جداً (بلغة اليوم)، يحق للشاعرة أن تذهب عميقاً في حزنها اللاواعي على أخيها.

ومما أنشدته في رثاء صخر:

أعينيّ جودا ولا تجـــمدا ... ألا تبكيان لصـخر الـــندى
ألا تبكيان الجريء الجميل ... ألا تبكيان الفـــتى الســـيدا
رفيع العماد طويل النجاد ... ســـاد عـــشيرته أمـــردا
إذا القوم مدّوا بأيديهـمو ... إلى المـــجد مدّ إليه اليـــدا
فنال الذي فـوق أيديهـمو ... من المجد ثم انتمى مُـصعدا
يحمّله القوم مـــا عالهم ... وإن كـــان أصغرهم مـولدا
وإن ذكر المـــجد ألفيته ... تأزّر بالـــمجد ثـــم ارتدى

ظبية العرب الرشيقة

سّميت الخنساء بالخنساء لأنها تحمل أنفاً أخنس، أي متأخّر عن الوجه ذو قصبة منخفضة. وقيل أيضاً إن سبب تسميتها بـ «الخنساء» لأنها تشبه الظبية في توثبها وجموحها و«خناس» هو لقب للظبية العربية المتميزة برشاقتها.

وقد اشتهرت هذه الشاعرة بجمالها النادر، وبياض لونها، وقوامها الرشيق الفتّان، ما جعلها محطّ أنظار شعراء العرب وفرسانهم الكبار، ومن أشهرهم دريد بن الصمّة، فارس قبيلة بني هوزان وأفصح شعرائها، وقد خطبها مرتين، لكنها أفشلت مسعاه بأدب ولباقة، ثم تزوجت لاحقاً من أحد فرسان قبيلتها مُضر، وهو رواحة بن عبد العزيز السلمي، وأنجبت منه أبناءها الأربعة، الذين أصبحوا، في ما بعد، فرساناً يشهد لهم تاريخ الفروسية العربية العريق.

جاك بيرك

جمال الدين بن شيخ

قيل إن الشعراء في زمانها اتفقوا على أنه لم يكن هناك امرأة أقوى منها شعراً، وأجمعوا كلهم على أن النساء يظهرهن الضعف في أشعارهن إلاّ الخنساء، فقد فاقت الرجال في قول الشعر، وخصوصاً في الرثاء. ذُكر عن لسان الشاعر جرير انه سُئل يوماً: من أشعر الناس؟ فكان جوابه على الفور: «أنا.. لولا الخنساء».

بوجيز العبارة، تخصّصت الشاعرة الخنساء بالوفاء، بشعر الوفاء العظيم، حتى غدت من أشهر شاعرات العرب، إن لم تكن أشهرهن على الإطلاق.. ومن ملحمة وفائها لأخيها نقتطف:

يُذكّرني طلوع الشمس صخراً ... وأذكرُهُ لكل غروب شـــمس
ولولا كثرة الباكين حـــولي ... عـــلى إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يبكون مثل أخـي ولكن ... أعزّي النفس عـــنه بالتأسّي
فلا والله لا أنســـاك حتى ... أُفـارِقَ مُهجتي ويُشَقُّ رَمسي
فقد ودّعتُ يوم فـراق صخرٍ ... بي حـــسانَ لذّاتي وأُنسي
فيا لهفي عليه ولهف أمـــي ... أيُصبِحُ في الضريح وفيهِ يُمس■

*كاتب وباحث من لبنان

عبد اللّه زهدي
كاتب الحرمين الشريفين

د. محمد حسن *

هو عبد الله زهدي أفندي بن عبد القادر أفندي النابلسي، يرجع أصله إلى مدينة نابلس بفلسطين، وقد هاجر منها أجداده إلى الشام، وهو من سلالة تميم الداري حسبما كان يكتب على الكثير من لوحاته، وكما كتب على سبيل أم عباس، وكما كتب على الجدار القبلي من أوله إلى آخره على يمين الداخل من باب السلام بالحرم النبوي الشريف(1)، هاجر مع والده سنة 1251هـ/1835م، إلى مدينة كُوتاهية التركية، وفي العام نفسه رحل إلى مدينة إسطنبول عاصمة دولة الخلافة العثمانية، وهو الرأي الذي رجحه مصطفى اوغور درمان ونهاد چتين(2)، وهو عكس ما كتبه محمد طاهر الكردي من أنه ولد بالآستانة(3).

كانت بدايته مع الخط العربي بتشجيع من والده، فتتلمذ على كبار الخطاطين في عصره، من أمثال راشد أفندي الشهير بأيوب علي(4) حارس ضريح الصحابي أبي أيوب الأنصاري، وكذلك الخطاط قاضي العسكر مصطفى عزت أفندي، حيث تعلم منه خطي الثلث والنسخ، ولما حذق هذا الفن عين مدرسًا للرسم والخط في مدرسة تعليم الخط (مشقخانة)(5) بجامعة نور عثمانية بالآستانة(6)، والمهندسخانة البرية الملكية (مهندسخانة برّئ همايون)(7).

عبد اللّه زهدي أفندي ابن عبد القادر أفندي النابلسي، يرجع أصله إلى مدينة نابلس بفلسطين، وقد هاجر منها أجداده إلى الشام، وهو من سلالة تميم الداري حسبما كان يكتب على الكثير من لوحاته، وكما كتب على سبيل أم عباس، وكما كتب على الجدار القبلي من أوله إلى آخره على يمين الداخل من باب السلام بالحرم النبوي الشريف

كانت بداية شهرة عبد الله زهدي عندما أراد السلطان عبد المجيد إعادة تعمير المسجد النبوي الشريف وتوسعته بعد انهيار إحدى القباب فيه(8)، فطلب السلطان من الخطاطين الموجودين في تركيا تقديم نماذج من أفضل ما لديهم من خطوط، ليتم اختيار الأفضل منها وإسناد شرف الكتابة على جدران المسجد النبوي إليه، وشارك في هذه المسابقة كبار الخطاطين الأتراك، وأشرف على عملية اختيار الخطوط المناسبة السلطان عبد المجيد نفسه، إذ كان خطاطًا ماهرًا، ودرس فن الخط على كبار خطاطي عصره، ويعمل على تشجيع الخطاطين ورعايتهم، وكان من بين من تقدم للمسابقة الشاب زهدي، الذي لم يكن مشهورًا قبل ذلك وعند قيام السلطان بإلقاء نظرة فاحصة على اللوحات الخطية المعروضة، استوقفه ما كتبه الخطاط عبد الله زهدي أفندي، وكان حاضرًا، فقال له: أنت الذي كتبت هذا يا بني؟ فأجابه نعم فدعا له السلطان بالتوفيق والنجاح، وأمر بتخصيص معاش له مدى حياته قدره 7500 قرش، ثم أمره بالتوجه إلى المدينة المنورة لكتابة خطوط المسجد النبوي الشريف، لكن اختيار السلطان عبد المجيد لهذا الشاب للقيام بهذه المهمة لم يرق لغيره من كبار الخطاطين في عصره.

سبع سنوات في المدينة المنورة

وبعد إتمام عملية البناء انتقل العمل إلى الخطاطين والمزينين- وعلى رأسهم عبد الله زهـدي أفندي- لكتابة الخطوط على جدران المسجد، وظل عبد الله زهدي يمارس عمله في المدينة المنورة لمدة 7 سنوات(9)، أنجز فيها العمل على أحسن وجه، فكتب مجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والأشعار التي قيلت في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقال إن السلطان عبد المجيد أرسل فرقة أناشيد إلى المدينة المنورة

كانت بدايته مع الخط العربي بتشجيع من والده، فتتلمذ على كبار الخطاطين في عصره، من أمثال راشد أفندي الشهير بأيوب علي (٤) حارس ضريح الصحابي أبي أيوب الأنصاري، وكذلك الخطاط قاضي العسكر مصطفى عزت أفندي، حيث تعلم منه خطي الثلث والنسخ، ولما حذق هذا الفن عين مدرسًا للرسم والخط في مدرسة تعليم الخط (مشقخانة) (٥) بجامعة نور عثمانية بالآستانة (٦)، والمهندسخانة البرية الملكية (مهندسخانة بّرِ همايون)

لإنشاد التواشيح الدينية والمدائح النبوية، وذلك من أجل الترويح عن عبد الله زهدي ومن معه، ولشحذ هممهم وتشجيعهم على إتقان العمل وإتمامه على أكمل وجه وأفضل صورة، وفي جمادى الآخرة سنة 1274هـ/1858م، أنعم عليه السلطان بالنيشان المجيدي من الدرجة الثالثة نظرًا لاتصافه بين أقرانه بالمهارة الفائقة وحسن الاستعداد الفني، والمعروف أن النيشان المجيدي يبدأ من الدرجة الخامسة ولكن إعطاء زهدي النيشان من الدرجة الثالثة وعدم إعطائه له من بداية الدرجة ينم عن مدى تقدير السلطان لفن زهدي (10).

وخلال عمل زهدي أفندي وصله نبأ وفاة السلطان عبد المجيد في ذي الحجة 1277هـ/يونية1861م (11)، وجاءه الأمر بعد ذلك من إسطنبول بالتوقف هو ومن معه عن العمل في ترميم المسجد النبوي وتزيينه بالخطوط، وقد ساء هذا القرار المفاجئ عبد الله زهدي أفندي والمسؤولين عن تعمير المسجد النبوي الشريف، فطلب المشرف العام على عملية التوسعة والتعمير «عرياني زاده أسد أفندي» من زهدي أفندي التوجه إلى إسطنبول لإقناع المسؤولين هناك بالعدول عن قرارهم، والاستمرار في عملية التعمير، وفعلاً سافر

زهدي أفندي إلى هناك، ولكن مهمته باءت بالإخفاق، بل إن الأمر تعدى ذلك حيث أُبلغ بانقطاع معاشه الذي كان قرره له السلطان عبد المجيد طول حياته، أخفق عبد الله زهدي أفندي في مهمته، فعاد إلى المدينة المنورة لجمع المال من أهل الخير لاستكمال ما تبقى من عملية التعمير، حيث أكمل هذا الأمر على أحسن وجه.

والخطوط التي كتبها عبد الله زهدي أفندي بالمسجد النبوي الشريف، لا تزال باقية إلى الآن، وتشهد بروعة هذا الفنان الملهم وعبقريته، وقد ورد في كتاب فن الخط أنها «من حيث طولها تبرز لنا أن عبد الله زهدي هو صاحب أكبر قدر من كتابات خط الثلث الجلي، بحيث لا يتعداه خطاط آخر في الدنيا؛ إذ يزيد طول الشريط الكتابي الذي كتبه بالثلث الجلي عن 2000 متر، منها 240 متراً على شكل ثلاثة أسطر فوق جدار القبلة، و140مترًا على رقبة القبة» (12).

خطاط كسوة الكعبة

بعد أن أتم عبد الله زهدي عمله في المسجد النبوي الشريف عاد مرة ثانية إلى إسطنبول لاسترداد معاشه الذي قرر له، ولكنه أخفق في مهمته تلك، وبعد ذلك توجه إلى مصر، وكان صيته قد سبقه إلى تلك الديار، فاستقبله الخديو إسماعيل، وأطلق عليه لقب «خطاط مصر الأول» (13)، وذلك سنة 1283هـ/1866م، وأوكل إليه مهمة كتابة خطوط المساجد، والمدارس، ودوائر الدولة، وأنعم عليه الخديو إسماعيل برتبة من الدرجة الثانية(14)، ثم كلفته الحكومة المصرية كتابة الآيات القرآنية على كسوة الكعبة المشرفة(15)، كما كتب بخطه سبيل أم عباس بالصليبية بالقاهرة بالخط الثلث الجلي سنة 1284هـ وكذلك جامع الرفاعي، ولوح تأسيس مدرسة خليل أغا.

كما درس عبد الله الزهدي فن الخط العربي في المدرسة الخديوية والمدارس في تلك الديار عامة، وقد تخرج على يديه الكثير من كبار الخطاطين في مصر، وكتب الزهدي أفندي نسخة من المصحف الشريف لأحد الوجهاء واسمه حسين باشا، وذلك مقابل ثلاثين ألف قرش تركي، إلا أنه كتب أكثر من نسخة من سورة الأنعام ومعها بعض سور القرآن، والأدعية الشريفة، وقصيدة البردة للبوصيري، أخذ على

يديه كثيرون من الخطاطين في مصر، ومنهم محمد جعفر، واستمر يُعَلِّمُ الخط بالمدرسة الخديوية، وبعد حياة حافلة بالعطاء توفي خطاط المسجد النبوي الشريف كما أحب أن يلقب دائمًا سنة 1296هـ/1878م، ودفن بالقرب من ضريح الإمام الشافعي رحمه الله بالقاهرة، وكانت جميع آثاره حجة للخطاطين، وهو الذي أثرى مصر بعطاءات خطية ألهمت الذين عاصروه كما ألهمت من جاء بعده، وأغنت مداركهم الخطية، رثاه أحد الشعراء بهذه الأبيات:

مـات رب الخطّ والأقلامُ قد ... نَـكَّست أعـــلامها حُزنًا عَلَيــهِ
وانثَنَت مِـن حَسرَةٍ قاماتُها ... بَعد أن كـانت تُباهي فـي يَدَيهِ
وَلذا قَـد قُلت فـي تَأريخـه ... مات زُهدي رَحمة الله عَلَيـهِ(16)

وقد أرخ لوفاته على طريقة حساب الجُمل في عبارة «مات زُهدي رَحمة الله عَلَيـهِ» التي تعني سنة 1296هـ وهي سنة وفاته: 441 +26 + 648 + 66 + 115 =1296 ■

*باحث بمركز الخطوط، مكتبة الإسكندرية

هوامش:

- محمد طاهر الكردي، تاريخ الخط العربي وآدابـه، (القاهرة، المطبعة التجارية الحديثة بالسكاكيني، الطبعة الأولى، 1939م)، 342.

2 - أغور درمان، فن الخط، 206.

3 - طاهر الكردي، تاريخ الخط العربي وآدابه، 341.

4 - طاهر الكردي، تاريخ الخط العربي وآدابه، 341.

5 - أغور درمان، فن الخط، 206.

6 - طاهر الكردي، تاريخ الخط العربي وآدابه، 341.

7 - أغور درمان، فن الخط، 206.

8 - مرت على عمارة السلطان قايتباي للمسجد النبوي بعد الحريق نحو 387 سنة، وكانت تجديدات وعمارة قايتباي هي آخر توسعة للحرم النبوي وهذه المدة كافية لأن تجعل كثيراً من أجزائه يعتريها الخراب وقد آلت بعض سقوفه للسقوط فرفع شيخ الحرم وقتئذ داود باشا الأمر للسلطان عبد المجيد سنة 1263هـ/1846م، فاهتم بالأمر وصدر أمره بإرسال المهندسين والخبراء والنجارين والصناع والمؤن وبعد إعداد ما يلزم بدأت العمارة لكامل المسجد في سنة 1265هـ/1848م، وانتهت في سنة 1277هـ/1860م، واستغرقت العمارة نحو 13سنة. لمزيد من التفاصيل انظر: علي حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، (المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية 1405هـ)، 88.

9 - أغور درمان، فن الخط، 206؛ يذكر طاهر الكردي، أنهم 3 سنوات، تاريخ الخط العربي وآدابه 341.

10 - محمد علي عبد الحفيظ، دور الجاليات الأجنبية والعربية في الحياة الفنية في مصر، 421.

11 - عبد القادر ده ده أُوغلو، السلاطين العثمانيون، تعريب محمد جان، (تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع)، 80.

12 - أغور درمان، فن الخط، 206.

13 - أغور درمان، فن الخط، 206.

14 - محمد علي عبد الحفيظ، دور الجاليات الأجنبية والعربية في الحياة الفنية في مصر، 421.

15 - طاهر الكردي، تاريخ الخط العربي وآدابه، 341.

16 - أغور درمان، فن الخط، 206.

شوتا روستافيلي
شاعر جورجيا العظيم

فيصل رشدي *

كلما سلطنا الضوء على ثقافات أوروبا الشرقية، وجدنا أنفسنا غير عارفين بهذه الثقافات؛ فهناك عوائق متعددة من أبرزها عائق اللغة التي تحول من دون معرفة هذه الثقافات.

لا ننسى فضل الصحفي المصري الكبير الأستاذ أسعد طه في تقديمه برنامج «يحكى أن» الذي سلط الضوء على هذه الثقافات، ومكننا من الإطلاع عليها.

ذات مرة سألته سؤالًا مباشرًا: هل تعرف شاعرًا جورجيًا اسمه شوتا روستافيلي؟ ولما أجابني بالنفي قلت له على طريقته في تقديم برنامج «يُحكى أن»: لنبدأ الحكاية من البداية.

كانت جورجيا مملكة يحكمها ملك اسمه جورجي الثالث، وقد بلغ من الكبر عتيًا، وكانت له ابنة واحدة اسمها تمار، أراد أن تخلفه في الحكم. فاهتم بتقديم يد العون لها من خلال تعريفها بمبادئ الحكم الرشيد وحثها على العدل بين الناس.

لم يكن الشاعر شوتا روستافيلي بعيدًا عن البلاط الملكي، فقد كان قريبا من سدة الحكم، وبالعودة إلى بداياته الأولى، فقد رأى النور عام 1172 ميلادي، وعاش فقيرًا وحزن لموت أبويه، لكن طموحه الكبير أوصله إلى أن يكون «الخازن المالي» للمملكة الجورجية. لا غرابة في أن يصبح روستافيلي شاعرًا موهوبًا، فهو يتميز بخيال واسع وقراءات متعددة للثقافات مثل اليونانية والمصرية والفارسية، وتأثر كثيرًا بالثقافة العربية.

وقد ظهر أثر تلك الثقافة في استشهاده بحكاية أمير عربي اسمه «روستفان» وهو الاسم الذي جعل منه مثلًا للحكم الرشيد والإنصاف والعدل والرحمة. مبرزًا من خلاله القيم الايجابية للملك الجورجي وابنته.

كان شوتا روستافيلي ذكيًا في طرحه لمسألة الحكم، يقول في ملحمته الشهيرة «الفارس في إهاب النمر» التي ترجمها نزار خليلي، ونشرت في المطبعة الجديدة، دمشق، سنة 1984:

«كـــان فـــي بلاد العـــرب
مـــــلك اسـمه روســتفان
يحـــــيى بيـــــمن الله
ذا جـــلال واقتـــــــدار
ووفرة في الجند والفرسان
عـــادلا رحيـــما متـــبصرا
وحـــــاكما بإحـــــسان»

هذه الكلمات كان لها وقع خاص لدى الملك جورجي الثالث وابنته الملكة تمار، إذ شكلت مثالًا للوطنية الحقة، حيث نجد تبلور الصورة الإيجابية للحاكم في التربية على الحكم من خلال الأمير العربي روستفان.

هناك سؤال يتبادر إلى الذهن: هل كان شوتا روستافيلي يحب الملكة تمار؟ والسؤال الأكثر إلحاحًا: لماذا سافر شوتا روستافيلي إلى القدس بعد زواج تمار من أمير الجند؟ فهل كان السفر مخرجه الوحيد للنسيان؟ كان شوتا روستافيلي في بلاط الملك -فهو كما سلف الذكر كان خازنًا للمملكة- وكان قريبًا من تمار وأحبها حبًا لا يستطيع المرء تصوره، كان يقول فيها الشعر، متغزلًا بها واصفًا جمالها الساحر.

كان جورجي الثالث والد تمار هو من اختار زوج ابنته من خلال مبارزة بين الإثنين، هكذا لم يرض الشاعر روستافيلي بالهزيمة التي مُني بها، حينما رأى أمام عينه زواج المرأة التي أحبها وأراد أن يتزوج بها. قرر روستافيلي السفر بعيدًا، إلى مكان تسمو فيه الروح وتكتب فيه الأشعار بحرية مطلقة، بعيدًا عن مملكة جورجيا، هذا المكان هو بيت المقدس بفلسطين، هناك أكمل ملحمته الشهيرة «الفارس في إهاب النمر».

لا زال الجورجيون يخلدون اسم الشاعر شوتا روستافيلي، الذي توفي عام 1216، وترجمت ملحمته إلى أزيد من أربعين لغة. فإذا كانت مناسبة الزواج عند الجورجيين تعتبر حدثا مهما فإن أغلى هدية تقدم للأزواج هي ملحمة شوتا روستافيلي ■

* باحث من المغرب

مِسْبَحَةُ يُسْر

د. تامر فايز

تراها، تحدِّق فيها، تـراودك ذاتك بلمسها، وإحصاء حبَّاتها، ما الجديد؟ ما المختلف؟ ما الذي يجعل الناس يهرولون وراءها مهللين بسطوتها عليهم، مستشعرين بركة التقرب إليها؟ يدفع الفضول الست حمدية كي تسأل عم فهيِّم، لماذا هذا التجمع الغفير؟ أمِن لحم في جمعية الحكومة؟ أم يا تُرى أمسكوا بالحرامي الذي سرق جاموسة عم حسنين بالأمس؟ ينظر إليها عم فهيِّم باستهجان. كيف لحمدية الذكية ألَّا تعرف ما منَّ الله به على أهل القرية من خير وبركة على يد هذه المسبحة؟! إنها تشفي - بإذن الله - العليل؛ إنها تبرأ الأكمه، وتُسمع الأصم، وتُبصر الأعمى، وتُزوج العانس، وتملأ العقيم.إنها تزداد حبّة كل عام من دون أن ينفك خيطُها!

وعلى الفور، تهرع حمدية إلى بيتها المكتظ بنسوة القرية، اللائى ما جئن إلَّا لحل معضلة طفلها الماسِك، ذلك اللقب الذي أطلقه عليه أهل بلدته منذ مولده؛ فمذ غادر أبوه إلى حرب اليمن لاستجلاب الرزق له ولأمه، والماسِك يؤثر على نفسه إلا أن يبولَ كبقية بني جيله من الأطفال الأصحَّاء. لم يكن الماسك مريضًا على ما يبدو، ولكنه من حين لآخر تقف المياه في جسده من دون حراك، حتى يتغير لونه ومعه تتبدل حياة حمدية المتفردة من دون عائلها المقاتل. نصحها عقلها وبعض نسوة بلدتها بالذهاب إلى رجل مبروك يقطن أعالي الجبل في منطقة نائية تبعد عن قريتها مقدار نصف اليوم سيرًا على الأقـدام. تتثاقل حمدية ذاهبة للمبروك، خائفة عند هجوم الليل الدامس عليها في طريق مهجور. وتفاجأ عندما تصل لتجد رهطًا كبيرًا يصطف أمام المبروك في انتظار أدوارهم في الشفاء المبرور. يرمقها المبروك وهي في نهاية الصف، حاملة ملبسًا للطفل كي تمنحة للمبروك ليساعدها على شفاء ابنها، وما أن أمسك الرجل بالملبس حتى قذفه قاسيًا في وجه الأم الشقيَّة، آمرًا إياها بالذهاب إلى المشفى البحري.

> **نصحها عقلها وبعض نسوة بلدتها بالذهاب إلى رجل مبروك يقطن أعالي الجبل في منطقة نائية تبعد عن قريتها مقدار نصف اليوم سيرًا على الأقدام. تتثاقل حمدية ذاهبة للمبروك، خائفة عند هجوم الليل الدامس عليها في طريق مهجور**

وفي طريقها إلى بيتها، إذ بأخيها الكبير محمود يقابلها ليرى البؤس في عينيها. فتفضى له عما جرى، فتأخذه نخوة قديمة كانت إلى اصطحابها للمشفى البحري بالطفل. وعند الدخول، يقابلهم طبيب متجهم الوجه ليقول لهم ليس فيه من شيء، خذوه واذهبوا.

حارت حمدية وأخوها في الأمر. أيشعران بالسعادة لكلام الطبيب الميري، أم يحزنان لعدم الوصول لحل للطفل؟ تبيت حمدية ليلتها مكلومة على وليدها، مرتجفة من سطوة الليل؛ فبيتها غير مسقوف لضيق اليد، فلم يصل المدد من محارب اليمن بعد. أصبح الضوء يشق عنان السماء، ومعه تتسارع الأفكار في رأسها القروى الذي يؤمن بفكرة البركة والمبروكين. تسأل نفسها لماذا لا أذهب إلى صاحب المسبحة، فالكلام الذي سمِعته عنه يروق لها مع بزوغ نداءات الفجر المنير. تنتظر حمدية بداية ذهاب أهل القرية إلى حقولهم حتى تكثر الخطوات فى الطرقات وتتمكن من الخروج إلى مكان

مسبحة يسر. تصل - أخيرًا – إلى مكان حامل المسبحة لتشهد عددًا غفيرًا من الناس في انتظار يسر المسبحة. تشعر بحركة متثاقلة على كتفها، ما هذا ياتُرى؟ إنه الماسِك، لأول مرَّة منذ أمد بعيد يتحرك من سباته العميق شاخصًا بصره تجاه المسبحة، تذهل حمدية مما ترى على كتفها، فتندفع نحو حامل المسبحة بخطوات غير إرادية، حتى أفسح الجميع لها الطريق للرجل ومسبحته؛ وإذ بالطفل يحملق مرّة في عين الرجل، ومرَّة أخرى في حبات المسبحة، وما أن يشهد الرجل اشتياق الطفل لليسر حتى يسرع في وضع مسبحته على كتف الماسك الأيمن. وفي مشهد من جمع الحاضرين يتحول الماسك إلى مُمطِر لسيل من المياه على كتف أمه، ولفرط سعادتها أصبحت متهللة مكبرة متمنية تحول مياه الماسك إلى بحيرة تسبح فيها بأحلام اليُسر. ومن يومها، والأم لا يغمض لها جفن إلا بوضع المسبحة على كتف الماسك الأيمن، يالها من أم مسكينة ؟! لم تفكر يومًا في ضياع الحل السحري، وما تحمله لها الأقدار. ففي عشية يوم من الأيام ذهبت للرجل ومسبحته كي تيسِّرَ على الماسك، فإذ بهول المفاجأة ينهال عليها، لقد انتقل صاحبُ المسبحةِ إلى رحمة ربه، ولا يعرف أحد سواه أين ذهبت المسبحة ! ■

آثار درب اللبانة وميدان صلاح الدين بالقلعة تتحدى الزمن

قبة مسجد قاني باى الرماح

القاهرة – رانيا هلال

في إطار اهتمام الآثاريين والمؤرخين بالتراث الموشك على الاندثار، أقام مركز درب اللبانة للثقافة والفنون، ندوة للمؤرخ أبوالعلا خليل بعنوان «آثار منطقة درب اللبانة وميدان صلاح الدين» بحضور نخبة من المهتمين بالآثار بشكل عام وبالآثار الموشكة على الاندثار بشكل خاص.

تناول «خليل « فى مستهل كلامه عن مسجد قاني باي الرماح بميدان صلاح الدين بالقلعة وقال: منشىء هذا المسجد هو الأمير «قاني باي الرماح» أحد أمراء السلطان قايتباى عام 908هـ / 1503م . كانت بدايات قاني باي حين جلبه إلى مصر تاجر العبيد «ولي الدين» ضمن جملة أطفال صغار، فاشتراه السلطان الأشرف قايتباي وتعهده بالتربية ضمن مماليكه. نال قاني باي الرماح عناية ورعاية السلطان قايتباي حتى أعتقه من رقه، ومازال نجم قاني باي الرماح في إقبال وإدبار إلى أن تولى العرش السلطان الغوري عام 906هـ فكلفه بالنظر في المظالم التي يقدمها الناس، وقد بلغت قسوته أنه كان إذا ظفر بأحد من الفلاحين الضعفاء يوسطه - والتوسيط هو أن يضرب الرجل من وسطه ضربة قوية بالسيف فتقطعه نصفين - أو يسلخه من رأسه إلى عند أقدامه، وكان شديد القسوة كثير الجهل.

ويستطرد خليل: «وفي عام 920هـ خرج قاني باي الرماح على رأس جيش كبير ليرابط في حلب، وظل بحلب مدة تسعة أشهر، عاد بعدها للقاهرة ولم يلبث أن مرض بعد عودته بقليل ولم يزد مرضه عن خمسة أيام، توفي بعدها في شهر ربيع الأول عام 921هـ / 1515م عن عمر نحو ستين سنة وقيل أنه مات مسمومًا من بعض خواصه في مقر إقامته بباب السلسلة بقلعة الجبل، فأمر السلطان الغوري أن ينزل إلى داره وهو ميت، فنزلوا به فى تابوت إلى بيته بحدرة البقرة – المطلة على بركة الفيل بدرب الجماميز – ثم أخرجت جنازته في موكب حافل سار فيه كبار الأمراء وتقدم نعشه

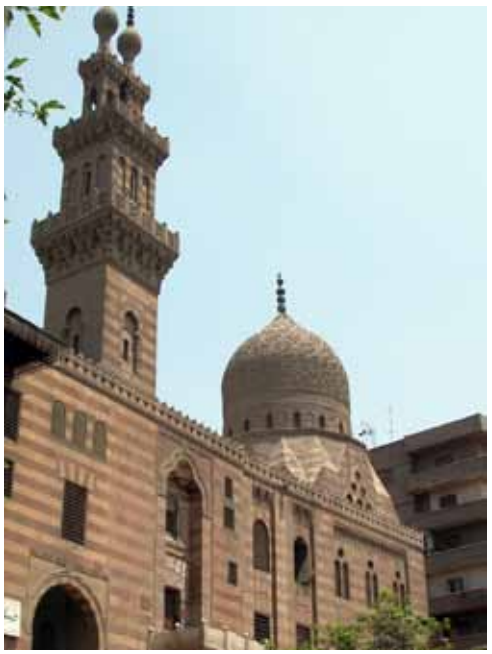

مسجد قاني باى الرماح تكية تقى الدين البسطامي

جمل يحمل على جانبيه صناديق مملوءة بالفطير والشريك، توزع على طول طريق الجنازة، ويعرف ذلك بالكفارة أى تكفيرًا عن كل ذنب وقع فيه المتوفى، ثم حضر السلطان الغوري الجنازة مع باقي المشيعين ودفن قاني باي بمسجده الحالي بميدان صلاح الدين بالقلعة، وأقامت له زوجته سعد الملوك نعيًا ثلاثة أيام متوالية.

ويضيف ابن إياس: «وقد أراح الله تعالى الناس منه ولم يثن عليه أحد من الناس بخير قط حتى قيل فيه: (جهنم حيث قالت ...لقاني باي خذ حذارك/ قد زاد نيران وجدي ...من كثرتي لانتظارك).

بوابة درب اللبانة

أما بوابة درب اللبانة فترجع إلى منشآت القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وهي متخلفة من أحد الدور المملوكية التي كانت في هذه المنطقة، والبوابة رغم ما أصابها من إهمال، ما زالت تحتفظ ببهائها ورونقها، وتقع البوابة في مدخل حجري غائر يكتنفه مكسلتان حجريتان صغيرتان، ويعلو الباب الخشبي المتهالك عقد مدبب تزينه زخارف إشعاعية جميلة وتنتهى البوابة بعقد مدبب كبير ذي صدر مقرنص بمقرنصات حجرية على هيئة متراصة أفقيًا.

تكية تقي الدين البسطامي

كما تطرق بعد ذلك إلى الحديث عن تكية «تقي الدين البسطامي» بمنطقة درب اللبانه أيضًا، وأوضح أن «التكية» هي دار مخصصة لإيـواء وسكنى الصوفية والـدراويـش المنقطعين بداخلها للعبادة، وقد سميت تكية لأن أهلها كانوا متكئين ومعتمدين في أرزاقهم على ما يرد إليها من ريع أوقافها، ومنشىء هذه التكية أو الزاوية هو السلطان المملوكي «المنصور حسام الدين لاجين» 697هـ لسكنى الولي الصالح الشيخ «تقي الدين رجب بن اشترك» التركماني العجمي.

وعن الحياة داخل هذه التكايا يذكر الرحالة التركي «اوليا جلبي» الذي زار مصر عام 1092هـ فكتب فى سياحتنامه مصر يقول (كان للتكية صحن يحيط بجوانبه الأربعة حُجر متعددة الطبقات لسكنى الفقراء، يقضي كل واحد منهم وقته منزويًا فى العبادة والخلوة وإذا توفى صاحب الحجرة تباع مخلفاته وتشترى بثمنها أجزاء القرآن الكريم، وتوقف ليتلوا منها الفقراء ويهدوا ثوابها إلى روحه ويذكروا اسمه بخير).

ومن هؤلاء الفقراء المعتكفين بزاوية تقي الدين البسطامي «عمر بن محمد نجم الدين النعماني» قاضي دمشق ومحتسبها – والحديث للسخاوي في كتابه «الضوء اللامع».

ويضيف: قد عرفت هذه التكية بتكية العجمي لأنها خاصة بفقراء الأعجام -وبخاصة الإيرانيين- منهم كما عرفت بتكية تقي الدين البسطامي نسبة إلى الشيخ محمد البسطامي أحد مشايخها السابقين، وتعد بوابة تكية تقي الدين البسطامي تحفة فنية رائعة، بلغت الكمال في الذوق الجميل والحس المرهف العالي للفنان المسلم مما جعلها تحظى بقدر كبير من صور المصورين والرسامين على مرالعصور الذين وقفوا أمامها منبهرين لتكون بحق، شهادة للفنان المسلم البارع ولذوق فني جميل نفتقده اليوم في الخرسانة الصماء ■

لوحة لطيفة بنت مكتوم (بعنوان عائلة)

افتتح مهرجان أبوظبي 2016

«إمارات الرؤى» يجدد تراث التشكيل

لوحة من مشروع بعنوان (القبة) للفنان محمد أحمد إبراهيم

ايمان الهاشمي مع منحوتة بتقنية الورق والنحاس تشبه الخيمة في التراث

للفنانة لمياء قرقاش

لوحة للفنان عبد القادر الريس

للفنانة لمياء قرقاش

لوحة بتقنية الكولاج بالسجاد للفنانة فاطمة المزروعي

أبوظبي- فاطمة عطفة

يتجدد مهرجان أبوظبي للثقافة والفنون في كل ربيع، جاء افتتاح دورة هذا العام مميزًا بعشرين عملًا فنيًا ضمها معرض «إمارات الرؤى». تمت بتكليف حصري من المهرجان. إضافة إلى 30 عملًا أخرى بين مقتنى ومستعار.

اندرجت الأعمال تحت سبعة موضوعات هي: الأمة والوحدة، والجغرافيا والطبيعة، والعمارة والعمران، والبورتريه والهوية، والدين والروحانية، واللغة والخط العربي، والتقاليد والتراث.

أظهرت الأعمال الجانب المتجدد للفنون في دولة الإمارات اليوم، من خلال مجموعة واسعة من المنحوتات الداخلية والخارجية واللوحات والصور الفوتوغرافية والكولاج والفيديو والأعمال الفنية التركيبية.

للفنان حمدان بطي

لوحات للفنان عبد الواحد مع لوحاته

منحوتة الضاد للفنانة عزة اقبيسي

ضمت قائمة المشاركين في المعرض بالتكليف الحصري كلًا من الفنانين: محمد الأستاذ، عمار العطار، خالد البنا، سعيد المدني، آمنة الدباغ، إيمان الهاشمي، زينب الهاشمي، سارة العقروبي، فاطمة المزروعي، عزة القبيسي، حمدان بطي الشامسي، هند بن دميثان، محمد أحمد إبراهيم، عائشة جمعة، ليلى جمعة، لطيفة بنت مكتوم، خالد مزينة، سلامة نسيب، خالد الشعفار، خليل عبد الواحد. وتضم قائمة الفنانين المشاركين بأعمال في معرض إمارات الرؤى كلًا من: ابتسام عبد العزيز، علي العبدان، زايد العبسي، أحمد سعيد العريف الظاهري، جاسم العوضي، شمسة الظاهري، عبد العزيز الفضلي، أحمد الفارسي، ريم الغيث، يوسف الهرمودي، خلود الجابري، الشيخة اليازية بنت نهيان آل نهيان، عمران العويس، محمد القصاب، عبدالقادر الريس، سمية الريس، محمد المزروعي، كريمة الشوملي. والأعمال الفنية التركيبية: ميثة دميثان، عفراء بن ظاهر، لمياء قرقاش، محمد كاظم، فاطمة لوتاه، نجاة مكي، محمد مندي، عبدالرحيم سالم، حسن شريف، حسين شريف، عبيد سرور ■

الشفاهة أصل التاريخ

فاطمة المزروعي *

تحفل كتب التاريخ بالأحداث والمواقف على مر الأزمان، وبرغم هذا يجد الإنسان أن هناك فجوات زمنية طويلة في عمر الإنسانية من دون تدوين بل بدون ذكر، ويعتبر بعض العلماء أن الجزء الأكبر والأطول من عمر الإنسانية بقي مجهولًا ولم يتم تدوين أحداثه وقصصه، وهم يشيرون إلى الحقبة التي عاش فيها الإنسان دون الكتابة والحديث - الكلام.

وهو ما أشار له الدكتور محمد ماهر حمادة، في مؤلفه البحثي القيم: الكتاب في العالم، عندما قال: «يعتبر اختراع الكتابة الحد الفاصل بين عهدين، عهد ما قبل التاريخ والعهد التاريخي، حيث يميز العلماء والمؤرخون في تاريخ الإنسانية المدون بين عهدين العهد الذي لم تصلنا سجلات مكتوبة عنه، وهو عصر طويل موغل في القدم، وتصلنا المعلومات عنه من البقايا المادية لشعوب تلك الفترة، والعهد التاريخي الذي يبدأ عادة في أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد حيث بدأت تصلنا سجلات مكتوبة استطعنا أن نتعرف بواسطتها على حياة تلك الشعوب».

يمكن أن نضيف أنه رغم هذا العمر القصير في تاريخ الإنسانية فإن المراجع التي نعتمد عليها تتلبسها بعض الضبابية والغموض، وبالتالي فإن ما يطلق عليه العهد الثاني التاريخي ليست الحقبة التاريخية الواضحة بكل تفاصيلها، الغريب في هذا السياق أن كثيراً من الأحداث التاريخية نقلت لنا بواسطة المشافهة – الحكي أو الكلام - أي من خلال ما يعرف بالراوي والذي يعرف أيضًا بالقاص، حيث يروي الأجداد للآباء الذين يقصون الأحداث على الأبناء وتنقل إلى الأحفاد وهكذا تستمر السلسلة جيلا وراء جيل. وهذا يعطي دلالة على قدم مهنة الراوي إذا صح تسميتها بالمهنة.

صحيح أن بعض القصص شهدت زيادات وتهويلات، حتى تحولت إلى ما يشبه الأساطير والأحداث الخارقة للعادة، وهو عيب خطير إلا أنها تظل صالحة للاستئناس بها في فهم بعض المواقف أو العادات لدى بعض الشعوب المنعزلة أو البعيدة عن وهج الحضارة.

لذا فإن الـراوي، وما يعرف بالتاريخ الشفاهي بدأ مع بداية الإنسان واستمر حتى يومنا هذا، فبمجرد أن تعلم الإنسان الكلام فإنه تعلم سرد المواقف والأحـداث ونقلها للآخرين لتستمر خالدة في الذاكرة.

بعض المؤرخين يُرجع ظهور الراوي كمهنة إلى منتصف القرن الماضي في الغرب، إلا أن نظرة لمسيرة الشعوب العربية منذ ما يعرف بالعصر الجاهلي تكشف لنا أن العرب اعتمدوا كلياً على المشافهة في كل شؤون حياتهم، وكان عدد من يقرأون ويكتبون لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، اعتمد العرب على الذاكرة في حفظ القصائد والقصص وأوصاف الحروب والمعارك والبلدان والديار، وما نقل إلينا منها تم نقلها بنظام الشفاهة أي الراوي. وإذا كان المؤرخ ثادسيتون يعرف التاريخ الشفوي بأنه «ذكريات وتذكرات أناس أحياء حول ماضيهم»، فإنني أعتقد أن أصل هذا النظام الشفهي عربي بامتياز ■

*كاتبة من الإمارات

أهدى فوزه إلى سلطان بن زايد

راشد أحمد المزروعي: جائزة العويس شرف وفخر

حصل الدكتور راشد المزروعي، مدير عام مركز زايد للدراسات والبحوث التابع لنادي تراث الإمارات جائزة العويس للإبداع في دورتها الثالثة العشرين، فرع الجائزة الثقافية الخاصة، وذلك بالمشاركة مع كل من الدكتور غسان الحسن والمترجم كامل يوسف حسين.

وأعرب الدكتور راشد أحمد المزروعي عن سعادته بالفوز بجائزة العويس للإبداع، وقال: «أتشرف بهذه الجائزة وأعتبرها فخراً لي، كما أشكر جائزة العويس التي احتفت وقدرت جهودي».

وأضاف: «أعتبر هذا الإنجاز ليس لي، بل هو إنجاز لجميع المبدعين والعاملين في مجال التراث الشعبي بدولة الإمارات العربية المتحدة».

وجاء ترشيح الدكتور راشد أحمد المزروعي من قبل اللجنة المنظمة للجائزة تقديرًا لمجمل أعماله ومجهوداته وإنجازاته في مجال الثقافة الإماراتية، والتراث الشعبي بالتحديد.

والمزروعي أحد أهم المنشغلين بتحقيق ديوان الشعر الشعبي الإماراتي، وقدم حتى الآن أكثر من 25 ديوان لشعراء شعبيين صدر معظمها عن نادي تراث الإمارات.

ولا تنحصر اهتمامات المزروعي في الشعر الشعبي فقط بل إنه مهتم بجمع وتدوين ودراسة التراث الشعبي ككل، خاصة الشعر الشعبي والأمثال الشعبية والحكايات الشعبية، وكذلك تاريخ وجغرافية الإمارات.

وهو صاحب أول عمل موسوعي من نوعه في مجال الأمثال الشعبية، يتكون من أربعة أجزاء جمع فيها 4200 مثل شعبي من أهم الأمثال الشعبية المحلية، ويصدر الجزء الأول منها قريبًا. كما أنجز موسوعة لأعلام الشعر الشعبي في الإمارات من جزئين كل جزء يوثق حياة وأعمال 16 شاعرًا من القدماء الذي شاركوا في النهضة الأدبية بالدولة منذ بداية القرن الماضي وإلى رحيل الشيخ زايد طيب الله ثراه.

وأكد المزروعي في لقائنا به أن كثير من شعراء تلك الحقبة لم يعلم عنهم أحد على الرغم من إثرائهم للساحة الشعرية الإماراتية، وأرجع السبب إلى انتشار الأمية آنذاك، فلم يُكتب شعرهم أو يوثق، وأضاف: «في بحثي وعملي كنت أجمع الشعر والقصائد من صدور الحفظة والرواة، تخليدًا لهؤلاء الشعراء العظام».

ويرى المزروعي أن هدفه من هذا العمل المساعدة على فهم وقراءة الماضي التليد، ففيه الكثير من التصاوير المميزة والشروحات المفصلة عن المجتمع الإماراتي قديمًا، وقال: « رأيت من واجبي إحياء هذا الموروث المهم».

وأهدى المزروعي فوزه إلى نادي تراث الإمارات الذي وصفه بأنه أكثر المؤسسات المحلية المهتمة بإحياء التراث بمختلف مفرداته، وحققت نجاحًا ملحوظًا في ذلك.

وقال: «النجاح لنا جميعًا، وكل هذه النجاحات التي يحققها نادي تراث الإمارات ترجع إلى دور سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان ممثل صاحب السمو رئيس الدولة حفظه الله ورئيس نادي تراث الإمارات الذي يقف بقوة وراء كل المشاريع التي تصب في خدمة التراث والحفاظ عليه من الإندثار، ونقله للأجيال الصاعدة بكل أمانة ■

ضمن ملتقى متحف زايد الوطني

20 لهجة محلية في الإمارات

أبوظبي – الفاضل أبو عاقلة
تصوير– حسن مصطفى

«20 لهجة محلية – على الأقل- في دولة الإمارات العربية المتحدة» هذا ما أكده الباحث محمد أحمد عبيد في ندوة جمعته بالباحث سلطان العميمي مدير أكاديمية الشعر، الشهر الفائت في منارة السعديات في أبوظبي.

وأوصى عبيد بتكثيف مشروعات جمع مفردات تلك اللهجات المحلية، وتوثيقها ودراستها، مؤكدًا ما لها من بعد بحثي وتاريخي مهم.

وكانت الندوة التي نظمها ملتقى متحف زايد الوطني ناقشت جماليات اللهجة الإماراتية ومرونتها وقدرتها على استيعاب مفردات جديدة، واستعرضت التغيرات والأنماط اللغوية الفريدة في لهجات الإمـارات، بفعل التأثيرات الأجنبية التاريخية وغيرها، وناقشت أشكال استخدام اللهجة الإماراتية في التقاليد الشعرية المحلية.

أدار الندوة -التي حملت عنوان «اللهجة الإمارتية، هوية وطن» الدكتور موسى الهواري رئيس قسم تطوير المحتوى التعليمي في مجلس أبوظبي للتعليم.

وتحدث الكاتب والباحث الدكتور أحمد محمد عبيد عن ارتباط اللهجة بمعايير تتضمن الاستسهال والتقارب الجغرافي بين القبائل العربية وتفاعل الجيل الجديد، وتطرق إلى ظاهرة الإبدال وارتباطها المباشر بقوانين الصوت؛ كإبدال العين ألفًا فيقال «ألي» بدلًا من «علي» و«أليكم» بدلًا من «عليكم» في لهجات قبائل الشحوح والحبوس والظهوريين وأهل الرمس.

من جانبه ناقش الباحث سلطان العميمي اللهجات المحلية الإماراتية في بيئاتها الأربع: البدوية والساحلية والجبلية والزراعية، وأشار إلى أن الموقع الجغرافي والتنوع القبلي في هذه المناطق من أهم الأسباب في اختلاف اللهجات بين البيئات. وقال إن المنطقة الغربية «البادية» في إمارة أبوظبي فقط تضم أربع لهجات مختلفة في مناطق السلع والختم

ومدينة زايد والرويس، لافتًا إلى أن هذا التنوع يعود كذلك إلى تزاوج أبناء القبائل إذ تختلط اللهجات بين القبائل لتنتج عنها لهجات جديدة أخرى.

واستعمل العميمي بعض المفردات الإماراتية من اللهجات المحلية ليبرز من خلالها تنوع وثراء تلك اللهجات، ليظهر تمكن متحدثي اللغة في التواصل مع بعضهم البعض، وذكر على سبيل المثال «فلان عده في الدار» وهي تعني فلان «بعده» أي ما زال في الدار.

وانتقل العميمي إلى المفردات التي أسماها «الدخيلة» على اللغة العربية وبالأخص اللهجة الإماراتية، وذكر أن نسبة تلك المفردات قليلة جداً لا تتجاوز الـ 2 %، ويعود ذلك إلى حجم المفردات العربية في اللهجة الإماراتية القديمة كبيرة جدًا بل أكبر مما نتخيل.

وقال العميمي: «هناك مفردات قديمة تعود إلى 1400 سنة وتم توارثها من جيل إلى آخر وهي موجودة حتى اليوم مثل كلمة «خندريس» التي تعني التمر الجديد وهي كلمة فارسية.

وقال إن المفردات الدخيلة غير العربية دخلت إلى المجتمع الإماراتي مع الاستعمار الأجنبي في المنطقة ومع التبادل التجاري ووصـول الجاليات غير العربية للعيش في البلاد، كالمفردات الإنجليزية والهندية والتركية والفارسية، ولكن الأكثر تأثيرا هي الإنجليزية والهندية، وأقلها الفارسية والتركية.

«20 لهجة محلية – على الأقل– في دولة الإمارات العربية المتحدة» هذا ما أكده الباحث محمد أحمد عبيد في ندوة جمعته بالباحث سلطان العميمي مدير أكاديمية الشعر، الشهر الفائت في منارة السعديات في أبوظبي

وأشار العميمي إلى ذكاء أهل الإمارات في استخدام هذه المفردات بطريقتهم الخاصة، وتجلى هذا الذكاء في تحويل بعض الكلمات الأجنبية إلى مفردات محلية ليتكيف بها المجتمع الإمـاراتـي حسب احتياجه لها بطريقته الخاصة، وذكر على سبيل المثال كلمة «موتور» التي تعني السيارة في اللغة الإنجليزية بعد أن تم تعريبها إلى اللهجة المحلية بكلمة «موتر».

وفي جوابه عن سؤال أحد الحاضرين حول اهتمام الدولة باللهجة الإماراتية على مستوى التعليم ومخاوف الآباء من اختفائها لدى الأجيال القادمة التي تأثرت وستتأثر بالمفردات الدخيلة الأجنبية، أجاب العميمي إن هناك اهتمامًا كبيرًا في غرس اللهجة المحلية من قبل الدولة، وذكر أن أكاديمية الشعر قدمت اقتراحًا لوزارة التربية والتعليم حول منهاج محلي إماراتي وعربي.

من جانبه قال الدكتور موسى الهواري إن مجلس أبوظبي للتعليم يولي اهتماماً باللهجة المحلية من خلال الأنشطة الطلابية التي لا تخلو من جزء خاص بالمفردات المحلية القديمة ■

خلف من يركض الحظ؟

د.فاطمة حمد المزروعي

في هذه الحياة نرى أناسا كثيرين، منهم شخصيات ناجحة ومشهورة، منهم من حقق بعض النجاح في جانب من جوانب حياته، منهم من يتحدث عن نجاحه حين كان في المدرسة أو بداية حياته مفصلا ذلك، متغاضيا في الوقت ذاته عن المراحل الأخرى.

حين نتحدث عن أصدقاء الطفولة أو الجيران القدامى، فنسمع أخبار نجاحهم وإنجازاتهم،

قد يعلق أحدهم ليذكر أمرا سلبيا في ماضي هذا الشخص، من خلال ذكر فشل سابق له، أو يغمز بخلفيته. قد نسمع صوت أحد الحضور، خاصة من النساء، يستشهد بالمثل: الحظ للشلقا والبلقا وشينة الملتقى! معنى المثل أن الحظ الحسن للحولاء و جاحظة العينين ومن لا تحسن لقاء الناس وصحبتهم، أي أن الحظ يخاصم من يستحقه سواء أكان جميل الوجه أم كان كريم الملتقى.

لفت نظري تكرار إحدى السيدات لهذا المثل حين تسمع عن شخص ناجح سواء أكان رجلا أم امرأة، من دون أن يعلق أحد على المثل وتعليقها عليه. هذا استوقفني في عدة جوانب، ما الفرق بين النجاح والحظ؟! كيف يرى الإنسان الحظ؟! ولماذا يربط بعض الناس النجاح بالحظ وليس بالعمل الدؤوب؟!

هناك فرق بيّن بين النجاح الذي يتطلب عملا وجهدا مستمرا، وبين الحظ الذي لا يبذل فيه المرء جهدا، إذ يكون نصيبا وقدرا، لكن حتى الحظ الحسن بربح جائزة قيمة مثلا، يستلزم حسن تصرف وحكمة حتى لا يذهب هباء ويضيع.

لقد وصف بعض الفلاسفة منهم شيشرون الحظ بأنه أعمى، وفي المثل العربي: ربّ رمية من غير رام. يرى بعضهم أن الحظ قد يكون طوق نجاة أحيانا؛ لهذا قالوا: اعطني حظا، وارمني في البحر. لكن الحظّ فعلا هو المطية الوحيدة للجهلاء بما يريدون، الكسلاء عن تحقيق أحلامهم؛ لأن الحظّ يكون سعيدا لمن يؤمن به، يسعى إليه، فالإيجابي يجلب الحظّ لنفسه بتفاؤله وإيجابيته.

لكن لماذا ينسب بعض الناس النجاح إلى الحظّ، وبأنه أعمى لا يعرف من ينتقي؟! عند التفكير سنجد أن ما يقوم به هؤلاء هو وسيلة مقاومة و دفاع عن الذات! للوهلة الأولى يبدو الأمر عجيبا وغريبا في تفسير موقف من ينال من الناجحين وإنجازاتهم. هؤلاء حين يسمعون عن النجاح يتذكرون أنفسهم، يرون فشلهم أو أن نجاحهم لم يحظ باهتمام الآخرين؛ لهذا حسدا أو جهلا بذلك يعمدون إلى تشويه نجاح غيرهم بنسبته إلى الحظ الأعمى، أما هم فهم ليسوا مقصرين، لكن الحظ لم يطرق بابهم، بل طرق باب الشلقا والبلقا، غير أن الحظّ ، كما فسره أحد المفكرين، الاسم الذي يعطى لجدارة الآخرين .

ربما يلعب الحظ دورا في تسهيل الأمور أو إيجاد الفرص، غير أن المحظوظ يحتاج إلى العمل الـدؤوب، لكي يستفيد منه. إن النجاح الحقيقي هو حصيلة لإيمان المرء بنفسه، وقدراته الكامنة؛ هو المسؤول الأول والأخير عن تحويل أحلامه إلى واقع فعلي. أما الحظ وارتباطه بالقدر فهو مما لا قدرة للإنسان على تغييره إلا بالدعاء ■

*باحثة وأديبة من الامارات

الحياكة والتطريز

من الإبداعات النسائية التي تحفظ جماليات التراث في دولة الإمارات

تصوير: مرشد المهيري

الحدث معنا كما يجب أن يكون

الشريك الإستراتيجي
IPIC
عالم WORLD One World, 6 Continents

إحدى قنوات
ABU DHABI MEDIA

NILESAT | 7° W | 12467 H | 27500 | 2 / 3 | DVB-S2, 8PSK | MENA
BADR | 26° E | 11804 H | 27500 | 3 - 4 | DVB-S, QPSK | MENA
HOTBIRD | 13° W | 11747 H | 27500 | 3 - 4 | DVB-S, 8PSK | EURO

YassportsTV
yastv.ae